هـــولير حبيبتـــي

روايـــــــــة

عبــد البــاقي يوســف

اسم الكتاب : هولير حبيبتي
تأليف : عبد الباقي يوسف
إخراج فني : هيام فهيم
رقم الإيداع : 2021/15366
الترقيم الدولي : 978-977-6732-94-0
الناشر : اسكرايب للنشر والتوزيع

002 01005079256
Scribe20199@gmail.com
اسكرايب للنشر والتوزيع
اسكرايب للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية
اسكرايب SCRIBE

الجزء الأول

هولير حبيبتي

في ضفّة جفن الصّباح الباكر، عندما تتفتّح مساماتُ الزهور، عندما تستوي العصافير على أعالي الأشجار وتملأ الأجواء زقزقةً، عندما تخرج الفراشات، وتضفي على الصباح إشراقة الحياة، تفتح هولير لؤلؤتَي عينيها، وهي تتمطّط في حرير فراشها الدافئ.

تجلس قليلاً، تتأمّل قلائد الهدايا، وبديع التّحف، ونوادرَ الجواهر النفيسة التي تزدان بها حجرة نومها الواسعة من كلّ حدب وصوب.

تنهض باحتفاليَّةٍ مُستمتعَةً بحركات النّهوضِ الصّباحي الأولى من السّرير حتى تستوي واقفة على قدميها، تمدُّ خطواتٍ إثر خطواتٍ آخذةً جسدَها شطرَ إطلالة النّافذة المُشرفَة على /البازار/.تمتلئ نشوةً وحيويّةً وهي تلقي نظراتٍ تتأمل نوافيرَ المياه، قبّةَ الجامع العتيق، عقاربَ السّاعة الكبيرة التي تطل عليها، أسرابَ الحمام وهي تزيّن الجدرانَ والأرضَ بحركاتها.

تمتدُّ خطواتُها إلى النّوافذ الجانبيّة، الخلفية، المُشرَّعة لاستقبال خيوط الشّمس الأولى، تتأملُ معالمَ مدينتها الأزليّة كأنها تنظر إليها أوّل مرة.

تجتاح شغافَ فؤادِها موجاتُ نشوة غامرة ونظراتها تمتدّ إلى أبنائها يخرجون ببُنَاهم القوية، ولياقةِ أبدانهم من أبواب بيوتهم للتو، يفركون عيونَهم التي ما تزال تحمل آثارَ نوم عميق، يدبّون بخطواتهم الواثقة شطر صنعاتهم.

يُدَندِنُون بمطالع أغنيات كورديّة عذبة، وهم ينتشون بسماع عذوبة موسيقا هولير الصّباحيّة الأزليّة الخالدة.

ينتابها شعورٌ بالطمأنينة، فتتجه بخطوات ملكيَّةٍ إلى رُدهة حمّامها، تستحمُّ برحيق القرنفل، تتنشَّف بأوراق ورد النرجس، ثم تتجه إلى مائدة الإفطار وقد أحضرها الخدمُ بانتظار ولوج سيدتهم التي اعتادوا على طقوسها الخاصة منذ دهر بعيد.

بعد أن تفرغَ من تناول إفطارها الصّباحيّ، تمضي بخطوات بطيئة صوبَ محراب جناح زينتها، ثم تتجه كرّة أخرى، تجوب النوافذ نافذة نافذة، تنثر أريجَ عطرها الصّباحي الفوّاح على أبنائها، وزوّارها، وسيّاحها، وضيوفِها، وقد استوى بها المقام في أَوْجِ حلّتها.

عندئذٍ ما تلبث أن تتوافدَ أسراب خلايا النحل من جهات الله، تنهل نصيبها من عبير هولير الذي يفوق كل زهور الأرض لتستخرجَ منه غذاء ملكتها، وهي تقدّمه لها على طبق من ورق الورد.

يتوافد السّيَّاح من كل بقاع الأرض، يجوبون أركان القلعة الأزلية، يحاكون الأَوابدَ، يمارسون طقوساً قديمة، يتبرّكون بملامسة الجدران، يستنشقون عطرَ القرون الغابرة، يطوفون المداخل، الدّوائر، المنعطفات، يصعدون المرتفعات، يهبطون المنحدرات، يتلمّسون شغاف الآثار النّفيسة.

لقد سحرتهم هولير ليقطعوا آلاف الأميال إليها كما سحرت قبائل الدنيا قاطبةً من قبل.

تستمتع هولير، وتمتلئ شعوراً بألق مجدها، وأنها تزدان في أوج فتنتها الخلّابة.

عندما يقع المرء في ثنايا عشق مدينة، عندما تسحره ذرات ترابها، عندما تسكنُه شوارعها، شارعاً شارعاً، ضواحيها ضاحية ضاحية، أحياؤها حيّاً حيّاً، أَقْضِيتها قضاءً قضاءً، أشجارُها شجرة شجرة.

عندما تأسره بحبها، وتهيمن على كل خفقة من خفقات فؤاده.

كم يطيب النّومُ في رحابِها، يروق المشي في دروبها، ينتعشُ النّسيم في محرابها، تتلألأ الزهور على أشجار حدائقها.

تُضفِي على كلّ شيء مسحةً من سحريّتها، كلُّ شيء يتفوّح بعبق ريحها.

أدرك في لحظاتٍ أن هولير ليست كجميع المدن التي سافر إليها، وأقام فيها.

إنها مدينة الحلم الأزلية التي لا تقبل أن يدخلَها المرءُ كما يدخل غيرها، أن يقيمَ فيها كما يقيم في غيرها، ثم يتركها كأن شيئاً لم يكن.

إنها ترفض ألّا تتميز عن سائر أخواتِها المدنِ في أرجاء الأرض، وهي التي اسْتحوَذَت على قلوبِ ملوك وأباطرة وجَبابِرَة وسلاطين وقادة الدنيا منذ فجر تاريخها، هي التي ضَعُف الجبابرة أمام قدميها، وهن الملوك أمام سحرها، استسلمَ الأباطرة لبديع قوامها، خارَ السّلاطين في حضرة هيبتها.

كل ركنٍ في هولير يطفح بلمسة سحر مباركة
كل شيء يتعمّد –طوعاً أو كرهاً– في معمودية هولير:

هديلُ الحمام على أسطح هولير
زقزقة العصافير على أعالي الأشجار في صباحات هولير الباكرة
قباب المساجد في أزقة أحياء هولير
إيقاع سكون الليل في بيوت هولير
متعة المشي الهوينا على فضّة أرصفة هولير
حفيف الشجر في شوارع هولير
تذوّقُ قِشْدةِ غفوةِ القيلولة في ظهيرات هولير.

ليس في هولير موضعٌ غير قابل لخفقة عشق
ليس في هولير لمسة غير قابلة لهمسة قلب
كل ما في هولير يطفح في نظره بألق فتنة الجمال.

حينئذ يشدو فؤاده كما لم يشدُ من قبل:
ما أبهى خصلات الشمس في ثنايا جدائل شعرك يا هولير
ما أروع معالم غروب الشمس على ضفاف ضَوَاحِيكِ يا هولير
ما أجمل ظهيرات القيلولة في أركانك يا هولير
ما ألذَّ احتساءَ قهوةٍ في فَيْء عصرك يا هولير
ما أطيب عطر العشاء في أماسيكِ يا هولير
ما أعظم شأنك يا هوليرتي
ما أسماك يا هولير وأنت هولير

هكذا بدت هولير مدينة زاهية في ناظرَيه، تُكحّل عينيه بكحل لمساتِ ولوجٍ رحاب مملكتها السّحرية .

يتأمّل جمالياتِ مقدمات معالمها، وهو يطلب من السّائق أن يخفّف من سرعة السيارة ما أمكنَ حتى يملّي عينيه من مشاهدة جماليّات مداخلها، ينتشي بشمّ عبير عطر ترابها الفواح الذي بدأت تنهمر عليه زخّات مطر رذاذية، وهي تشرع ذراعيها مرحّبَة بكل زائر وضيف على رحب وسَعَة.

تتمهّل عجلات السّيّارة، وهي تستوي على الطّريق بتَؤُدَة على إيقاع أنغام أغنية كوردية بمذاق سحريّةِ اللهجة السورانية، حاملة عائلته الصغيرة، وحقيبتين استطاعت زوجته أن تدسَّ فيهما بعض ما وقع في يديها، وهي تغالب فيض الدموع الذي أخذ ينفجر من نبعَي عينيها، وثقل الغصّة التي استقرّت في خرزة حنجرتها، مودِّعَة بيتها الذي قد لا تراه ثانية، بيتها الذي أثَّثَته آثاثاً آثاثاً، طلَتْه جداراً جداراً، أضفَت عليه لمسات جمالية لمسة لمسة.

بيتُها الذي تحوَّل مع الأيام إلى مكمنٍ لأسرارها، وشاهدٍ على مراحل ولادة ونمو كل طفل من أطفالها.

بيتها الذي تحوَّلَت فيه من فتاة إلى زوجة، من زوجة إلى أمّ، من أمّ إلى شريكة حياة أبديّةٍ لرجل سوف تلازمه في كل خطوة يخطوها.

بيتها الذي تَتَوَّجت فيه سيدةً، وراوَدَها إحساسٌ لأول مرة بلذة المُلكية.

بيتها الذي غدا مستودعاً لذكريات حقبة تحوُّلية مفصليّة من عمرها.

ها هي تودعه كُرهاً كي تنجو بأطفالها من براثنِ حرب أهلية بدأت تلوح في الأفق بكل ما تحمل من مُفرزات، فقد تكاثرت عمليات خطف الأطفال من المدارس، من الشّوارع، من أمام الأبواب، خطف الرجال، خطف النساء طلباً للفدية، بدأت أصوات الرّصاص تتعالى في الطرقات، قصف بيوت آمنة بالصواريخ، اغتيالات في الطّرقات،

أمام أبواب البيوت، انفجار سيّارات ملغومة، انفجار عبوات وقنابلَ في الطرقات، انعدام وسائل الحياة حيث لا وقود، لا هاتف، لا كهرباء، لا غاز.

ارتفاع أسعار المواد التّموينيّة، انعدام حاجات أساسية للمعيشة في ظلّ فلتان أمني تعجز فيه الدولة أن تحمي حتى أقطابها الذين تطالهم عمليات الاغتيال وهم في أوج قياداتهم العليا لأمن البلاد.

الأمر الذي أدّى إلى موجات نزوح مرعبة بين مختلف الفعاليات الاجتماعية، حيث أدّت عملياتُ خطف الأطباء، والأثرياء، والوجهاء، والصناعيين، والتُّجار، إلى حالات نزوح متدفّقة إلى مختلف أنحاء العالم، رأت الدولةُ أن تواجه ذلك بالحدّ من منح جوازات السفر، فبات الحصول على جواز يستغرق نحو سنة، مما أدى إلى ظهور احتكارات في بيع جوازات سفرٍ فوريَّة بأسعار مرتفعة.

سنة وثمانية شهور مضت على الأزمة، وهو يؤجل الخروج شهراً إثر شهر متشبثاً برائحة المكان بانتظار أن تضع الحرب الفتّاكة أوزارَها، بيد أن التّصعيد مع كل شهر يأخذ بعداً جديداً، يهدم بيوت عشرات الآلاف من البشر، يسحق أحلامهم دون رحمة.

ينظر في عيون أطفاله الصغار، يشفق بهم وقد حُرموا من كلّ شيء، حتى من الوقوف لحظة أمام الباب بعد أن خُطِف طفلٌ من الجوار، وبعد عدة أيام استطاع والده أن يتدبّر الفدية التي تم طُلبَت منه، وأعطاهم إياها حتى أعادوا له فلذة كبده.

كلما يأتي صوت، يخرج سكّان الحي كله من بيوتهم بهلع وكأن زلزالاً قد وقع تحسّباً لسقوط قذيفة مباغتة على الحي، في وقائع حياة مِلؤها الهلع والرعب والقلق.

أحياناً يلعن ما أقدم عليه الشاب التونسي الذي تسبب في إشعال فتيل تفجير الثورات العربية، تسبّب في إراقة كل هذه الدماء من أجل أن يستقيل رئيس، ويحل نيابة عنه رئيس آخر.

لقد انسحب زين العابدين بشجاعة قبل أن يرى الصواريخ تنهال على ضواحي بلاده، وعقبه حسني مبارك محافِظاً على حياة وأحلام وآمال ملايين الناس، بيد أن العقيد لم

يكن يتخيل نفسه إلّا عقيداً، فإما أن يكون عقيداً، أو لا يكون. لم يكن يتخيل نفسه وقد تقاعدَ به الدهر.

في اليمن، اقتنع الرجل بفكرة تسليم السلطة قبل أن تقوم الطائرات بإلقاء البراميل المتفجّرة والأسلحة الكيماوية على الناس وهم في بيوتهم. وها هي بلاده التي باتت كمثل نفاثات في عُقد، يكْتنفُ فيها الغموضُ كل شيء، تنزف نزيفاً داخلياً دون أن يجسُر أحد على تقديم ما يمكنه الحدّ من سيلان هذا النزيف. هكذا في لحظة مباغتة يمكن لكل شيء أن ينقلب رأساً على عقب كما لو أن زلزالاً قد وقع.

يوم الخامس عشر من مارس، عندما اشتعل فتيلُ الزلزال، كان مع أطفاله في حديقة الحيوان بـ دوما، في قلب العاصمة، لم يكن يخطر لأحد أن أمناً مُستتباً كهذا سينقلب رأساً على عقب.

في ذاك اليوم المعلوم بدأ الناس يغيّرون حساباتِهم، وينظرون إلى الغد بشيء من ضبابية، حينها قطع إجازته وأعاد أطفاله إلى مدينته في الشمال. بيد أنه يعود ويبارك تلك الشّرارة التي أوقد فتيلها ذاك الشاب جاعلاً من حياته قرباناً لأجيال قادمة تتمتع بحياة حرة كريمة كبقية شعوب المعمورة. ذلك أن مهرَ الحريّة نفيسٌ، مهرها دماء، وأحلام، ودمار، ومَهَالِك، فإما أن تغامر الشّعوبُ وتقْدِم عليها بشجاعة الفرسان، أو تبقى مسحوقة أسيرةً أبد الدهر.

في تلك اللّحظات الحاسمة وهما يودّعان أقرب أركان الدنيا إلى قلبيهما، تبادلا نظراتٍ مُثقلَةً بالدموع وهما يجرّان خطواتهما بتؤدة من بيت العمر، يمسحان جدرانه جداراً جداراً، يتأملان أركانه ركناً ركناً، يخرجان خِلسة وهما يحملان الحقيبتين كي لا يراهما أحد وكأنهما لصّان خرجا بحقيبتين مسروقتين.

حتى الأطفالُ حينما لمحوا أبويهم في خلسة مبهمة كهذه، ركنوا إلى حالة من هيبةِ صمت مريب منتظرين ما سيَلي ذلك.

كرّر على مسامع زوجته بنبرة صوت خافتة: أنتِ متأكدة أن أحداً لم يشك بالأمر؟

أكّدت تقول: إنها مسألة حياة، أو موت، لم أدع لأحد مأخذاً للشك لحظة واحدة.
ثم أضافت بحذر جمّ وهي تُشدّد على الكلمات: حتى الهاتف كنتُ حذرة به منذ الأسبوع الفائت عندما بدأنا نرتب أمرنا للخروج، أعلم جيداً أن تسريب أي معلومة يمكن لها أن تودي بنا جميعاً كما حدث مع عائلات كثيرة مثلنا، خاصة وأن عملك هنا يحمل حساسيّةً، وسينتشر خبر سفرك بسرعة البرق.
في الصباح الباكر كان عليهما الاستعجال ما أمكن قبل أن تَدِبَّ الحركة في الشوارع، وحينها قد ينتبه أحد ويريب في الأمر خاصة وأن موجات النزوح أخذت تتصاعد.
كان الطقس صقيعياً، وكان عليها أن تُلبِس الأطفالَ ثياباً شتويّة دافئة، وهم يتجهون إلى مدار مصير مبهم كل الاحتمالات فيه ممكنة، تاركين دياراً لم تعد فيها الحياة ممكنة.
كانت صبيحةَ يومِ جمعةٍ، حركة السير فيه بطيئة، بسبب العطلة الرسمية والشعبية من جهة، وبسبب كثافة المظاهرات التي تنطلق من المساجد من جهة أخرى.
فتح الباب، وخرج يهرول على عجل حتى بلغ الطريق العام، أحضر سيارة أجرة وعلى جناح السرعة أصبحوا جميعاً مع الحقيبتين في السيارة التي اتجهت بهم إلى حيث الكراج الذي تنطلق منه الباصات إلى (قامشلو).
ابتعدوا عن البيت دون أن يراهم أحدٌ، دون أن يلوحوّا أكفّهم لوداع أحد، دون أن يلوّح أحدٌ كفَّه لوداعهم.
كان التّرتيب أن يحافظوا على سرية خروجهم، ولا يتركوا إشارة يمكن أن تجعل أحداً يشكّ بخروجهم من البلاد مهما كان مقرّباً، لذلك كان الوداع من طرف واحد، حيث قاما بزيارة بعض المقربين، وأمضت يوماً باتت فيه مع الأولاد عند أهلها، وذهب بدوره إلى القرية يودّع أهله.
كأنهم غرباء في هذه الديار، لا أحد لهم فيها، كأنهم اقترفوا جريمة ويبتغون التّواري عن الأنظار قبل أن يكشف أمرهم أحد.

عندئذ لم تملك زوجته نفسها فقالت له: حتى الغريب الذي يقيم أسبوعاً واحداً في ركن، يرى مَن يتبادل معه تلويحة كفّ الوداع عندما يترك المكان.

حينما وصل الباص كراجَ (قامشلو) راوده إحساس أنه خطا خطوة حقيقية نحو الخروج، وأن تلك الديار بكل ما تحمل من عبق الذكريات بدأت تبتعد خطوة إثر خطوة.

عند نزولهم، مضوا على عجل حاملين أمتعتهم صوب المكرو الذي سيقوم بأخذهم إلى بوّابة المَنفَذ. كان المكرو واقفاً بانتظار أن يمتلئ بالركاب الذين ينزحون من ديارهم صوب الإقليم الكوردي.

بعد صعودهم بقليل، اكتظَّ بالرّكّاب، واتّجه على الفور يشقّ الطريق المؤدّي إلى (ديركا حمكو). مع كل لحظةٍ يعتريه شعور بأنه يبتعد عن رائحة المكان الذي أمضى عمره فيه، المكان الذي أحبه وتعلق به، ويتفوّح برائحة ذكريات سنوات الطفولة، واليفاعة، والتّكوين، سنوات العمل والكفاح، واكتشاف مشاق وملذات الحياة..

إلى مكان لا يعرف فيه شيئاً، مكان يدخله أول مرة، أناس يلتقيهم للوهلة الأولى، هكذا.. حتى السّفرُ يأخذ طعم المرارة عندما يرى المرء نفسه مضطراً إليه، عندما يخرج من بيته بحسرة البقاء فيه، وكأن أيادٍ شبحيّةً تجرجره بالقوة من رائحته.

قبل أن يبلغوا (ديركا حمكو) بقليل، عرج بهم السائق شطر طريق مفروش ببقايا البحص، وما لبث أن استوى يمضي في وسطه بثقة، وهو يتبادل أطراف حديث مع الراكب الذي يجلس إلى جواره.

بدا الطريق وعِراً، يمتلئ بالمنحدرات مما أدى إلى خفض السرعة والمضيّ بكثير من التمهل تلافياً لما قد تسببه المنزلقات التي أخذت في الظهور مع بدء هطول مطر كثيف.

بدا الأمر يتَّسِمُ بشيء من السوداوية مع تصاعد كثافة البروق، وقوة أصوات الرّعود، وكثافة المطر، فكيف سيحملون أمتعتهم ويقطعون مسافة طويلة سيراً على الأقدام وسط الوحول والمنزلقات في طقس عاصف وماطر كهذا.

بدأت عقاربُ السّاعة تدور لتتعاقَبَ الساعات، والسيارة تجاهد كشيخ عجوز كي تستأنف مسيرها ولا تضطر للوقوف.

بعد نحو ثلاث ساعات، لاحَتْ لهم ملامح موقع قال السائق بأنه المنفذ الذي سينزلون فيه، وينطلقون خارجين من آخر خطوات بلادهم.

عندما وصلتْ السيارة، كان ثمة أناس يتجمهرون بانتظار سيارة أخرى تقِلُّهم إلى ما يمكنها الوصول كي يستأنفوا الطريق مشياً.

أشار لهم البعض كي يتجهوا إلى حيث الحجرة التّابعة إلى هذا المقر الذي استلمه عناصر من حزب العمال الكوردستاني، يقومون فيه بتنظيم وتيسير شؤون اللاجئين.

قاموا بتسجيل بياناتهم بموجب بطاقاتهم الشخصية وما لديهم من وثائق، ثم ركبوا سيارة مضت بهم حتى أنزلَتْهم في آخر موقع يمكنها أن تنفذ إليه، حيث تبدأ مرحلة السّير على الأقدام بسبب التلال، والمنعطفات، وحقول الألغام.

كان المطر ما يزال يهطل، لكن بأقل مما كان عليه من غزارة، أخبرهم السائق وقد نزلوا أن المطر منع بعض الناس الذين عادة يصطحبون الخيول والحمير لحمل الناس والأمتعة في وعورة الطريق، لكن ليس أمامهم الآن، وقد قطعوا شوطاً طويلاً في رحلة اللجوء سوى أن يتّكلوا على الله ويمضوا بعزيمة كأن الطقس ربيع لأن ذلك سيخفف عنهم مشاق الطريق، ثم حذرهم من الخروج عن المسار الذي يحمل آثار أقدام الناس لأن المكان مليء بحقول الألغام.

قدّموا شكرَهم للسائق على نصحه، ومضوا مجموعة في طريق مجهول لا يعلمون أين سيودي بهم.

كانوا نحو عشرين شخصاً بين رجال ونساء وأطفال.

أقدم بعض الشُّبان على مساعدتهم من خلال حمل الحقيبتين، وحملت زوجته الطفل الصغير، في حين أمسك بيد الطفلين ومضوا يشقون بخطواتهم كبد الطريق وسط وحول الأودية، ومنخفضات السهول.

في الطريق لفت نظره شخص في نحو الخمسين من عمره، محتقِن الوجه، تترنح به خطواته، وقد بدا منهكاً. بدأ ينظر إلى الرجل، ثم ما لبث أن مدّ خطوات نحوه، عندئذ رأى بأن ثمّة فتاة في نحو العشرين من عمرها تصطحبه. ألقى عليه السلام، فأجاب الرجل بكثير من الود مُرحِّباً بالتّعرف إليه، وللتو لمح الدموع تترقرق في عينيه.

بعد قليل من سيرهما معاً لاحظ أن الرجل مدّ يده إلى جيب سترته الداخلي وأخرج زجاجة عرق، جرع منها رشفة، ثم ما لبث أن أعادها إلى موضعها، وأشعل سيجارة جديدة من عقب سيجارته المُنتهية.

بعد نحو نصف ساعة من المشي وهو صامت ويجرع بين حين وحين رشفة من الزجاجة حتى بدت فارغةً في يده، حينئذ قذفها جانباً، طلب من ابنته أن تُخرِج له زجاجةً جديدة، فاستجابت له الابنة وراحت تضع الزجاجة المتوسطة الحجم في كيس أسود اللون، وتدسّها في جيبه.

عندما رأته منسجماً مع أبيها، راحت بدورها تتعرّف على زوجته وتبادلها الحديث، وفجأة رأى الدّموع تترقرق من عينَي زوجته وهي تتبادل معها الحديث.

اقترب منها مستفسراً، فقالت: تقول بأن أباها كان يعمل سائقاً للتكسي في الشام، وهي تعمل مطرّزة في مصنع للألبسة.

منذ يومين وبينما كانا في عمليهما، سقطت قذيقة على بيتهم الذي يقيمون فيه بالأجرة، وقضت على أمها وأختها وأخيها. في تلك اللحظات نسي ما آلت إليه حاله، ورأى نفسه يواسي الرجل ويأخذ بخاطره عارضاً عليه أي مساعدة: نحن أهلك يا جنكدار.

شكره الرجل قائلاً: إن شاء الله نحن أهل يا أبا لاوين.

تناهى صوت الفتاة: قال بأن علينا الذهاب إلى كوردستان رغم أن بيروت كانت قريبة منّا، وكذلك الأردن. قطعنا ذاك المشوار الطويل من دمشق إلى قامشلو وقد عرّضنا أنفسنا للمخاطر بين حواجز الجيش الحر، والجيش النظامي، وحواجز قطاع الطرق، والميليشيات.

قال الرجل: لولا (جين) نور عيني لانتحرتُ، لا حياة لي بعد زوجتي وأولادي.
ثم انفجر يبكي بحرقةٍ كما لو أنّه طفلٌ حتى ابتعدَ عنه مُشفِقاً بحاله، ترجّاه أن يرتاح ولا يذكر شيئاً، ثم بدأت الفتاة من جهتها تقبّل يديه مُتوسِّلة إليه أن يهدأ.
كانت المرةَ الأولى التي يرى فيها رجلاً ينفجر بكاءً بهذا الألم، ولم يملك نفسه من دموع بدأت تنحدر من عينيه.
قالت الفتاة متضرّعة وقد نال منها الفزع: من أجل الله ارحمْ نفسك يا أبي، لم يبقَ لي غيرك في هذا العالم كله. جرع الرجل جرعة أخرى فقالت جين: هذا الشراب يجعله ينعس وينام في الليل. عندما امتدت خطواتُه الأولى إلى حدود الإقليم، راوده إحساسٌ أن مرحلة حاسمة من مراحل اللّجوء قد قُضِيَتْ.
استغرقَ المسيرُ نحو ساعتين حتى وجدوا أنفسهم وقد أوشكت الشّمسُ على المغيب في عهدة حرّاس حدود الإقليم. عندها تفرّقوا، وباتت كل عائلة في حالة تدبير من أمرها، كان هناك بعض الناس قد قدموا لاستقبال البعض، وأخذهم إلى البيوت. لبثوا وحدهم في خيمة الحرّاس وقد بدا الإنهاك واضحاً على سحناتهم. تقدموا إليهم بعبارات الاستقبال والترحاب بلغتهم الكوردية المطعمة باللهجة (البادينية).
حملُوا الأطفال، وراحوا يُقبّلونهم، ويُداعبونهم، ويُقدّمون لهم بعض السكاكر، ثم دعوهم للجلوس في الخيمة تجنباً للمطر، وكي يتدفَّؤوا وتجفّ ثيابهم المبلولة قليلاً وهم يشرحون لهم بأنّ الوقت تأخّر وقد انتهى دوام الموظفين الذين يقومون بإجراءات تسجيلهم، وإعطائهم أرقاماً تُخَوِّلهم الدخول إلى الإقليم بشكل منظّم.
ثم عادوا يقدمون لهم عبارات الترحاب قائلين بأن عليهم أن يحسِبوا أنفسَهم مواطني كوردستان التي هي موطن جميع الكورد، وألّا يخطر لهم لحظة واحدة بأنهم لاجئون، لأن كوردستان كلها عند ذاك سوف تخاصمهم، وهي لا تفرّق بين أبنائها الكورد أينما كانوا وحيثما وجدوا، ولا تقضي تقاليدُها أن يكون على ترابها كوردي مواطن، وآخر لاجئ، ولذلك سوف يتم الإسراع في إتمام إجراءات منحهم إقاماتٍ نظاميّةً يتمكّنون

من خلالها من ممارسة تجوالهم في أنحاء الإقليم بشكل طبيعي كما لو أنهم دخلوا بموجب جوازات سفر. وعندها يمكنهم أن يختاروا السكن في أي مدينة تناسبهم، أو إن شاؤوا يقيمون في مخيم (دوميز) الذي أُعِدَّ لهم.

خفف هذا الترحاب من حجم الإرهاق الذي استبدَّ بهم، وبدا كأنه شمعة في هوَّةٍ سحيقة مظلمة، عند ذاك أجرى أحد الحرّاس اتصالاً مع سيارة، وقال بأن السائق سوف يأخذهم إلى بيته كي يبيتوا الليلة، وعند صباح يوم الغد، سيتّجهون إلى المكتب الذي سيمنحهم ما هو بمثابة تأشيرة دخول نظامية إلى البلاد. بعد نحو نصف ساعة جاءت السيارة يتقدّمها ضوءها، وما إن وقفت بمحاذاة الخيمة حتى نزل السائق الذي يرتدي ثياب (البيشمركة) مرحباً بهم بحفاوة، ومعبراً عن سروره لاستضافتهم في بيته.

صعد السيارةَ مع زوجته وأطفاله الثلاثة، ولم يدعه الحراس يحمل الحقيبتين ليضعهما في صندوق السيارة، بل سارعوا إلى ذلك، ثم ما لبثوا أن لوَّحوا بأيديهم مُتمنّين لهم ليلة سعيدة، وإقامة ممتعة في ربوع إقليم كوردستان.

في الطريق، بدأ السّائقُ يكرّر من ترحابه لهم، ويخبرهم أن كوردستان تتشرّفُ بأن تحتضنَ أبناءها الكورد سواء في السّراء، أو الضّراء، لقد حلُّوا ضيوفاً أعزّاء بين أهليهم، وعليهم ألّا يقلقوا لأنهم سيلقون التّيسير أينما ولّوا وجوههم. ثم قال بأنه مستعدٌّ لتقديمِ أي خدمة إذا تعسَّر بهم أمرٌ ما، وعندها ما عليهم سوى الاتصالِ هاتفياً به، كما أنه مستعدٌّ لتأمين عمل له، إن شاء استئجار بيت في (دهوك) والإقامة مع عائلته فيه، وإن شاء جلس مستريحاً في مخيم دوميز، حيث سيحصل على خيمة مع فرشها، ومستلزمات المطبخ مع مبلغ مُخصَّص لكل فرد من أفراد عائلته شهرياً.

قبل وصولهم إلى البيت، عرجَ السّائق إلى مكتبة، وطلب إليهم أن يأخذوا صوراً شخصية لهم، ويصوّروا ما بحوزتهم من وثائق ومستمسكات تثبت بأنهما زوجان، ونسب الأطفال إليهما.

ثم عاد واستأنف طريقه حتى بلغ البيت.

دعاهم للتفضُّل وهو يكرّر عبارات التّرحيب، ثم ما لبث أن نادى زوجته وبناته اللواتي قدمن صوب زوجته وصرن يتبادلن القبلات بحفاوَة كأنّهن على علاقة قديمة، ثم رحن يقبّلن الأطفالَ، ويقلن له: الحمد لله على السلامة (ماموستا).

شكرهنّ على لطف الاستقبال، ثم اتجهوا جميعاً إلى حيث غرفة الجلوس.

بعد نحو ساعة من جلوسهم، قدّموا لهم عشاءً مكوناً من لحم دجاج محمّر على طبق من الرز الممزوج بالشعيرية. بعد ذلك، قدّموا الشّاي، ثم ما لبث أن دعاه الرجل كي يستريح في غرفة أخرى حيث فراش النوم. جلس معه الرّجلُ مع ابن شاب له في نحو الخامسة عشرة من عمره، ساهراه وهما يتبادلان أطراف الحديث والنّكات والمزاح معه حتى رأيا النعاس بادياً على عينيه، عندئذ ودّعاه كي ينام.

استسلم لنوم عميق متواصل دام حتى السّادسة صباحاً حين استيقظ على نداء الرجل الذي صبّح عليه بالخير وما لبث أن خرج. فتح عينيه بعد قضاء اللّيلة الأولى من هذه الرّحلة في بيت هذا الرّجل الطيب، تمطط بجسده متأوّهاً، ثم ما لبث أن نهض، وخرج متجهاً إلى حيث المغسلة، يغسل وجهه. بعودته، دعاه الرجلُ إلى ذات الغرفة التي تناول فيها العشاء ليلة البارحة حيث زوجته وأطفاله مع النساء.

عند دخوله، هرع ابنه الصغير (سيروان) ذو السنوات الثلاث ملقياً بنفسه في حضنه وكأنه كان غائباً عنه دهراً، ثم ما لبث أن تقدّم (لاوين) ذو السنوات الخمس، وعقبته أخته (بيرهات) ذات السنوات السبع، تجمعوا في حضنه وكأنهم يبحثون عن مشاعر من أمنٍ مفقود. ألقى السلام على النساء، ثم تبادلَ ابتسامة مع زوجته التي بدأت حيويّة ومتألقة عكس ما كانت عليه البارحة.

أدخلت الفتياتُ أطباقَ الطعام، وشرعوا في تناول طعام الإفطار، ثم دعاهم الرجل للصعود إلى السيارة كي يأخذهم إلى المقرّ حتى ينهوا إجراءات دخولهم مبكراً.

في تلك اللحظات رأى الدموعَ تترقرق في عيون النسوة، وعيني زوجته وهن يتبادلن القبلات الوداعية.

كنّ يوصينها أن تشعر بطمأنينة، ولا تفكّرَ بشيء سوى عنايتِها بأطفالها، وفي أيّة لحظة أحسَّتْ بغربةٍ ما عليها غير أن تُجري اتصالاً معهن، وسيقدّمن لها كل مساعدة حتى إذا استدعى ذلك الإقامة في مسكن خاص بهم لأن لديهم بيتاً آخر يمكن أن يقيموا فيه ريثما يرى الله لهم مخرجاً.

في نحو الساعة التاسعة، حضر الموظفون، وقد تجمع حشد كبير من الكورد السوريين طالبين اللجوءَ. باشروا في ترتيب الناس بحسب الأولويات التي رأوها، حيث بدؤوا بالعائلات التي معها أطفال صغار، ثم الكبار، ثم بالشبان العزّاب الذين جاؤوا بمفردهم، وقد انشقّ أغلبهم عن الجيش تفادياً للاشتراك في عمليات القتال، وحتى لا تطالهم أيدي النظام وقد عُدُّوا فارّين من أداء الخدمة الإلزامية.

بعد نحو ساعة تم تسجيلهم، عندئذ طلب منه السائق أن يصعدوا حتى يوصلهم إلى مخيم (دوميز) حتى يستكملوا إجراءات الحصول على الإقامة وعلى مستحقاتهم. قدّم شكرَه وامتنانَه للرجل قائلاً بأنه سيستقلّ سيارةَ أجرة خاصة، ولا يريد أن يثقل عليه أكثر من ذلك.

ثم تقدّمَ نحو بائع لخطوط الهاتف الخلوي، استبدل بعض النقود السورية التي بحوزته بعملة الدينار، وابتاع خطاً، ووضعه في جهازه بعدما أخرج الخطَّ السابق الذي كان يحمل الرقم الخلوي الذي لازمه لسنوات طويلة منذ بدايات ظهور الهاتف الخلوي في بلاده، وحفظه عن ظهر قلب، أخرجه من الجهاز وقد تحوّل إلى شيء من الماضي مع ما تحوّل في أصقاع تلك البلاد.

عندها كرّر عليه الرجل أن يتصل به فور حاجته إلى مساعدة، وهو يعطيه رقم هاتفه.

كانت الساعةُ قد شارفَت على الحادية عشرة صباحاً عندما انطلقت بهم سيارةُ الأجرة إلى مدينة (دهوك) حيث يقع مخيم (دوميز) من أجل استكمال إجراءات اللجوء. بدأ المطر ينهمر بغزارة والسيارة تمضي نحو المدينة، حيث هي المرة الأولى التي يشاهد فيها ملامح مدينة كوردية بامتياز.

مدينة كوردية، ها هم الكورد يقيمون مدينة كوردية بحكْم كوردي يتمتع بحكومة وبرلمان، وهم يعيشون في قلب خط النار.

في تلك اللحظات خطر له أن رصيد أي دولة يكمن بشعبها، عندما يتحوّل الشعب كله إلى دولة، وتتحوّل الدولة إلى شعب عندئذ تكون دولةً قويّةً قويمة، عندئذ يكون شعباً قوياً قويماً، ولعلّ أكثرَ مظاهر الخطورة تكمن عندما يعتري الشعبَّ إحساسٌ باللا إنتماء إلى دولته، أو أن هناك مَن أتى وَسَطًا على كيان الدولة وحكَرَها لنفسه ولعائلته، وجعل عائلته تتميز عن سائر عائلات الشعب، حينها تتراخى مفاصل الدولة، وتبدو على مفاصلها علامات الانهيار.

إنها مرحلة الانقلاباتِ الكبرى الحاسمة التي رأى فيها الشّعبُ أن يخطو خطوات فدائيّة جبّارة كهذه، وأبدى استعداده لدفع أثمن ضريبةٍ يمكن له أن يدفعها من أجل أن يقدّم إلى العالم شخصاً استطاع أن يتخلّص من شذرات الدّونية، ويمتلك قناعة بأنه موظف في ولايته المؤقتة، وليس لديه استعداد كي يمضي كل عمره موظفاً، لأن في الحياة مجالاتٍ أخرى لا يمكن للإنسان أن يكتشفَها ويستمتع بمزاياها إلّا عندما يخوض غمارها. إنه يسلِّم مقاليدَ الحكم لخلفه كما لو أنه يسلّمه مفاتيحَ بيتٍ أقام فيه حيناً بالأجرة، وقد أبرَأ ذِمَّته تجاه هذا البيت وسلّمَه إياه بشكلٍ أفضلَ ممّا كان عليه عندما استلمَه، وجعله مسؤولاً عن الحقبة القادمة.

ها هو الحاكم يتحوّل إلى أعظم عبء على شعبه، ويلحق به أقسى الكوارث المريعة، ويفعل أي شيء كي يتشبّثَ بالكرسي بيده وبأسنانه، ومستعدٌّ حتى يخلع ثيابه ويبقى عارياً بشرط أن يبقى جالساً على الكرسي، ولا يرى غيره وقد جلس على كرسيه، لأنه لا يتخيل بأنه سيحتمل ذاك الموقف المهين بالنسبة إليه، وكلمات أمه تبقى توبّخه مدى العمر قائلة له: (ابكِ مثل النساء مُلكاً لم تستطع أن تحافظ عليه مثل الرجال).

بات هذا الحاكمُ يشعر بحالة عدائيَّة مع النّاس، فيبدأ بشنِّ حربٍ نفسيَّة تطال وضعهم النّفسي والمَعيشي، وتسبّب لهم القلقَ وعوامل التّوتر والاضطراب كي ينشغلوا بما آلَ

إليه وضعُهم ويتركوه جالساً على الكُرسي، وعندما يموت، يورّث هذا الميراث لابنه كي لا يجلس عليه شخص غريب.

بدت (دهوك) متلألئة بالجبال التي تزدان بها، بالكتابات الكوردية التي يشهدُها أولَّ مرة على واجهات المؤسسات، والمحال، والطرقات.

عندما دخل المخيّم، هالَهُ ما رأى من أفواج الناس، ومساحات الأراضي التي تشغلها الخيم، الباعة الذين بسطُوا حاجاتٍ لبيعها، سيارات الأجرة، حركة الذّهاب والإياب الكثيفة، أطفالٌ، نسوة، عجائز، شبان، سيارات منظمات دوليّة، موظّفوا هيئات إنسانية، والمطر يزداد كثافة، يحيل الأرض التّرابية إلى مُنحدَرات لزجة من الوحول.

كل هؤلاء نزحُوا بأطفالهم تحت هول رعونة الحرب، ولذلك استطاع أن يميّز أعدادَ الأطفال بكثافة إلى جانب أعداد الناس، وفي لحظة قارن نفسه وهو ينظر إلى أطفاله الثلاثة، وإلى زوجته، بيد أن الأمر يختلف حيناً عندما يرى رجلاً معه أربعة أطفال، وزوجة، وثلاث بنات صبايا، وأم وأب عجوزين.

عندئذ تخيّل حجم المأساة في كل المخيّمات التي ضمت الأسرَ السّورية سواء في الأردن، أو في تركيا، أو في لبنان. هؤلاء الذين تركوا بيوتَهم وأصبحُوا بين ليلة وضحاها لاجئين، وقد اعتادوا خلال سنواتٍ طويلةٍ أن يستضيفوا اللاجئين من مختلف أنحاء العالم، من مختلف مواقعهم، ويستقبلوا الناس سُوَّاحاً وضيوفاً ويفتحوا لهم بيوتهم.

أمسكا بأيدي الأطفال ومضوا تحت كثافة زخّات المطر إلى حيث مقرٍّ تمَّ إرشادهم إليه. إنه طريق رأوا أنفسهم مجبرين على المُضيّ فيه شأنُهم شأن ملايين السوريين الذين أصاب الزلزال مسكنهم الآمن. باتت كلمة (سورية) تسبّبُ غصّة في حَنجرته، سورية الجريحة التي تتلقى الطعنات من كل حدب وصوب.

سورية التي يأتيها العالمُ من بقاع العالم، لم تعد تتّسع لأبنائها، حتى الفلسطينيون الذين أقاموا فيها منذ سبعين سنة، اضطروا لمغادرتها، حتى العراقيون الذين وجدوا دفئاً وأمناً وجمالاً في حضنها، اضطروا لتركها، لم يعد يأتيها السّواح، لم يعد يأتيها العشاق،

توشّحَت زهورُ الياسمين بوشاح الحداد، بلاد الشام، بلاد الحب، كل المدن تئِنّ تحت أزيز المدافع: دمشق، السويداء، قنيطرة، درعا، حلب، حمص، حماة، اللاذقية، طرطوس، الرقة، دير الزور، الحسكة. بقيتْ وحيدةً تنزفُ، وتنزفُ، وتنزفُ، والآخرون يضحكونَ، ويضحكونَ، ويضحكونَ. يمضي والدموعُ تغالب عينيه، والغصةُ تستقرّ في حنجرته، هناك تم تصويرهم بأجهزة تصوير مُعدَّةٍ لذلك من قبل الموظّف، وتم أخذ معلومات منه، ثم انتظروا في الساحة حتى ظهر أحد الموظفين وغدا ينادي بالأسماء، ويسلم صاحب كل اسم وثيقة الـ(فورمة) (شهادة منح صفة طالب لجوء)، التي تحتوي على صورهم ومعلوماتهم.

عندما نادى الموظف باسمه، لم يردّ، وعندما كرّرَ ذلك، نادت زوجته، وراحت تتناول الوثيقة، عندها لاحظت أن الغصة منعَتْه من الكلام. بعودتها، ألقى إليها نظرةً، ثم أزاح نظره عنها وهو يتناول هذه الوثيقة من يد زوجته شاعراً برغبة جامحة لتمزيقها، ثم وقعت عيناه على عباراتها المكتوبة بالكردية، والإنجليزية، والعربية، وشرع يقرأ:

(يشهد مكتب المفوضية السامية للأمم المتحدة بأن الأشخاص المذكورين هم طالبو لجوء، ويقوم المكتب حالياً بدراسة وضعهم، وبصفتهم طالبي لجوء، فإنهم يعتبَرُون من الأشخاص المشمولين برعاية مكتب المفوضية، ويتوجب بشكل خاص حمايتهم من العودة القسريّة إلى بلدانهم حيث يدّعون أنهم يواجهون تهديداً لحياتهم، أو لحريتهم إلى أن يتم اتخاذ قرار نهائي بشأن طلب الحصول على صفة اللجوء).

بعد ذلك، طلب إليهم أن يتجهوا إلى مقرٍّ مجاورٍ كي يتم تحليل دمهما لدواعٍ صحية، حيث يتم تحليل دماء البالغين، ويُستثنى من ذلك الأطفال. مضوا حيث يمضي الماضون نحو الساحة التي يجتمع فيها حشد من الناس، عند ذاك أحسّ بأنه يمشي حافياً.

ألقى نظرة إلى قدميه، فوجد الحذاء، ثم نظر إلى أسفل القدم، فوجد بأن الأرضيّة قد علقت في الوحول في مكان ما.

أكمل المسيرَ حتى رأى بسطة عليها أحذيةٌ يبدو أن صاحبها بات على خبرة بطلبات الزبائن فجلب أحذية بلاستيكية سميكة كمثل تلك الأحذية التي يرتديها الفلاحون وهم يسقون الزرع.

عندما بلغوا المكان رأوا مجموعة من الناس تنتظر في طابور طويل، تقدّم إلى حيث الباب الذي يستقبل القادمين، عندئذ نصحه الموظف الذي يقوم بتسجيل الأسماء أن يسجل على دور، ثم يعود في صبيحة يوم الغد، لأن الدوام على وشك الانتهاء، والأسماء التي تنتظر منذ يوم البارحة كثيرة.

قام بتسجيل اسمه في جدول الأسماء، وعادوا حاملين أمتعتهم صوب مدخل المُخيَّم حيث تجتمع سيارات الأجرة. في لحظة تخيّلَ بأن المخيم الكبير تحوّل إلى موطن للكورد في العراء، حيث انهالوا عليه من كل أرجاء الجناح الغربي.

بدأ يلتقي بمعارفَ له لم يكن يلتقيهم في مدينته، تحوّل شتات المخيّم إلى ملتقىً كبيرٍ لأصحاب همٍّ واحد، يكاد يرى كل شيء مما يمكن للمرء أن يحتاجه، أصبح الناس في واقعٍ فرض عليهم القيامَ بأي عمل كي يحسّنوا في وضعهم المعيشي، ومَن لم يستطع استئجار بيت في المدينة، يقيم في المخيم على أمل تركِه عندما يستقرّ في عمل ثابت، لذلك يقيمون في المخيم ليلاً، وفي النهار يذهبون إلى أعمالهم.

عندما رأى علاماتِ الإرهاق باديةً على الأطفال، جنح إلى خيمة، واستأذن بالدخول.

خرجت امرأة في بداية عمرها من الخيمة، ورحبَّت بهم قائلة: تفضلوا، أهلاً وسهلاً.

قال: سنرتاح قليلاً، ونكمل مشوارنا. كرَّرت مُرحّبة، وقد تقدَّمت من زوجته، وغدت تتبادلُ معها قبلاتٍ حميمية، ثم راحت تقبّل الأطفال.

دخلوا الخيمةَ، وعلى الفور قدّمت لهم المرأة ماءً، ثم أعطَت لكل طفل كيساً من البطاطا المجففة، وراحت تضع إبريق الشّاي على الغاز قائلة بأنها من (قامشلو) مضت سنةٌ على حضورها مع زوجها إلى هذا المكان، وقد وضعت في هذه الخيمة طفلتها الأولى (إيفار) التي هي في شهرها العاشر.

أخذ زوجها هذه الخيمة لأنه لا يملك قيمة استئجار بيت بسبب ارتفاع الأسعار بشكل غريب، حيث لا يتجاوز دخله خمسمائة دولار، في حين أن أجرة بيت دون فرش لشهر واحد يقضي على هذا الدّخل دون ترك شيء للمعيشة، الأمر الذي جعل زوجها يتّخذ قرارَ الإقامة في المخيم، وحتى لا يبقى مستلقياً على ظهره في البيت ومنتظراً معونات المنظمات الخيرية، يعمل حتى يتحسن وضعه بعض الشيء، أو يرتفع أجره ليستطيع حينها ترك المخيم، والإقامة في بيت أجرة، حيث يعمل معلّماً في البناء، ويمكن أن يعثر على فرصة عمل أفضل مع الأيام إن طال بهم المقام هنا ولبثت الحرب مشتعلةً في البلاد، هذه الحرب التي تتسم بطابع الشّبحية والغموض، و لا يكاد أحد يستوعب منها شيئاً واضحاً، وكل ما ينتج عنها هو ضبابي مبهم .

تنفّست المرأة البالغة من العمر ثلاثةً وعشرين سنة الصعداء، ثم نهضت تحضر إبريق الشاي. قال: والله اشتقنا للشاي السوري.

قالت: الشاي هنا أغلبه معطّر، لكن مع الأيام اعتدناه كما عوَّدنا أنفسَنا على أمور كثيرة.

سكبَت ملاعقَ السّكرِ في قعر كاسات صغيرة، ثم بدا دخان الشاي يتصاعد ويملأ الخيمة عطراً، وهي تسكبه في الكاسات، وتقدمه لضيوفها مكملةً حديثها بأن زوجها (سامان) البالغ من العمر ثلاثين سنة: يطلع مع طلوع الشمس من الخيمة، ويرجع عند غروبها.

قالت: المعيشة في المخيم صعبة للغاية، لكنها أفضل من العيش تحت رحمة قصف البيوت، والانفجارات التي تقع في الشوارع، وعمليات خطف الناس.

لا تَعْقِدوا أملاً على أحدٍ هنا، الذي لا يعتمد على نفسه سوف يتسوّل، لأن ما يعطوننا هنا لا يسمن، ولا يغني عن جوع.

في الخيمة المجاورة مات ابن جارتي وكان عمره خمس سنوات، وهو بين يديها، كانت الساعة نحو الثانية ليلاً عندما لدغه عقرب، وولْوَلتْ المسكينة حتى تجمهرْنا حولها ثم

أعطوه حقنة مسكّنة، في الصباح أعطاها أحدهم رقم هاتف مسؤول في أحد الأحزاب الكوردية السورية هنا، فاتصلت به كي يساعدها حتى تعالِجَ ابنها كونه على علاقة بالمسؤولين هنا، فرحّب بها بحرارة وطلب منها أن تتصل به بعد ساعة.

فرحت المسكينة، وراحت تتصل به بعد ساعة، لكنها فوجئت أن هاتفه لا يرد، وبقيت تعاود الاتصال حتى بلغت الساعةُ الرابعةَ مساء، ولم يرد، حينها اتصلت به من رقم هاتف آخر، وعندما سمعت صوته، لم تقل كلمة واحدة، بصقت عليه وأغلقت الخط.

حملت الطفل وقد زادت حالته سوءاً، لكنه فارق الحياة قبل أن توصله إلى عيادة طبيب خاص بعد أن تبرع سائق تكسي من دهوك لعلاجه على نفقته، وأخذه بسيارته عندما علم بأمره.

بعد نحو ساعة استأْذَنَا المرأةَ للخروج، وقد استراحا في خيمتها، كررتْ عليهم أن يمضوا الليلة في خيمتها، وسوف يفرح سامان عندما يعود لأنه رجل مُحِبٌّ للضيوف. لكنه شكرها، وطلب إليها أن تبلّغه سلامه، وأنهم سوف يقضون الليلة في أحد الفنادق، ويعودون في الصباح. عندها ودّعت المرأةُ زوجته بالقبلات، وراحت زوجته تقبل ابنتها، ثم أردفوا المسير نحو مدخل المخيم، واستقلوا سيارة كي تأخذهم إلى المدينة.

في الطّريق طلب من السائق أن يأخذهم إلى فندق كي يبيتوا الليلة فيه، لكن السائق قال بأنه سيستقبلهم للنوم في بيته بدلاً عن الفندق، فهم ضيوف وعليه ألّا يحرمه من قيامه بواجبه نحوهم، كما أن زوجته وأولاده سيفرحون كثيراً بالتعرف عليهم وقضاء ليلة جميلة معاً، ثم علّق قائلاً: مَن يعلم، قد نحل بعد حين ضيوفاً عليكم.

عندها اضطر للموافقة، فعرج بهم إلى بيته وهو يكرّر بابتسامة طفيفة: أهلاً وسهلاً بكم ضيوفاً أعزاء.

في صبيحة اليوم التالي، جلبهم ذات السائق بسيارته إلى حيث حملهم يوم البارحة، اتّجهوا على الفور إلى موضع التّحليل، كان ثمة أناس قد بدؤوا بالتجمهر، وثمة أشخاص يدخلون، ويخرجون.

انضموا إلى الحشد بانتظار الدخول حين ينادي الموظف بلسمه.
عندما بلغت الساعةُ الثانيةَ عشرة، هتف القارئ باسمه، عندئذ فتحَ لهما الناس الطريق كي يدخلا، اتجه كل واحدٍ إلى ممرضة داخل الحجرة، وعلى الفور قامتا بسحب عينة دم من ساعديهما. بعدئذ تم تحويلهما إلى مقر آخر من أجل الحصول على المهر الأخير للحصول على الإقامات.
مضوا نحو المقرِّ الذي بدا مكتظّاً بجمهرة من اللاجئين، ولبثوا منتظرين حتى بلغت الساعةُ الثالثةَ عصراً، عندها قرأ الموظف اسمه وقال بأن عليه الذهاب صباح يوم الغد إلى دائرة شؤون اللاجئين في مدينة دهوك حيث ستكون إضبارته بانتظاره هناك.
حملوا أمتعتهم، وقادوا أطفالهم، وقد نال منهم الإنهاك جرّاء الانتظار الطويل والوقوف على الأقدام، واتجهوا إلى حيث مدخل المخيم للذهاب إلى المدينة، والمبيت في أحد فنادقها حتى صباح يوم الغد.
في تلك اللحظات ترامى صوت ينادي باسمه، انتبهت زوجته أيضاً إلى الصوت، ونبّهته ابنته بأن شخصاً ما ينادي به. التفت، وإذ بصديق قديم طبيب مع زوجته وابنه، تقدموا إليه، صافح صديقه بحرارة وتبادل معه القبلات قائلاً: أهلاً صديقي سليفان.. مَن كان يصدّق بأننا سنلتقي هنا؟!!
ثم كما تبادلت الزوجتان القبلات بدورهما.
عندئذ أخبره صديقه بأنه مقيم في مدينة دهوك منذ نحو شهر، لكنه تكاسل في التقدم للإقامة حتى وجد بيتاً، والآن جاء ليبدأ في إجراءات ذلك، بيد أن الوقت تأخر ولم يستطع أن ينجز إلّا القليل على أن يعود غداً ليستكمل ما بقي من مستلزمات.
ثم قال بأنه إذا رأى نفسَه مُندفِعاً للعمل، سيفتح عيادة يمارس فيها مهنته رغم أنه يراها فرصة كي يستمتع مع عائلته بالفراغ، والتفرغ للقراءة ريثما تهدأ الأمور ويعود إلى بيته.
قال: أراها يا صديقي فرصتي الوحيدة كي أحقق حلمي في التفرّغ للقراءة.

قال: ياه، ألم تنس ذلك؟ أذكر بأنني سمعت منك هذه الأمنية منذ نحوعشر سنوات في العيادة، حينها رأيتَني في الطريق، وأصررتَ أن تأخذني بسيارتك إلى العيادة، أتذكر؟

قال: أذكر، وبعدها لم تزرني سوى مرةٍ واحدةٍ.

قال: أجل صديقي، قلتَ لي يومها بأنك تريد أن تتقاعد مبكراً، وتمضي كل وقتك في القراءة والعلاقات الاجتماعية والسفر في أنحاء العالم.

قال: تصوّر أحياناً كنت أعاين خمسين مريضاً في اليوم الواحد إضافة إلى إجراء العمليات الطارئة في المشافي الخاصة.

قال: أذكر، لعلي رأيت أربع ممرضات تعملن في عيادتك.

قال: كنتُ أعمل يا أبا لاوين من التاسعة صباحاً، وحتى التاسعة ليلاً.

لقد خرجَتْ زمامُ الأمور من يدي، صرتُ أمام واقع إنساني لم يعد التردد فيه مقبولاً بأي شكل.

قال: الشّهرة هي التي تسهم في ذلك، أنت اليوم من مشاهير الأطباء الجرّاحين في المدينة.

قال: خسارتنا ياصديقي فادحة، هل تعلم ماذا يعني نزوح نحو ثلاثة ملايين مواطن من البلاد، دمار أحياء سكنية بأكملها، لا أعرف كم سنحتاج من الوقت حتى نعود إلى الوراء ويتسامح بعضنا مع بعض، يبني بعضنا مساكنَ بعض، يواسي بعضنا بمصائب البعض!

ثم قال بحسرة: فكّرت أن نذهب إلى الولايات المتحدة، أو إلى أي دولة أوربية، كما فعل غالبية زملائي، لكنني في اللحظة الأخيرة رأيت بأن وجودي في كوردستان سيخفف علي من أثر النزوح، وهي المرة الأولى التي أرى فيها الإقليم، لا أخفيك بأنني شعرت بفرحٍ لما آل إليه المآل هنا، لكنني لا أخفيك أيضاً بعض ما اعتراني من قلق من المستقبل لأن الظروف شاءت أن تكون كوردستان في أكثر بقاع العالم تركيباً وتعقيداً وتلغيماً وتداخلاً، كأننا نعيش في بقعة لا أحد يعلم متى ستنفجر، وما الذي

سيخلّفه هذا الانفجار. صمت قليلاً، ثم بلع ريقَه وأردف: في اعتقادي أن الأمر يحتاج إلى إمكانات، استثنائية، وأحياناً أكثر من استثنائية.

ثم أصرَّ عليه أن يصطحبه إلى البيت لقضاء الليلة، وأصرّت المرأةُ أيضاً على زوجته، فاضطر للموافقة رغم أنه كان قد خطّط لقضاء سهرة غنيّة في أحد مقاصف دهوك من أجل أن يودّعها، لأنه أحس بحاجة شديدة إلى تغييرٍ كهذا بعد أن يأخذوا قسطاً جيداً من الراحة في الفندق. مضوا معاً حتى بلغوا سيارته الواقفة بجانب مدخل المخيم، حينها قال: المكان قد لا يتسع، سنمضي خلفك بسيارة أجرة.

قال: لا لا يا صديقي، دبّر حالك مع برهام في المقعد الأمامي مشيراً لابنه البالغ من العمر نحو اثنتي عشرة سنة وستتدبر الأميرتان الأمر في المقعد الخلفي.

كرّر شكرَه وامتنانه صاعداً، واتجهوا إلى أحد الأحياء حيث الشقة المفروشة التي استأجرها صديقه، بدت الشّقةُ جميلةً وواسعة، لذلك لم يشعر بأنه سيسبّب ضيقاً لصديقه، فهي تتألف من أربع غرف وصالون واسع.

في المساء صارح صديقه بأنه كان ناوياً أن يودع دهوك بالسهر في أحد مرابعها، وقد حصل ما حصل، ولذلك يدعوه مع عائلته لمشاركتهم السهر.

ثم أكّد ذلك قائلاً بصيغة مزاح: إن رفضت عزيمتي يا صديقي، سأرفض دعوتك للبقاء هنا.

عندئذ أبدى موافقته، وخرجا في نحو العاشرة ليلاً إلى أحد المقاصف الجميلة.

قال صديقه وهم يجلسون على مائدة العشاء: صارت الحياة جحيماً في البلاد، تصوَّر أن كل طبيب، أو صيدلاني، أو محام، أو تاجر، أو صائغ، بات يستعين بمرافق أو مرافقَين لحمايته. كنا نمشي في الشارع، ونترقب أي يد تمتد لتختطفنا، ثم تطلب فدية تقضي على كل ما ادّخرناه لمستقبل أطفالنا.

كلما كان جرس هاتفي يرن، كنتُ أتوقع أن أحداً ما سيقول بأنه خطف ابني ويريد فدية.

ثم ابتسم قائلاً: أحد زملائنا قال لي قبل أن آتي بأيام: أتعرف أنني صرتُ أضطرب عندما يدخل أي مريض غرفة المعاينة، أتوقع بأنه سيشهر مسدّساً ويقودني إلى حيث يشاء، أحياناً أفكّر أن يقوم المرافق الذي استأجرته لقاء راتب شهري لحمايتي أن يقوم بتفتيش كل مريض قبل أن تدخله الممرضة غرفة المعاينة.

عندما شارفت الساعةُ على الواحدة ليلاً، راوده إحساس بالامتلاء والاكتفاء، وبدا منتشياً ومستمتعاً بوقت جميل أمضاه على ضفة هذه الغربة.

عادوا إلى البيت، عندئذ بدأت زوجته تعين المرأة في فَرْش الغرفة التي سينامون فيها.

بعد قليل نام الأطفال، فانسحب إلى فراش زوجته يداعبها، تنَحَّت هامسة: يا رجل نحن في بيت أناس غرباء.

قال: لاغرباء ولا أقرباء، حيثما ننام، فهو بيتنا.

عندما رأته مصرّاً وهي تَخبَرُ عنادَه، رضختْ لنزوته تلك متمتمة كما ألفت: أمري لله، ذنبي برقبتك لأنني لن أصلي الفجر.

عند الصباح، نهضوا باكراً، شكر صديقه على الاستضافةَ، وتبادلا أرقام الهواتف، ثم أوصلهم إلى حيث الدائرة، واتجه إلى المخيم لاستكمال ما بقي من إجراءات.

عندما بلغت الساعة التاسعة كانوا يقفون أمام باب الدائرة، وبعد قليل دخل الموظفون، وبدؤوا في إدخالهم، حيث تم التقاط صور جديدة لكل فرد منهم، وأخذ بعض المعلومات اللازمة، ثم قيل لهم بأن عليهم الانتظار في ساحة المبنى حيث سيتم توزيع بطاقات الإقامة أولاً بأول.

* * * *

أوْهاجُ الخروج من واقع، والتّغلغلِ في صميم واقع آخر، هنا تفوح روائح الأجداد، هنا الموطن الأزلي الذي تشكّلت وترعرعت في جنباته الذاكرة الكوردية.
منذ أن وطِئت قدماه تربةَ كوردستان، لا يدري لماذا اجتاحَه إحساسٌ بأنه إن لم يرَ هولير، كأنه ما وطِئ كوردستان، لا يدري لماذا انتابه شعورٌ بجاذبيّة سحريةٍ نحوها، وبدت في تلك اللحظات كما لو أنها تناديه بصوتها الشّجي من بعيد.
لذلك عندما سألَته زوجته وهي تشاركه متعة إلقاء النظرات الأولى على الإقامات فور تناولها من يد الموظف: أين سنقيم؟
في هولير.. خرج الكلام من فمه عفوياً. في هولير. شدَّدَت زوجته على اللفظ.
هزّ رأسَه علامةً بالإيجاب، ثم ما لبث أن أشار إلى سيارة أجرة، وسأل السائق عن كيفية الذهاب إلى هولير. قال له السائق بأن عليه الذهاب إلى الكراج حيث سيجد سيارات التكسي التي تقِلُّ كل راكب بخمسة عشر ألف دينار، وإن شاء يجد المكرو بسعر أقل. عندئذ سأله إن كان بإمكانه أخذهم إلى هولير؟، أبدى موافقته على ذلك، ودعاهم للصعود.
جلس في المقعد الأماميّ بجانب السائق، بينما جلسَت زوجته مع الأولاد في المقعد الخلفي، وما لبثت السيارة أن شرعت في المسير متجهة بهم إلى شطر عاصمة الإقليم.
سأله عن الوقت الذي سيستغرق في الوصول، فقال: المسافة تبلغ نحو ١٦٠كم، نحتاج فيها إلى ساعتين ونصف. عندئذ سأله إن كان من اليُسرِ الحصول على بيت أجرة؟، قال بأنه من سكان دهوك، ويأتي إلى هولير مصادفة بطلبيات خاصة، لكن بشكل عام هناك أزمةُ بيوت في كل الإقليم بسبب توافدِ الناس عليه من مدن العراق بحثاً عن الأمن، الأمر الذي تسبب في ارتفاع باهظ في أسعار البيوت شراءً، أو إيجاراً، ثم ابتسم يقول: أتعرف بأن سعر أجرة البيت في الإقليم يتجاوز سعر أجرة البيت في أوربا؟

ثم استأنفَ يقولُ وقد استأذن لتدخين سيجارة: أيضاً نزوح أخواننا الكورد في الفترة الأخيرة من روش آفا سورية أسهم في ارتفاع الأسعار، لأنهم أقاموا في المدن بسبب طبيعة أعمالهم، واضطروا لاستئجار البيوت. توجد أزمة سكن لدينا خلال هذه المرحلة، لذلك تُقام مشاريع إقامة الضواحي السكنية بكثرة في جميع أنحاء كوردستان. الأمان في الإقليم بدأ يستقطبُ كبار رجال الأعمال في العالم كي يستثمروا فيها، لذلك كثرت المظاهر السياحية عندنا، وتضاعفت أعداد الفنادق.

بعد قليل من الصمت أردف الرجل يقول: لكن على الأغلب ستجد بيتاً في هولير لأن لديك عائلة، مكاتب العقارات تمتنع هنا عن تأجير البيوت خاصة في الأحياء السكنية الشعبية للعزّاب من أينما كانوا، لأن العازب الذي سيشغر بيتاً، سيحرم عائلة كاملة من السكن فيها، وهو بمقدوره أن ينام في مقر عمله، أو أي إقامة يوفّرها له صاحب العمل.

بدأت هولير تتفتّح أمام ناظرَيه كوردة، وهي تفصح عن لمسات جماليَّتِها البدائية، والسيارة تمضي بشيء من التّمهل في محراب مداخل حدودها، يتأمّل طبيعتها الخلاّبة وقد فرشت شمس العصر خيوطَها على رحابة الأرض بألق.

عندما تمهّلتِ السّيّارةُ حتى وقفت خلف رتلٍ من السيارات الدّاخلة إلى المدينة، قال السائق: هذه هي (السيطرة) الرئيسية، وسندخل قلب المدينة.

بعد قليل وصلت السيارة إلى بوّابة الحراس، ألقوا نظرات إلى إقاماتهم، ورحّبوا بهم قائلين: (فرمو).. تفضلوا بالدخول.

لم يكن يعلم أن هولير تتمتّع بكل هذه الجاذبيّة، وهو يطوف بعينيه معالمَها من خلف زجاج السيارة، هولير، وقد أوشك المساء أن يحط في بوعها.

إنها متعة دخول مدينة جديدة، ورؤية لمساتها المعمارية، واستنشاق نسيمها، النظر في وجوه سكانها أول مرة.

توقف السائقُ في شارعٍ وقال بأنه مركز لمكاتبَ عقارية إن شاء أن ينزلوا فيه، أو في أي مكان آخر يريد.

شكره على ذلك، وقال بأنهم سينزلون هنا لعله يجد بيتاً، ويتجهون إليه على الفور.

سارع الرجل بفتح الغطاء الخلفي لباب السيارة، وأنزل الحقيبتين، ثم قال بأنه سيسارع في العودة قبل أن يتأخر الوقت.

قال له: هل ستعود دون ركّاب؟

قال: سأمرُّ قليلاً بكراج الشمال في طيراوة، إذا رأيتُ ركّاباً، سأحملهم وأنطلق، وإن لم أجد، سأكمل الطريق دون ركّاب.

قالها وصعد السيارة، عندئذ تذكّر بأنه لم يعطه الأجر، ففتح الباب على عجل قائلاً: على مهلك يارجل.

دُهش السّائق من ذلك وقال: هل غيّرت رأيك وتريد أن أوصلك إلى مكان آخر؟!

قال: لا، لكن لم أعطك الأجرة.

ضحك وهو يهز رأسه: هذه سفرة مجانية من أخ إلى عائلة أخيه.

أبقى مُمْسكاً الباب دون أن يفسح له مجالاً للمضيء قائلاً: لن أدعك تتحرك إن لم تأخذ أجرتك.

قال: اسمع مني ولا تكن عنيداً، هذا المبلغ الذي لا يعني لي الكثير، قد يعني لك الكثير، ويُخرج عائلتك من مأزق في موقف ربما يواجهكم.

قال: رغم ذلك، أنا مصر أن أدفعَه لك.

ثم مد يده إلى حقيبته، فاكتشف بقاء ورقتين فقط بعملة الدينار معه، واحدة حمراء اللون بفئة خمسة وعشرين ألفاً، والثانية زرقاء بفئة خمسة آلاف.

عندها أخرج ورقة بفئة المائة دولار وأنقدها للرجل شاكراً إياه.

تناولها الرجل مُكْرهاً وهو يتمتم: أمرك عزيزي، ثم أخرج ورقة بفئة الخمسين دولار، وأعادها إليه.

وقف نحو خمس دقائق، ثم مضى قليلاً صوبَ أقرب دكّان، طلب أن يضعَ الحقيبتين على رصيفه ريثما يعود، فوافق الرجل مرحّباً بذلك.

اتجه إلى أول مكتب عقاري في رَتْلِ المكاتب العقارية الطّويل، سأل عن بيت، فاعتذر له الرجل عن عدم وجود بيتٍ للإيجار لديه حالياً.

دخل المكتبَ الذي يليه، فسمع ذات الإجابة، ثم بدأ يدخل إلى مكتب، ويخرج منه ليتجه إلى الآخر، وكأن مكاتب المدينة العقارية كلها اجتمعت في هذا الركن.

يدخل مكتباً، يلقي السلام على صاحبه: هل يوجد لديك بيت للأجرة؟

يهز الرجل رأسه علامةً بالنّفي متأسفاً. بعد أن دلف نحو عشرين مكتباً عقارياً، قال له صاحب أحد المكاتب بأن لديه بيتاً، لكن في ضاحية بعيدة.

قالت له زوجته وقد نال منها الإنهاك نتيجة المشي: سنقيم في هذا البيت فترةً مُؤقتة ريثما تجد لنا بيتاً في المدينة على مهل.

لكنه أصر على السكن في المدينة، وأكمل المسير سائلاً، وجدَ بعض البيوت، بيد أن أسعارَها المرتفعة أذهلَته بشكل لم يكن يتوقعه البتة، ففي دمشق كان عندما يريد قضاء شهر في إجازة مع عائلته، كان يستأجر بيتاً مفروشاً بما لا يتجاوز مائتي دولار، في حين أن البيت المتواضع غير المفروش هنا يكون بخمسمائة دولار شهرياً، والمفروش يقترب من ألف دولار، ولفتت انتباهه ظاهرة الفنادق –الموتيلات– التي تؤجِّرُ شققاً مفروشة، لكنه استقرّ على فكرة استئجار بيت في حي شعبي في المدينة والقيام بفرشه لأن الوقت الذي سيمضيه قد يطول.

من جهتها شجّعته زوجته على الفكرة قائلة: بقيمة شهرين للشقة المفروشة، نشتري مستلزمات بيت كامل ونضعها في بيت غير مفروش.

عندما خيّم الليل، وبدأت المكاتب تغلق أبوابها، وبدأت الحركةُ تخفّ من الشارع، لم يبقَ أمامه سوى أن يتجه إلى فندق لقضاء الليلة فيه، وفي الصباح يخرج للبحث عن بيت في مكان آخر.

بعودته إلى الدكان الذي ترك لديه الحقيبتين، سأل صاحبه عن فندق؟
قال الرجل بما أن معه عائلة، فينصحه بالموتيل بدلاً عن الأوتيل، لأن الأول يؤجر شققاً مفروشة، بينما الثاني يختصّ بتأجير الغرف المفردة.
ثم أشارَ إلى موتيل قريب، عندئذ اتجهوا مشياً صوبَه وقد بدا لهم على مسافة خمسمائة خطوة. عندما دخلوا الشقّةَ الصغيرة المُؤلَّفة من غرفة ومنافع، لم يمض بهم الوقت طويلاً حتى استسلموا جميعاً لنوم عميق طال بهم حتى الثامنة صباحاً، حملوا أغراضهم ونزلوا إلى مطعم قريب تناولوا فيه طعام الإفطار، ثم أشار إلى سيارة قائلاً للسائق بأنه يريد أن يأخذهم إلى مكتب عقاري يمكن أن يجدوا لديه بيتاً.
نصحهم السائق بأن يتجهوا إلى مكاتب الأحياء الشعبية لأن فرص العثور على بيت لديها تتوفر عادة أكثر من غيرها، كذلك يمكن لهم أن يجدوا بيتاً بسعر مناسب في حي شعبي، وذلك أفضل لهم من السكن في شقة ضمن مجمع سكني غير شعبي لا يعرف فيه الجار جاره.
استحسَنَت آفان الفكرة، وهي تحضّه إلى ذلك، فوافق على رأي السائق.
عندئذ اتجه بهم الرجل إلى حيٍّ (الإسكان)، وبدأ يسأل لهم بعض الأهالي، وبعض أصحاب البيوت، وما يرى من مكاتب عقارية، دون أن يجدوا بيتاً.
أمضى الرجل نحو ساعتين وهو يبحث دون جدوى، عندئذ طلب أن يعيدهم إلى (البازار).
قالت له زوجته بشيء من اليأس: ماذا سنفعل؟
قال: الاحتمال الأسوأ هو أن نعود إلى الموتيل.
عندما أشارت الساعة إلى الثالثة، اشترى صمّوناً ساخناً، وعلبة من اللحم البقري، وعبوة كولا، وجلسوا في حديقة يتناولون الصندويش.
حين فرغوا من ذلك، ونالوا قسطاً جيداً من الرّاحة، أوقفَ سيارةَ أجرة وطلب من السائق أن يأخذه إلى بعض الأحياء الشعبية من أجل استئجار بيت.

رحّب به السائق، وانطلق بهم إلى أحد الأحياء، دخل ثلاثة مكاتب دون أن يجد مراده. طلب إليه أن يأخذهم إلى حي آخر، فاستجاب الرّجلُ بسرور، وهو يقول: سآخذكم إلى حي (سيتاقان) ربما نجد بيتاً هناك.

قال: ما يهمّني هو أن يكون قريباً من مركز المدينة (البازار).

قال الرجل وهو يتجه بالسيارة نحو الحي: كاكا، يمكنك أن تذهب مشياً إلى (البازار) بنحو نصف ساعة. قال: جيد عزيزي.

عند دخوله الحيّ، بدأ يسأل حتى وقع على مكتب عقاريٍّ رأى مطلبه لديه.

أعطى السائقَ أجرتَه، وهو يشكره على جهوده التي أثمرت بنتيجة.

قال صاحب المكتب: لدي بيت في هذا الحي أظنه يناسبك.

أشار لزوجته بالدخول، فأتت مع الأطفال، وجلسوا جميعاً في المكتب.

قال الرجل: كاكا، لا يجوز أن تسكنوا البيت قبل تصديق العقد من (الأساويش) المخفر، لكن بما أنك مضطر، لا بأس سأسكنك فيه على مسؤوليتي، وخلال أسبوع عليك أن تذهب إلى الجماعة وتصدق العقد.

أبدى موافقته على ذلك، فقال الرجل: صاحب البيت يريد ستة أشهر مقدماً، وأنا سآخذ منك عمولة مكتبي قيمة أجرة نصف شهر.

قال: كاك خوشناو، نحن لا نعرف الفترة التي نقضيها هنا.

قال: لابأس، أرجو أن تكون عودتكم قريبة ماموستا. ثم أردف يقول: الأجرة الشهرية هي خمس ورقات –خمسمائة دولار أمريكي– وسنجعل مدة العقد ستة أشهر حتى يصدّق عليه الأشاويس، وأنت تعطي شهراً بشهر، هل هذا يناسبك؟

قال: يناسبني كاك، ممنون.

ملأ الرجل العقد، وناوله النسخ الأربعة كي يقوم بتصديقها.

عندئذ أخرج أجرة شهر مع عمولة المكتب مادّاً المبلغ إليه.

لفت نظرَه أن الرجلَ تباطأ بمد يده لتناول النقود، لَبِثتْ يدُه ممدودةً حاملةً الأوراقَ النّقدية، ثم ما لبث أن رأى دموعاً بدأت تنفجر في عينيه.

بعد قليل، مدّ يده متناولاً النقود، ثم سحب ورقةً بفئة المائة دولار وأعادها له قائلاً: أربعمائة تكفي. بيت في هولير، وكأننا في حلم.

هتف بها لزوجته عند خروج صاحب المكتب الذي قام بتسليمه البيت قائلاً وقد أعاد إليه مائتي دولار بأنه يتبرع لهم بقيمة نسبة مكتبه في العمولة أيضاً.

شكرَه على هذه البادرة، قابلاً ورقة واحدة، وتاركاً بيده الورقة الأخرى.

لدى خروجه، أعطاه الرجلُ رقمَ هاتفه طالباً منه الاتصال به عند الحاجة.

بيت فارغ، لا شيء فيه، والطقس شديد البرودة، الأطفال يريدون الجلوس، لكن لا شيء ليجلسوا عليه، والليل يفترش طرقات هولير التي بدت مثلهم في حالة نعاس وإرهاق.

في تلك اللحظات كم أراد أن يستلقي على ظهره ولو لساعة واحدة تريحه من حجم الإرهاق الذي بدأ يحتلُّ كل ركنٍ من مفاصله، وبدا الخروجُ للسّوق كحَمْل جبل على الظّهر بالنسبة إليه، بيد أنه لا بدَّ أن يخرجَ ثانية كي يبتاع ما يمكّنهم النومَ عليه حتى الصباح. تناهت منه نظرة إلى (سيروان) الذي غفا على يدَي أمه الواقفة.

مد خطوات نحو الباب متمتماً: سأشتري ما يمكنني شراؤه وأعود.

قالت وقد مدّت خطواتِها إليه: سنأتي معك.

خرجوا جميعاً وقد بدأت زخات مطرٍ خفيفةٍ على شكل رذاذ تنهمر من كبد السماء.

بعد نحو عشر دقائق كانوا في سوق (لنكة) العامر بمئات المحالّ، والذي ذكَّرهم بسوق الحميدية في دمشق، بيد أنه بدا أكثر ازدحاماً، وأكثر غنىً بمحتوياته من الحميدية.

اشترت ما رأتْه ضرورياً من فرش وأغطيةٍ ووسائدَ، وبعض ما أمكنها شراؤه لبيتها الجديد، وعادوا محملين بعد نحو ساعتين.

تناولُوا وجبة سريعة مما أحضروا معهم من السوق، واستسلموا للنوم مبكراً.
عندما فتحت آفان عينيها، رأتِ الضوء منتشراً في الخارج، مدّت يدها إلى جهاز هاتفها الخلوي لتنظرَ إلى الساعة، حينها صدر منها صوتٌ: انهض، لقد تأخرنا في النوم.
فتح عينيه متمتماً: كم الساعة الآن؟
قالت: الحادية عشرة والنصف. ثم أردفت: علينا أن نفعل شيئاً.
نهض من الفراش، وراح يغسل وجهه بماء بارد منتبهاً بأنه نسي أن يشعل السخان لتسخين الماء. عندما عاد إلى الغرفة وهو يرتجف برداً، انتبه إلى المكيّف الموجود في الغرفة، مدّ يده إلى جهازه الصغير وأداره قائلاً: شغّال يا عزيزتي.
ابتسمت قائلة: كيف لم يلفت نظرنا البارحةَ؟ لو علمنا لأدرناه في الليل، نال البردُ من الأولاد.
ارتدى سترةً وخرج صوبَ محلاتٍ مُجاوِرَة، اشترى بعض المواد الغذائية، ثم عرج إلى الفرن اشترى بألفي دينار خبزاً صموناً ساخناً، وعاد. كان الأطفالُ قد نهضُوا من نومهم بانتظاره، هكذا اعتادوا على بعضهم، يشعر أحدهم بغياب الآخر. صنعت الشاي بواسطة الإبريق الكهربائي الذي كانت قد دسّته في الحقيبة وهي تقول: والله ستأتي معنا، اشتريناك منذ أسبوع، لم نرَ خيرك من شرك بعد. جلسُوا جميعاً يتناولون طعام الإفطار، عندئذ تناهى صوت الباب الحديدي، فنهض فاتحاً، وإذ ببعض الجوار يحملون حاجات.
دعاهم إلى الدخول، ثم دنت زوجته مستقبلةً النساء اللواتي رحن يتبادلن معها القبلات كما لو أنهن على علاقة وثيقة سالفة.
ولجَت النسوة، بيد أن الرجال لبثوا واقفين يسألون عما ينقص البيت وهم يعاتبونه بشدة لأنه لم يبلغهم بحضوره يوم أمس حتى يقوموا بواجبهم تجاهه.
أحدُهم قال بأن صنابير المياه تحتاج إلى استبدال، وقال آخر بأن خزّان الماء في الحمام يحتاج إلى تبديل، ثم أضاف: ويحتاج إلى دش.

بعد قليل أخرجَ أحدهم هاتفه الخلوي من جيبه، وأجرى اتصالاً مع صاحب البيت، الذي بدا على معرفة به، ودعاه للحضورعلى جناح السرعة.

لدى حضور الرّجل، رحّب به وتمنّى له إقامة طيبة في بيته، وقال بأنه مستعد لتقديم ما يمكنه من مساعدة.

أخبروه بأن عليه القيام بتجهيز الحمّام، وتركيب ما ينقصه، وإصلاح صنابير المياه، وبعض التمديدات الكهربائية. أبدى الرجل موافقته على ما سمع من طلبات، وقال بأنه صباح يوم الغد سيُحضر مَن يتولى مهمة هذه الإصلاحات، وتركيب المستلزمات. ثم بدأت الطَّرقات تتوالى على الباب، حيث يدخل البعض، ويخرج ليعود حاملاً بيديه حاجة من مستلزمات بيت غير مفروش.

استمر ذلك حتى المساء حيث خرجوا قائلين بأنهم سيعودون غداً لاستكمال ما يحتاجه البيت، طالبين منه ألّا يكلِّفَ نفسه عناء شراء حاجة من الأدوات المنزلية. عندئذ جلسَا وسط أطفالِهما تحت مشاعر من الدهشة، يريد أحدهما أن يزداد ثباتاً في تصديق ما رأى من خلال النظر إلى الآخر، وأن ذلك حدث معهما بالفعل ورأياه معاً رأي العين.

تساءل كلٌّ في سرّه: هل هي حميمية المشاعر القومية التي دفعتهم إلى ذلك، هل هي مشاعر إنسانية خالصة لا علاقة لها بنوازع الانتماء العرقي؟

لكن في كلا الحالتين، فإن العطاء لم يكن ليبلغ ذروته كما رأياه، لذلك تسرّب إليه شعور بأن ما حدث هو نتيجة مزيج من تكاتف الانتماء القومي الممزوج بمسك النزوع الإنساني. حينها أدرك كم أن المعاناة الإنسانية يمكنها أن تصنعَ مجتمعاً متماسكاً يتمتّع بدرجات مُتقدِّمة من رهَافَة الحالة الإنسانيّة حتى يتفوّح بمسك عطرِ الإنسان.

عندما نهضا في الصباح، لم يشعرا بأي نقص في البيت، وانتابهما إحساس أنهما يقيمان في بيتهما. بعد تناول الإفطار، لفتت حالةُ الجوِّ نظرَهما، إذ بدا اليومُ خلافَ الأمس، حيث شروقُ شمسٍ دافئة، وكأنها شمس ربيع دافئ، عند ذاك اقترح على زوجته الخروج برفقة الأطفال للتعرف على ملامح المدينة.

عند خروجهما قال: أول ما يعيننا على اكتشاف جماليات المدينة هو أن نتجنّب ما أمكن ركوب التكسي الخاص، ونعتمدَ في مشاويرنا على المشي، وإن نال منا التعب، نستخدم وسائط نقل عامة.

قالت وهي تنظر إلى الأطفال وقد انطلقوا يهرولون بفرح أمامهما: يتيح لنا ذلك التقاط صور ومقاطع فيديو تذكارية. قال: أتعلمين يا عزيزتي أن أكثر مدينة يتعرف عليها الإنسان، هي تلك المدينة التي تنال طرقاتها أكثر حظ من خطوات قدميه؟

ثم بدأ يتأمل ملامحَ المكان وهم ينطلقون في طريق –بازار– المدينة، وقد خطر له في لحظة وهو ينظر إلى المارة أن أكثر الناس دراية بمدنهم، هم أولئك الفقراء الذين تفرض عليهم لقمة عيشهم كي يجوبوا كل أركان مدنهم جَيْئةً وذهابا بشكل يومي.

عملهم يتيح لهم تأسيسَ صلةٍ معرفية وثيقة مع قاع المدينة وهم يَتَغلغَلُون في عمق أزقتها، يتعرّضون لفيض أمطارها الغزيرة التي تبلل حتى ثيابهم الداخلية في صقيع الشتاء، كما تنهمر حبات العرق من جباههم وهم يتعرضون للهيب شمسها في ذروة ظهيرات الصيف، وفي الربيع يستمتعون بنسيم هوائها اللطيف، وعبير عطر أشجارها الفواح، والاستماع إلى زقزقة عصافيرها، ويمضي بهم الخريفُ وهم يجوبون الشوارع كسالى حاملين أثقالهم، يشهدون سقوطَ كل ورقةٍ من علوّ شجرتها، تتعرض أجسادُهم لهبّات ريح عاصفة وهم يترنّحون على منعرجات ضفاف طرقات مدنهم التي ألفوها، وألفتهم، إنهم عمّال عمارة الحياة في مدنهم.

بغتةً رأوا أنفسَهم في شارع مكتظّ بأنواع الطّيور والحيوانات، أرانب، ديك حبش، أوز، بط، حمام، بلابل، زرازير، دجاج. مضوا فيه حتى بلغوا جسراً قيل لهم بأنه جسر سيداوى، في ركن (آرد فروش) ثم ولجوا سوقاً مزدحماً انتهى بهم إلى قلب المدينة. عندئذ مال الأطفال نحو حديقة مزدانة بنوافير المياه، وألوان الزهور، ونماذج لوسائط نقل، ومعيشة، وصناعة تراثية، ترفرف فيها طيور الحمام وكأن الناس فيها يحتفلون بالعيد، تطل عليهم القلعة الأثرية بكامل حلتها.

بدأت تلتقط صوراً للأطفال، ثم له، ثم تناوبوا في التقاط صور في لقطات فردية، وجماعية، ثم أخذ بعض مقاطع فيديو. هكذا كما ضفافُ الأحلام، كما هبوبُ الرّياح، كما دفقاتُ المدّ والجزر في المحيطات، بوسعِ الإنسان أن يستبدل جدائل مكان، بجدائل مكان آخر، أن يغادر دفءَ مجتمع، ليأنس بإيقاع دفء مجتمع آخر، أن يخرج من عمق واقع أزلي، ويتغلغلَ في رحابة واقع آخر. هكذا بدا له أن الإنسان يمتلك مقدرة هائلة على قوة التجدد والتآلف ومقاومة أي ذرّة شعور بالرضوخ، بالهزيمة، باليأس. هكذا كما الأغنياتُ المُتجدّدة..كما عذوبة الموسيقى.. أناقة ثيابٍ جديدةٍ صبيحةَ عيد مجيد.. يمتلك الإنسان البالغ في عناده مقدرة نافذة على تقبُّلِ فكرة التّجدد.

بدت هولير أمام ناظرَيه أعذبَ امرأة لم ترها عيناه من قبل، لم تتبرك قدماه بطواف محجها من قبل، بدت تسحره بكل لمسة من لمسات أناقتها الفائقة وهو يقاوم دفقات مشاعره الفياضة نحو وهج تألقها. عندما قرعت ساعة هولير في ساحة (البازار) المطلة على جبهة القلعة بالساعة الثانية والنصف، اقترح على زوجته أن يتناولوا طعام الغداء في أحد مطاعمها الشعبية. كانت بمثابة فرصة سحرية أن يجلس مع أقرب وأحب خلق الله إليه، أطفاله الثلاثة، وزوجته. هولير، مدينة الضيوف، والسياح، والنزلاء، مدينة الجود، والهدوء، والأمن، وهي تعبق بعبير كورديتها. هولير: جوهرة كوردستان الثمينة.

عندما بلغت الساعة السادسة مساءً، وصلوا باب البيت وقد بلغوا عتبات التعب. فور وصوله اتجه إلى الغرفة التي باتت تُعرف باسمه، حيث اعتاد على قضاء بعض الوقت فيها في معزل عن ضجيج الأطفال. يقرأ قليلاً من جهاز اللابتوب، يستمع إلى الموسيقا والأغاني، يمضي وقتاً على الإنترنت. يشاهد ألبومات صور العائلة، مقاطع الفيديو، يتأمل، ثم يأخذ قسطاً من الراحة.

هكذا، كما لو أنه في البيت، هي ذاتُ الطقوس التي يمارسُها، ذات الحرية المفتوحة التي اعتاد على نمطها. يخرج أحياناً بعد منتصف الليل، يقف نحو ربعَ ساعة أمام

الباب يتأمّلُ الشارعَ، أو يمضي وحيداً تحت أضواء المصابيح، أحياناً ينسى بأنه يمضي في الشارع، فتنبهه صافرة حارس، وهو يدخل شارعاً.

يعتذرُ، ثم يعود بخطواته إلى البيت، يلقي نظرات إلى أطفاله النائمين إلى جوار أمهم على نحو عشوائي، يعدّلهم بشكل جيد، ويلقي عليهم أغطيةً، ثم يلقي بجسده على فراشه مستسلماً لاسترخاء المفاصل. بعد وصولهم بنحو ساعة، تناهى صوتُ الباب، راحت زوجته تفتح، وبعد قليل بلغه صوتُها مُرحِّباً بالقادمين. نهض مستقبلاً بعضَ الجوار الذين قدِموا ليسألوا عن أي حاجة تنقصه. كانوا ثلاثة رجال مع زوجاتهم حاملين حقائبَ، وعلباً، وأجهزة كهربائية، ومدفأة تعمل على النفط.

وضعوا الأغراضَ في الدّاخل، وعادُوا حيث السيارات الكبيرة الواقفة بمحاذاة الباب، يُنزِلُون منها ما تبقى من أغراض. لبث واقفاً مع زوجته دون أن يسمحوا لهما بالتقدّم وحمل أي شيء معهم. بعد نحو نصف ساعةٍ انتهوا من تنزيل حمولة بيت كامل، وضعوا كل حاجة في مكانها حتى إن بعض الحاجات باتت مكررة لأن الرجال الذين حضروا البارحة كانوا قد جلبوها. خلال ساعتين من العمل انقلبَ البيتُ كله رأساً على عقب حيث مفاخر السجاد، والأوسدة، والبطانيات، والموكيتات، وثياب الأطفال، والألعاب، والإسفنجيّات، والدواشك، واللحف، وبوتوغاز، ومزيد من مستلزمات المطبخ.

عندما فرغُوا، دعاهم للجلوس، عندها قال أحدهم بلهجته السورانية: أنتم أكرادنا حلَلْتُم بين أهلكم، سنكون لكم عوناً حتى يرى الله لكم سبيلاً وتعودوا إلى دياركم.

قال آخر: مرزْنا بتجربة النزوح مثلكم، عندما تم قصفنا بأسلحة كيماوية، حملنا أطفالَنا ولجأنا إلى أكرادنا في إيران، مشينا تحت الأمطارِ والعواصفِ في العَرَاء، منّا مَن قضى نحبه نتيجة الغازات السّامة، والبرد، والرعب، ومنّا من بلغ الحدودَ بالكاد وقد أنهكه ذعر القصف الكيماوي. كانوا لنا نِعْم المستقبلين، أسكنونا بيوتهم، أطعمونا طعامهم، ألبسونا ثيابهم، قاموا بواجبهم القومي والإنساني نحونا.

قال الرجل الثالث: نحن نرجوك ونتوسّل إليك أن تسمحَ لنا أن نردَّ لهم بعض جمائِلِهم علينا من خلالكم، هذه هي فرصتنا الوحيدة حتى نقدمَ شيئاً لأئك الذين قدّموا لنا كل شيء. عاد الرجل الأول إلى القول: هذا رجاءٌ خاص، ونرجو ألّا تخيّبَ أملنا، ليس بالضرورة أن يكون الضّيف بحاجة حتى يلقى التّكريم من مُضيفه، بل هذا هو واجب المضيف تجاه ضيفه، عندما نقصّر تجاهكم، سيكون هذا نابعاً من تقصيرٍ في مشاعرنا تجاه إقليمنا الذي سقينا كل حبّةِ تراب فيه بدمائنا، لقد ضحّينا من أجل أن نعيش مثل هذه المشاعر في يوم كهذا بالغالي والنّفيس، فنرجوك ألّا تحرِمنا من ممارسة مشاعر الاحتفاء بكم حتى لا تحرمنا من مشاعرنا بأن إقليمنا هو حقاً بيتنا الكبير، وأي ضيف يدخله، إنما هو ضيفنا جميعاً. عندئذ بدأت النسوةُ تذرِفُ الدّموع، ثم ما لبث الرجال أيضاً أن بدؤوا يذرفون الدموع ويحتضنونه، يضمّون أطفاله إلى صدورهم: لقد لُذتُم من هول الحرب بأخوةٍ لكم، إنكم تذكّروننا بأهوال حلبجة، بمأساة الأنفال، بعمليّات الإبادة العرقيّة، أنتم نحن، ونحن أنتم، أطفالكم أطفالنا، أطفالنا أطفالكم.

تناهت نبراتُ امرأةٍ وهي تتمتم لزوجته: لن يهدأ لنا بال يا أختي إن لم نركم في عيشة أفضل من عيشتنا، تأكلون أفضل مما نأكل، تلبسون أفضل مما نلبس. نحو عشر دقائق أمضوا جالسين، وما لبثوا أن نهضوا معتذرين عن تناول الشاي: ندعكم ترتاحوا (خوا حفيظ) بحفظ الله. في صبيحة اليوم التالي راح إلى مختار الحي الذي أعطاه وثيقةَ سند الإقامة، ثم قام بتصوير ما لديه من وثائقَ تصويراً ملوّناً، بالإضافة إلى صور له ولزوجته كما أرشده صاحب المكتب، واتجهوا إلى حيث المخفر. استغرقَ الأمر نحو ساعة، ثم أعطاه رئيس المخفرِ ثلاثَ نسخ من العقد، واحتفظ بنسخة لديه قائلاً بأن نسخةً له، ونسخةً لصاحب المكتب، ونسخةً لصاحب البيت.

* * * *

من جنبات هولير يفوح عطرُ التاريخ، كلُّهم ذهبوا، وبقيت هولير، تزداد ألقاً، تكتمل جمالاً، حاضنةٌ أمينة لأبنائها الكورد، وقد لبثوا متشبّثين بها، ولبثت متشبّثةً بهم في سفينة يمّ التاريخ.

يشعر أحياناً بأنه في منتزه كبير على سرير هولير التي تتوسط الزاب الأعلى، والزاب الأسفل، بحيث يكون شرقُها أعلى من غربها، وشمالها أعلى من جنوبها.

يطوف قضاءاتها:

قضاء خبات..

قضاء جومان..

قضاء سهل أربيل..

قضاء رواندز..

قضاء شقلاوة..

قضاء سوران..

قضاء مخمور..

قضاء كوية..

قضاء ميركة سور..

قضاء مركز أربيل.

يطوف محراب النواحي الغارقة في رائحة كورديتها:

آشتي..

باسرمة..

بارزان..

بحركه..

باليسان..

تق تق..

بيران..

خليفان..

حاجي ئومران..

دار شكران..

دارتوو..

رزكارى..

ديانا..

سميلان..

سكتان..

سيدكان..

سه لاحه دين..

شمامك..

سيكركان..

شيروان مزن..

شورش..

قراج..

عينكاوه

گسنزان..

قوشتبه..

گلاله..

گورکوسك..

گویر..

گوره تو..

هریر..

مزنی..

ورتي..

هیران.

في دجى الليل، وهو مستلق على ظهره باسترخاء في فراشه يستمع أنغاماً كوردية هادئة، ولجت إليه هولير كفراشة وديعة، نهض احتفاءً بدخولها الزاهي..

هولير، تتأنق بمفاخر ثياب إرث كورديتها، تتحلى بنفائس جواهر ولآلئ آل الكورد، تقف بقدميها المباركتين على كل ذاك الإرث الغائر في عمق التاريخ. يرتبك من سحرية حضورها، تتعثّر الكلمات على لسانه: فرمو عزيزتي، دانيشي. تفضلي عزيزتي، اجلسي.

هولير، رغم أنها تجيد كل لغات العالم، إلاّ أنها تصر على لغتها الكوردية المزدانة بألق لفظ اللهجة السورانية. ها هي هولير تفي بعهدها معه، منذ نحو شهر بينما كان مستسلماً لغفوة مسائية في غرفته، أحس بلمسات أنامل ناعمة تداعب محياه. ظن بأنها (آفان) بيدَ أنه شمَّ رائحة غريبة اندفعت إلى خياشيمه لم يعرفها من قبل، لم يحظ بمثل تلك الرّائحة النّفيسة من قبل، رائحة بعثت النشوة إلى سائر بدنه.

عندما فتح عينيه، بُوغِت ببريقِ أُبهة امرأةٍ يراها أول مرة، ظن للوهلة الأولى أنه واقع تحت سلطة حلم، لكن الصوت أثبته في قوة اليقظة متمتماً: جئت أرحب بضيفي.

جلس في الفراش وهو ينظر إليها دَهِشاً، فاستأنفت تقول: (أنا هه ولير). انتفضَ عند سماعه الاسم، لكنها استأذنَتْه قائلة بأنها ستزوره مرة أخرى، وستجلس معه، وزيارتُها هذه هي للتّرحيب فقط، لأنه حلَّ ضيفاً مع عائلته عليها.

كان لقاءً خاطفاً حتى إن الأمر أحياناً يلتبس عليه، فيظن بأنه كان في حلم، فهي لم تترك أثراً يشير إلى حضورها. منذ ذلك اليوم وهو يعيش حالة ترقّبٍ دائمةٍ بانتظار أن تفتح الباب وتدلف في أي لحظة متوقعة أو غير متوقعة .

بدأ يطيل السهرَ في غرفته حتى إنه أحياناً يستسلم لسلطان النّعاس، فينام فيها حتى يدركه الصباح، وأحياناً تنهض آفان في ساعات متأخّرة من الليل، وعندما لا تراه في فراشه، تلجُ إليه في الغرفة وتيقظه، فيذهب يستأنف النوم على فراشه في الغرفة الكبيرة.

جلست وهي تتمتم له: هل يعوزك شيء؟

قال: لم يكن يعوزني غير رؤيتكِ.

قالت: أعرف أهلي جيداً، إنهم يحافظون على تقاليدنا الكوردية، ومرُّوا بظروف أكثرَ من قاسيةٍ كان من محاسنها أنها جعلتهم أكثرَ رهافةً في مشاعرهم.

إن قلوبَهم شفّافةٌ كقلوب الحمام تملؤها الرحمة والشفقة ونقاوة الحسّ الإنساني.

بدأ في حالة صمت مهيب، لا ينبس ببنت شفة، بل يحرِص على ألّا تصدرَ منه حركة وهو في حضرة عذوبة حديثها.

أردفت تقول: الضيف لا يكون محتفىً به إلّا إذا أحسّ بأنه يعيش بشكل أفضل مما يعيش وهو في بيته، أنت ضيف لذتَ بنا مع عائلتك في شدة، وهذا جعل مسؤوليتنا مضاعفة نحوك.

لم يكن يصدق أن مدينةً كاملة يمكنها أن تتمثل في هيئة امرأة، وتأتي لترحّب به لولا أن ذلك يقعَ معه، ويراه رأي العين، يصغي لنبرات صوتها إصغاءَ الأذنِ للصوت، بيد أنه رغم ذلك سألها قائلاً: كيف استطعت أن تتمثّلي بهيئة امرأة، وتدخلي إليّ؟

ابتسمت قائلة: كما أنّ للناسِ عند ربهم مكرمات، للمدن أيضاً عند ربها مكرمات.

أنا هولير..

سيدة أمجاد الكورد..

قلعتي الشّامخةُ شاهدةٌ على أمجادي..

من أجل ضفائري تنازعَ جَبابِرةُ العالم..

أعدّوا من أجلي ما استطاعوا من قوة، ومن رباط الخيل..

أقاموا في ربوعي حيناً من الدهر..

ثم ما لبثوا أن مرّوا بي مرورَ الكرام..

أنا هولير..

مدينة الكورد الأزلية..

صاحبةُ عِصْمة أكرادي..

لا شيء لي دونهم..

لا شيء لهم دوني..

أنا هولير..

فضّة أحلامِ الملوك..

مَحَطُّ أنظار الجبابرة..

مَكْمَن أطماع الغزاة..

مدينة الآلهة الأربعة..

مقامُ حاملةِ الإرث البابلي عشتار المقدسة.

أنا هولير..

نزهة الساسانيين..

حديقة البارثيين..

مخبأ كنوز الفرثيين..

سياحة السلوقيين..

كنيسة الآشوريين..

جوهرة أبناء فارس النفيسة..

ضفّة العثمانيين..

زهرة إمبراطورية أور الثالثة..

ساحرة الملك السومري الجميل شوكي..

ملهمة آشور باني بال..

مربّع عرش إمبراطور آشور سنحاريب
أنا هولير
حاضنة كهف شانده ر الأزلي
مأوى إنسان الينادرتال السحيق
لؤلؤة كوردستان المجيدة
وِسَادةُ الميديين في ليالي الوحشة
محطة غزوات الرومان
محظية هولاكو
عروس إمبراطورية الصفويين
حلّةُ تيمورلنك النّفيسة،
أسيرة الطليان الجميلة.
أنا هولير
قصبةُ حَفَدة الكورد الذهبية.
أنا هولير
لي عند ربي مكرمات.

لبثت تنظر إليه مُبتسِمَة، مُعبّرة عن حفاوتها بزيارته لها، تبتسم رغم شموخ الحزن الظّاهرعلى سحنتها.

لم يسبقْ له أن لمسَ الحزن في قمّة ألقه وهو يبدو كنجوم في سماء الوجه، بدا حزناً يألفُه لأول مرة، حينَها لم يملك نفسه من سؤالها: أرى جبلاً من الحزن يضفي هالةً من الشّموخ عليك.

قالت: مسحةُ الحزن هذه ورِثها أبنائي عني، هذه القلعةُ التي أقيمُ فيها بُنيت بدموع أسيرات الحروب، كل ذرّة ترابٍ فيها ممزوجةٌ بدموع امرأةٍ أسيرة، كانت تلبي أوامر البناء مع أخواتها وهي تحمل الحجارة والصّخور والتراب حتى اكتمل بناء القلعة كي

يتوِّجَني فيها الملوك. عندئذ خطر له أن يسألها عن عمرها وهي تتمتع بذروة لياقةِ الصّبا فقال: كم عمرك يا نور العين؟، قالت: أنا مهد الإنسان. قال: تبدين صبية في ربيعها الثامن عشر. قالت: هذا إذا قسْت أعمار المدن بأعمار الإنسان، المقارنة هنا لا تحظى بالدقة. أعمارُ المدن لها خصائصها التي تختلف كلها عن أعمار الإنسان.

قد ترى مدينةً وقد شاخت في عمر ثلاثمائة سنة، وقد ترى مدينة ماتت في عمر ألف سنة، وقد ترى مدينة في أوج صباها في عمر عشرة آلاف سنة.

حيويّةُ المدن لا تقاس بأعمارها، إنها تقاس بأمجادها.

قال: علمتُ بأن لك أكثرَ من اسم، ما سر هذه الأسماء؟

قالت: أسمائي كثيرة، منها تعرفها، ومنها لا يعرفها أحد غيري، كل قومٍ كان عندما يسكنني، يطلق عليّ اسماً. قال: لي طمع يا سيدتي كي تروي لي أسماءكِ.

قالت: من أسمائي التي اشتُهِرْتُ بها في الناس:

خولير..

هاوخور..

هوير..

أولير..

هه وليرِ..

أوربيلم..

أربائيلو..

أوربيليوم..

أربيل..

أربا أرلا..

ئاربيرا..

ئاربل..

ئاروبل..

أربيلاس...

أربيليس..

أرويل...

أربيرة..

أربيلا..

ثم أردفَت تقول: لكن أحب أسمائي إلى قلبي هو: هه وليـر لأنه من زُبْدةِ صفْوة اللّسان الكوردي الذي أقف به على جذوري. تحسدُني مدنُ العالم على تَهافُت ملوك وأباطرة وسلاطين الأرض لإشادة عروشهم في رحابي. ذات يوم من سنة ٢٠٠٠ قبل ميلاد المسيح قال لي الملك السومري شوليكي بأنه يفخر أن أكون من أكثر أملاك سومر عماراً بالحياة والجمال. يومَها استأذنني ليدلعني باسم (أوربيليوم) وكان ذاك الاسمُ من أحبِّ الأسماء إليه، كنتُ دائمةَ التّردّدِ على لسانه، وعندما كان يلفظ اسمي، كان كمن يتذوّق قطعة حلوى. ذاتَ أمسيةٍ عندما كان ساهراً في قلعتي مع عائلته، قال لزوجته بأنه عندما يلفظ اسمي يشعر بأن نبرات صوته تحلو، فلمستُ حينها شيئاً من شظايا غيرة وقد علَت محيّاها.

لكن، وكما هي العادة، فإنهم نزحوا عني، وبقيتُ أسحرهم، فاشتقّوا أسماء مدنهم الجديدة: أور، أديرو، أورك، من ثنايا اسمي. اِفْتَرّ جمالُ ثغرِها الورديّ بلمسةِ بسمةٍ، وأردفت تقول: لكنني ذات يوم فوجئت بملك أور يطرق أبوابي مستعيداً مجد سومر، ورأيتُني متوَّجةً بلقب سيدة إمبراطورية أور الثالثة لا ينازعُني في منزلتي أحد.

عندما سكنَتْني الأقوامُ الزاكروسية من ميديين، وكوتيين، وأورارتو، وخوريين، وكاشيين، وميتانيين، تباروا وتنافسوا فيما بينهم لجعلي أكثر مدن الأرض جمالاً، وتمتُّعاً بنفوذ سياسي، وإداري، ومالي، ومنزلة رفيعة. كانوا يتنافسون في جعلي لؤلؤةَ إمبراطورياتهم.

كرّمني الآشوريون عندما قطنوني بأن جعلوا في ربوعي عرش عشتار المقدسة، وكلّلوني في كتابات مسمارية: (أي كشان كلاما) وقالوا لي: أنت بيت سيدة الإقليم، فاكتسبتُ بذلك رمزيةً دينيّة لسائرِ أبناء وحفدة آشور من بعده الذين يعتبرونني محجاً، ويأبون فراقي حيث ما زالوا يقطنون في رحابي، يشمّون من جدراني، ومن ذرات تراب قلعتي روائحَ أجدادهم.

عندما اشتدَّ عودُ أجدادك الميديين سنة سبعمائة قبل المسيح، لم يهنأ لهم بالٌ حتى أتوا بجيوشهم وانتزعوني بقوة حدِّ السيف من أبناء آشور، وقد أعادوني إلى منبتي الكوردي، حيث احتفلوا بتكليلي جوهرةَ إمبراطورية ميديا، لكن جمالي لبث يسحر الملوك وقادة الأرض، فانتزعتْني براثن دولة (هه خه ماني) الأخمينية. لم يرقْ الأمرُ للإسكندر المقدوني، فشنَّ من أجلي معركة أسماها (أربيلا) وانتزعَني بالقوة ليجعلني مُلكاً لإمبراطورية حفدة يونان. وعندما اشتدَّ عودُ الملك الأرمني (نيكران) درتُ ذات ليلة في خلَده، فلم يهدأ له بالٌ حتى جاء وانتزعَني بالقوة ليجعلني مدينةَ الأرمن الأثيرة.

بدأ وكأنه يطوف رحابةَ عالمٍ من الماضي السّحيق، وهو يشمّ رائحتَه، يتأمل نجاحاتِه، وإخفاقاته، انتصاراته، وانكساراته.

يشعرُ كم أنه كان بحاجة إلى التّحليق في ذاكرةِ تلك الخبرات البشريّة المتراكمة، كم أنه يحتاج إلى العودة لأقصى الماضي، ليمكّنَه ذلك من الغوصِ في أقصى عمقِ الواقع، ويمهّدَ له نظرة جلية إلى أفق المستقبل. استرسلت تقول بروحانية فائقة: ما لفت انتباهي، هو أن أي امبراطوريةٍ عبر تلك الأحقاب لم تشعر بأنها إمبراطورية مكتملة في قوامها إن لم تُتوِّجني في ملكيتها. كانت تشعرُ بنقصٍ حتى لو ملكتْ كل أرجاءِ الأرض، لأنها كانت تضع الأرضَ قاطبةً في كفة، وتضع هولير في كفةٍ مقابلة.

* * * *

استفاقَ على صوت آفان وهي تقول: مرةً أخرى تركْتَنا ونمتَ بمفردك هنا، هذا الفراش غير مريح، يسبب لك آلاماً في الظهر. فتح عينيه، ألقى بنظرات حوله. تمتم بعباراتِ اعتذارٍ على تركِهم ونومِه هنا بمفرده مرة أخرى: يبدو أن النوم أخذني على غفلة.

عندما خرجَت آفان، تذكّرَ ما وقع ليلة البارحة، حين دلفت إليه هولير وساهرَته حتى نامَ على إيقاع نبرات صوتها، كانت تدندن له كما لو أنها تشدو بأعذب لحن وقع على سمعه. يذكر أن موجةً ثقيلةً من النّعاس دَهَمته بغتةً، وهي تخبره بأنها ستستودعه كي تذهب إلى الصلاة في محرابها الكائن في مدرج قلعتها.

قال: هل تصلّين يا هولير؟، ابتسمت قائلةً: المدنُ مثل الناس، ثمّة مدن صالحة، وثمّة مدن فاجرة، ثمة مدن مطيعة، وثمة مدن تعصي أوامر ربها.

ثمة مدن تصوم، تخرِج زكاتها، وثمة مدن لا تعرف للصّوم والزكاة رائحةً، ثمة مدن ذاكرة، وثمة مدن جاحدة. نهضَ من الفراش متّجهاً إلى المِغسَلة يغسل وجهه، عندئذ تناهى صوت زوجته: سأضع إبريق الشاي على الغاز ريثما تحضر الخبز.

عندما حضر إلى هولير، اكتشف أن الناس هنا يعتمدون على خبز (الصمون).

في الأيام الأولى بدا الأمر غريباً بالنسبة إليهم، فقد اعتادوا على الخبز المرقّد الذي يُصنَع في المخابز الآلية الحكومية.

كانوا يستخدمون الصمون في بعض المناسبات، أو في بعض حالات المرض، لكنهم مع الأيام اعتادُوا على استخدام الصمون اللّذيذ خاصة عندما يخرج لتوه من الفرن.

لفت نظرُه تكاثرُ الأفران الأهليَّة في المدينة، وفي أحيائها، وقد اعتاد الناس على شراء الخبز منها مع الوجبات اليومية الثلاث بشكل طازج وساخن.

لم يقتصرْ ذلك على مادة الخبز وحدَها، بل يشملُ غالبيّة المواد الغذائية، حيث يبتاع الناس حاجاتِهم اليومية فقط دون أن يلجَؤوا إلى تخزين الطعام، أو المَؤونة في المطابخ، أو الثلاجات.

عندما يفقد الناس ثقتهم بضمانة الجوع والفاقة، يكون الأمر مخالفاً لذلك، حينها يمكن للمرء أن يشتريَ حاجةَ عشرة أيام من الخبز، ويودعه في الثلاجة، يشتري خمس دجاجات، وكميّات من اللحم، أو السمك يمكن أن يستخدمها لمدة شهرين. كذلك الأمر بالنسبة للمؤونة من الجبن، والبازلاء، والمحمرة، والمربى، والباميا، والمكدوس، والمحاشي، والفول.

وخطر له أن مردَّ ذلك هو خوف الناس دوماً من شحّ المواد الغذائية ونفوذها، فيقعون أسرى شبح الجوع والمحْل والقحط الذي يسكنهم كهاجسٍ ولا يبرحُهم، لذلك كلّما انهالوا على مادة، رفع التجار من قيمتها، ولو تركوها واشتروا منها كفايتهم اليومية فقط، للبثت في حالة مستقرّة في قيمتها خلال أيام السنة، ولَلَبِثُوا يستخدمونها وهي في ذروة طزاجتها.

هكذا، عبر السّنوات يتشكّل لديهم هاجسُ عدمِ الثّقة بالغد الذي يبدو قاتماً ومجهولاً بالنسبة إليهم، إذ لا ضمان فيما لو لبث المرء جائعاً، عندها تكون كل الاحتمالات مشرعة، وليس هناك من باب في البلاد يمكن له أن يقدّم رغيفاً من الخبز إليه في ظلِّ وعيٍ اجتماعي يتآكَلُ ويتضَاءل على أكتافِ واقعٍ مأساوي متراكِم عبر تفاقم السنوات.

هنا، بدا له الأمر مختلفاً، وشبح المحْل ليس بوسعه أن يستبدَّ بأحد، يذكر أن هولير قالت له بأنها ل اتتخلى عن أبنائها، ولا يستقرُّ لها بالٌ قبل أن ترى جميع الناس في موطنها وقد تناولوا طعامهم من إفطار، وغداء، وعشاء، وتناولوا فاكهة طازجة، ارتدوا ثياباً جديدة، استلقوا في فرش مريحة، عندما يتعسّر الأمر على أحدهم، يلقى عندها الأَزْر.

إنها تتحصّن في قلعتها على نفائسِ كنوز الجواهر، واللؤلؤ، والذهب، والفضة، التي خبّأتها لأبنائها عبر أحقاب الزمن السّحيق كي يجدوا عندها الملاذ عندما تضيق بهم سبل عيشهم الكريم. عندما همّ بالخروج، رأى ابنه (لاوين) جارياً ليخرجَ معه، أمسك بيده وخرجا إلى حيث الفرن، أمام دكان مجاور، فوجِئ برجل ينادي الطفلَ، ينحني

ويطبع قبلةً على خده، ثم يدخِلُه الدّكان، ويملأ له كيساً من البسكوت، والسكاكر، والشوكولاة، والكاتو. رغم أن ذلك يسبّب له حساسية، إلاّ أنه يدرك مع ذات الإحساس بأنه لا يرفضُ الهديةَ غيرُ لئيم، ورفضُ اليدِ التي تحمل هديةً، يسبّب جرحاً وحرجاً للشخص قد يكون أقسى وقعاً عليه مما لو كانت يده ممدودةً للمصافحة.

حتى إنه ذات يوم أخبر زوجته بهذا الإحساس عندما بدأ يلاحظُ كثافةَ الهدايا، فقالت له بأنها لا تقبلُ على نفسها أن تردَّ امرأةً حضرت لزيارتها، وهي فرِحَة بأنها تقدم لها هدية.

بيد أنها تخبر المرأةَ بذات الوقت بأن وضعها المعيشي جيد ولا تحتاج إلى مساعدة.

مع مرور الأيام اتّفقا على تقديم الهدايا كذلك للجوار لإعطائهم شعوراً بأن لديهم كفايتهم، وما يفيضُ، فغدَت آفانُ تقدِّم أطباقَ ما لذَّ من طعام إلى الجوار، وتقدم لهم بعض الهدايا التي تبتاعها خصيصاً لهم من المدينة.

وبدأ من جهة أخرى يتقصّدُ الخروجَ بثياب أنيقة، ويستخدم التكسي الخاص لبعض مشاويره في الذهاب والإياب، كي يعطي صورةً للجوار بأنه عندما أتى من دياره، جلب كفايته من المالِ معه. اشترى بألف دينار صموناً، ثم علبة من اللبن الإيراني المبُستَر، وصحناً من البيض، وعاد أدراجه إلى البيت يلحقه ابنُه.

كانت آفانُ قد أحضرَت طعام الإفطار المكوَّن من زبدة، وزعتر، ودبس، وزيتون، وعسل، ثم راحت تسكب صحناً من اللبن، وتقلي البيض.

جلسوا جميعاً على مائدة الإفطار الشّهية على وقع صوت فيروز الذي يصدر من جهازه الخلوي. بعد الانتهاء من الطّعام، استلقى على ظهره يأخذ قسطاً من الراحة، في حين شرعت آفان تهيئ الأطفال للخروج، لأن اليوم موعدُهم لقضاء النهار في القلعة، كانوا في الأيّام الماضية قاموا بزيارتها في أوقات عابرة، لكنهم اليوم قرّروا تخصيصَ النهار كلِّه لها.

القلعة التي تطلُّ على سوق نيشتمان في قلب المدينة التي ترتفع ١٥٠ قدماً على مساحة ٦٠٠٠٠ متراً مربعاً، وقطر ٤٠٠ ياردة. الذي يزور هولير، ولا يرى قلعتها كمن لمْ يزرْها، قلعتها التي تتفوّح بعطر أمجادها.

بدت القلعةُ في أنظارهم عروساً، وقد بدأت معالم الخُضرة تكسوها في بدء انطلاقة شهر مارس الذي يحفل بمناسبات الكورد حيث لم يحفلْ شهرٌ مثله، فهو الذي شهد أبرز انتفاضاتهم المِفصليّة التي أدت إلى استقلال الإقليم بحكم ذاتي سنة ١٩٩١، وهو الذي شهد أكثر جرائم البشرية دموية من خلال حملات الإبادة، وقصف مدينة حلبجة المنكوبة بأفتك الأسلحة الكيماوية، وهو الذي يتم تتويجه باحتفال عيد النوروز، حيث يخرج الكورد لإشعال نيران نوروز كرمزٍ لفاتحة الحرية.

عادت كلمات هولير إليه وهي تروي له كيف أنّ الملك الآشوري سنحاريب بذلَ كل ما بطاقته حتى يمدّ المياهَ إلى ربوع القلعة التي تعلّقَ فؤادُه بها، وعبّر عن دفق مشاعره بهذا الإنجاز كاتباً بلغته المسمارية ذات يوم على ضفاف نهر بستورة:

أنا سنحاريب، ملك بلاد آشور
حفرت ثلاثةَ أنهر من جبال خاني
التي في أعالي مدينة أربائيلو
وأضفت إليها مياهَ العيون التي في اليمين واليسار
من جوانب تلك الأنهار
ثم حفرتُ قناةً إلى وسط مدينة أربائيلو
موطن السيدة الجليلة
الآلهة عشتار
وجعلتُ مجراها مستقيماً.

بدت القلعةُ في ناظرَيه شاهدةً على بصمات تاريخٍ من عمر الزمن والبشر معاً، شاهدة على جشع الإنسان، شاهدةً بأن الجميع مضوا، ولبثت حيةً يتجدد شبابها على رأس

كل مارس. يستمتعُ بإلقاء نظراتٍ إلى جمالية القلعة، يشم منها رائحة التاريخ، يتفحّص سمات شفافية الحزن على سحنات الهوليريين، يتذكّر كلامَ هولير عن خصوصية هذه السّمات، ثم يجوب بنظراته القلعة، وهي تبدو في حالة حزن مهيب، هذا الحزنُ الذي يمدّها بطاقة من الحياة، فتمدّ الناظرَ إليها بمشاعر عالم روحاني، يشعر بأنه داخلٌ إلى سرمدية مملكة روحانية. كم من أناس مروا بها، كم من إمبراطوريّات وممالك وعروش تنازعت من أجل الظفر بها.

ها هم الناسُ من كل أطرافِ الدنيا يتسربون إليها، يلتقطون صوراً تذكارية في أرجاء معالمها. الذي يأتي إلى العراق، ولم يرَ كوردستان، كمن لم يأتِ، والذي يأتي كوردستان، ولم يرَ هولير، كمن لم يأتِ، والذي يأتي هولير، ولم ير قلعتها كمن لم يأتِ. حتى المسلمون عندما اشتدَّ بهم العود، لم يشعروا باكتمال إمبراطورتيهم دون هولير، فكان الزّحفُ إلى فتح المدينة فتحاً إسلامياً، وإضفاء طابع الإسلام عليها.

تذكّرَ بسمة هولير التي تلألأت على شفتيها الورديتين: كان ذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، عندما تولى عقبة بن فرقد الموصل، ثم امتدت يدُه إليّ عن طريق شرقي دجلة، وكلّلني مدينة جديدة في إمبراطورية الإسلام.

عندما جاءت الخلافةُ العباسية، عدتُ إلى أيدي أبنائي الكورد من الهذبانيين، وعادت قلعتي مُستقرّاً لحكمهم، لكن عماد الدين الزنكي استطاع مرة أخرى أن ينتزعني، ويخضعني إلى حكمه، واستأذنني زين الدين علي كوجك كي يقيم إمارته عليّ وقال لي بأنه سيسميها: الإمارة البكتكينية، ثم تولّى حكمي أخوه مظفر الدين كوكبري وقد تزوج ربيعة خاتون، أخت صلاح الدين الأيوبي.

يومَها، عاهدني بأنه سيجعلني من أجمل وأقوى الإمارات الإسلامية، وقد أوفى بعهده لي، وبنى أربع خانات للعميان، وفّرَ فيها احتياجاتِهم، وبدأ يقوم بزيارتهم عصر كل يوم إثنين وخميس، ثم بنى تكايا للصوفية، وداراً للأيتام، وأخرى للنّساء الأرامل، وأنشأ

المدرسة المظفرية، ثم جعل بيتاً كبيراً للضّيافة يأوي إليه كل ضيفٍ قادم إلى ربوعي، فكنتُ مكْمن قوةِ الإسلام، وإمارةَ السّحر والجمال في دوحته.

هذا الكلامُ، ذكّره بطقوسِ يومِ عيد المولد النّبوي، حيث رأى هولير ترتدي حلّةً من الزّينةِ بقباب مساجدها، ومساحاتِ شوارعها، وجدرانِ بيوتها وهي تستعدّ للاحتفال بيوم مولد النبي. إنها أولُ مرةٍ يشهد فيها يومَ مولد النبي في ديارٍ كوردية يحكمُها الكورد.

في الصّباح، بدأت الطَّرقات تتوالى على البابِ، وبدأت النّسوة في توزيع الحلوى والسكاكر، ابتهاجاً بهذا اليوم.

هذه الطقوسُ التي أخذَها الهوليريون عن الأمير مظفر الدين كوكبري الذي أقام المولدَ النبوي في إمارته لأول مرة وجعل ذلك تقليداً لأبنائها.

وتضحك هولير بقهقهةٍ هذه المرة، تطول بها قهقهتُها العذبةُ وهي تروي له ما يخطر ببالها مما رأت: لكنني وكما اعتدتُ على أطماع الجبابرة، رأيتني مرة أخرى في دائرة الجيوش والحروب عندما أغريتُ هولاكو الذي بدأ نجمُه في الظهور، يومَها قال لي: لو ملكتُ العالمَ كله، ولم أملككِ يا سيدتي، كأنني لم أملك شيئاً، لتعلمي بأن الأرض كلها هي صحراء خاليةٌ دونك، أنت ربيع الأرض، وجوهرة مدن التاريخ.

قاومَه أهلي ستة أشهر وهم يتحصّنون بقلعتي، لكنه كان يزداد عناداً وتهوّراً، ويقدِم على التضحية بكل ما يملك من أجل أن يحتلّني ويقيمَ مدينة آمنةً له في رحابي. وقد أوفى هذا الرجلُ بعهده معي، فأقام احتفالاً إمبراطورياً ضخماً توَّجني فيه أميرةَ الإمبراطورية المغولية المترامية الأطراف، وسيدتها الأولى بامتياز لا ينازعني في منزلتي منازع.

لكنها عادةُ أهل القوة الذين يسْتقوون من أجلي على الأقوياء، ولا يكلّل قوتَهم، ولا يثبِتُ مجدَهم غيري، فجاءني الجلائريون وقد أعقبوا الإيلخانيين، ثم تولّاني قرة قوينلو الخروف الأسود، ومن ثم أق قوينلو الخروف الأبيض، وعندما لمع تيمورلنك، أقدم بجيوشه على غزوي، ثم انتزعني من براثنه الصفويون، لكن ذلك لم يرق للسلطان سليم الثاني، فأقام معركة جالديران وسحبني من إمبراطورية الصفويين كما تُسحَبُ شعرة من

عجين. أخذتْ تُدَنْدِن ببحّة شجيّةٍ، وبدأت عيناها تترقرقان بفيضِ دمع كما لو أنه لؤلؤٌ، وصوتها يُثقَل بغصّة بكاء:

أنا هولير..

ملكة ملوك الأرض..

أميرة الأمراء..

سيّدة السّادة..

سلطانة السلاطين..

جوهرة المعمورة النفيسة..

أنا هولير..

لا أحب الضّعفاء، المهزومين، المستسلمين، الواهنين..

أحبّ أن يقاتلَ أبنائي من أجلي كما قاتل ملوك وجبابرة الأرض من أجل شعرة في رأسي..

أنا هولير، سيدةُ أمجاد حَفَدَتي.

حينها بلغَه يقينٌ أنّه لا مكان للمُتَرهّلين والمتقاعسين والعاطلين عن العمل في عُرف هولير، إنها مدينة الحراك المستمر، مدينة التألق التي لا ترضى بضَيْم.

تحثّ أبناءَها كي يزدادوا قوةً، وكلما ارتقوا إلى مفاعل القوة، كلما بلغوها، كلما خاروا إلى مفاصلِ الوهن، كلما تلاشت من ظهرانيهم كخيطِ دخان.

إنها تحضّهم كي لا يغفو لهم جفنٌ وهم يقعدون لحراستها ليلاً نهاراً، يفلَحُون تربتها، يبنون جنباتِها، يغسلُون طُرقاتِها، يقدّمون لها دُررَ الألماظ، وجواهرَ اللآلئ النفيسة، يتسابقون في نيلِ رضاها، يقدّمون فلذات أكبادِهم الثّمينة قرباناً لها.

من ناحيةٍ أخرى لفتَت انتباهَه جماليةُ الأسماء الكوردية بين الأهالي:

رندة: المتأنّقة

هيزان: قوي

جودي: قوم كوردي قديم

لاوين: شاب فتي

آزاد: حرية

سَروك: قائد

سكفان: هدّاف

رزكار: متحرّر

أياز: ملحن

بيريفان: حكم

شفين: حراسة الأغنام ليلاً

بنكين: منادي

آرتيش: جيش

ستمبار: مظلوم

ستمكار: ظالم

ليلان: سراب

شيرفان: محارب

سامان: صبر

نرفين: حقل أخضر

مجدار: صابر

نرمين: نعومة

بروين: فراشة

ريوان: مرشد

لورين: هدهدة النوم

كورتان: سراج

بربريك: الفراشة

جانة: الروح

سوزدار: معاهد

جوان كول: وردة جديدة

شار: مدينة

ريجين: طريق الحياة

ديلوك: موال

نازك: شفافة

نازدار: رقيقة

ريبر: قائد

شيروان: راعي الأسود

آراس: نهر في كوردستان

شيريهان: ملكة الجمال

جكدار: مسلح

نشتيمان: وطن

آري: ناري

شيرزاد: أسد الحرية

شهزاد: ملك حُر

كومان: ظن

لوند: شاب فتي

سيروان: متنزه

آرام: هدوء

ناندار: كريم

بيدار: متين

سوزدار: وفي

شيندار: حزين

بلند: عالي

همرين: جبل في كوردستان

دلفين: حب القلب

دلبرين: قلب مجروح

دل جان: قلب شاب

دلسوز: قلب واعد

دلدار: عاشق

دلشين: قلب حزين

داخاز: مطلب

دلشنك: قلب أنيق

دلكش: قلب مشع

جومرد: كريم

هوزان: شعر

جوان: جميل

لافا: تمني

آلجي: صانع العلم

روني: ضوء

خناف: قطر الندى

لاوين: وسيم

بهار: ربيع

هافين: صيف

بيرهات: ذكرى

دلخاز: قلب حائر

هلات: شروق

كازين: أين الحياة

كوفان: أحزان

روناهي: ضوء

شيلان: زهرة في حضن الجبل

شلير: نوع من الأزهار

ولات: وطن

نيركز: نرجس

نيجيرفان: صياد

زيان: حياة

ريبر: دليل

ديار: ظاهر

ريناس: دليل الطريق

سردار: رأس الدولة

سامان: أدوات المعيشة

شفان: راعي الغنم

دارين: محبوبة

تاليا: نور الجنة

جوليا: شباب

هشيار: صاحي

دلبرين: قلب مجروح

روناك: دمعة

سوز: وعد

جوتيار: فلاح

سه رباز: جندي

هزار: فقير

سه رخو بوه: إستقلال

شرمين: خجل

دل سوز: قلب مخلص

هيلان: رحيل

سه ركوت: تقدم

هرمان: باقي

كوهيدار: سميع

خبات: نضال

باران: مطر

هيزا: عزيز

جه كر: روح

زانا: عالم

ئيفار: عصر المساء

زين: حياة

دل شاد: قلب فرح

هيمن: هادئ

ريدير: طريق بعيد

ناز: دلال

روناك: ضوء

وهو يجوبُ جماليّةَ الدّروب، يتأمل وجوهَ الناس اليَقِظة المُمتلئة بإشراقة الحياة، يبلغه يقينٌ أنه لا أحد في هولير لا يحب هولير، يمكن لهم أن يختلفوا ويتَشَتّتوا في كل أمر، بيد أنهم عند حب هولير يلتقون من كل حدب وصوب، ويقعدون على موقف رجل واحد. يهمُّ الهوليريين أن يعملوا جيداً، أن ينفقوا جيداً، أن يصِلوا أرحامَهم جيداً، أن يقيموا طاعاتِهم جيداً، أن يجامعوا جيداً، أن يأكلوا جيداً، أن يناموا جيداً، يهمّهم أن يستمتعوا بيومهم جيداً، ولا تروق لهم كثيراً فكرة ادّخار شيء للغد.

علّمتهم هولير أن الغدَ ضبابيٌّ مجهولٌ، وعليهم ألّا يعقِدوا عليه كثيراً من أمل.

يمضون في الطّرقات بلياقة بدنية عالية، يستمتعون بذروة درجات يقظتهم دون أن يشغلَهم شاغلٌ، كلُّ شيء قابل للوقوع في أي لحظة متوقعة، أو غير متوقعة في عُرفهم، وهذا ما أكسبَهم طاقات متدفّقة من الشجاعة، والنبل، والكرم.

طُرقاتُ هولير لا تسمح لغزوِ موجاتِ الحداثة أن تجتاحَها، وتقتلعَها من جذورها، تستقبلُ حداثة العالم وهي متجذّرة في عراقتها، لذلك يرى جماليةَ البيوت الكلاسيكية، جمالية الأبوابِ والنّوافذ الكلاسيكية، حتى الأبنيةُ الحديثة تراعي حساسية هولير المِعمارية، حيث تحتل الحدائقُ، ونوافير المياه، وبقعُ الأرض المغروسةِ بالورود مساحاتٍ جيدة، لأن هولير تتحسّس من ناطحاتِ السّحاب، والضجيج، وازدحام البيوت. إنها تشرع مساحاتِها الواسعةَ لأبنائها الذين يشاركونها هذا الميل، فلا ينظرون إلى امتلاك أكثرِ من بيت واحد، وعندما يجنح أحدُهم شطرَ السعة، يُقال له أول ما يُقال: بيت واحد يكفي، زوجة واحدة تكفي، دكان واحد يكفي.. سيارة واحدة تكفي، هاتف واحد يكفي، محفظة واحدة تكفي..

* * * *

أيها العيدُ المبارك
أيها العيدُ المجيد
أقبلْ دوماً عندما تتفتح زهرةُ الربيع
وتذوب الثلوج في أعالي جبال كوردستان
تعال دوماً في يومِك المَعلُوم
واملأ قلوب الكورد في شتات الأرض بهجةً
تعال دوماً في يومك المشهود
عندما يأتي مارس، وتتربّع خيوطُ شمسه في سهول الكورد
حيث تنطلقُ صرخةٌ أولى من مولودٍ كوردي جديد، وقد وضعَتْه أمه للتو على ذراتِ تراب كوردستان الذهبية.
لا تتأخر كثيراً أيها العيد العظيم
إنه يرتجف عرياً
بانتظار أن تقوم بمباركته في صبيحة الواحد والعشرين.

نو روز، يوم جديد يسطعُ على الأمة الكوردية معلناً فاتحةَ سنة كوردية جديدة، يتجدّد من خلالها الإنسان الكوردي، ويتجدّد حلمُه الأزلي بإقامة دولته التي تلمّ شتات الكورد من كل أركان العالم. امتلأت أمسية النوروز بالشّموع على الأسطحة وفي الطّرقات، واتجه بعضُ شبابِ الكورد إلى الجبال والطّبيعة وهم يحملون الشموعَ ويوقِدُون النيرانَ، ويكتبون بالنار: آزادي كوردستان. يتحوّل ليلُ الأمسيةِ المباركة إلى أنوار، وشموع، واحتفالات، ودبكات، يتخيل معها المحتفلون جلاء الليل الذي يخيم على ربوع كوردستان. يتلهّفون لرؤيةِ طلوع فجرِ اليوم الأول من رأس السنة الكوردية، ذاك الطّلوع الذي يعزّز لديهم الأملَ بطلوع فجر اليوم الأول من دولة الكورد لتكون دولة قائمة إلى جانب بقية الدول. نكهة النوروز، رائحة النوروز، أمسية نوروزيَّة بامتياز تجلو أمام

ناظرَيه، وفي مشاعره وهو يشهد النوروز الأول في ربوع إقليم كوردستان. منذ عشرة أيام يستعدُّ الناس لاستقبال هذا اليوم المجيد الذي يشمّون من كل لحظة من لحظاته الذهبيّة رائحةَ الحرية.

مرحلة كوردية جديدةٌ تتفتح أمامه، سفر جديدٌ من أسفار الكورد،، لكنه في ذات اللّحظة تذكّر كم أن ضريبة هذا السفر قاسيةٌ، كم من أناس تحوّلوا إلى قرابين من أجل أن تبقى كوردستان حية، ولا تموت. كم من أناس شنّوا حروباً فتاكة، وعمليات إبادةٍ حتى لا يرى الكورد مثل هذا السفر.

كانت كوردستان تعني المستقبلَ، تعني شروقَ الشمس على الظلام الكوردي.

شهر مارس المجيد، شهر الفرح والتّرح، شهر الضّحكات والدموع، كل يوم من أيام هذا الشهر يعبق بذكريات وأحداث ووقائعَ تضفي هالةً من نورانية القداسة على تأويل رمزية يوم النوروز. حتى بات هذا الحدثُ الأهمُّ الأكبر يتمتّع بخصوصيّة قوميةٍ لا مثيل لها، ولا يرتقي أيُّ شخص من التاريخ الكوردي لوجه أي مقارنة بهذا الحدث الجوهري الذي لا شبيه له من حيث الشهرة، والامتداد، وسعة الشعبية.

بات يتأمّلُ كيف أن هذا الحدثَ يتفرّد دونَ غيره من سائر مناسبات الأمة الكوردية بمُهمة لمِّ شملِ الكورد من كافة أصقاع الأرض ليشهدُوا ميلادَ سنة كوردية جديدة على صعيدِ عرفاته. كيف أن النوروز استطاعَ أن يستمدّ أهميته القُصوى ودلالاتِه وقوتَه مما يتمتع به من رمزيةٍ، حتى إذا تواجد الكوردي في ديار يتم حظر الاحتفال فيها، فإنه يرفض الإذعان للأمر، ويتمرد عليه. إنه يستعد لأي مغامرة، يعرّض نفسَه لأي احتمالٍ شرط ألّا يبقى محروماً من وقفة النوروز.

في بهاءِ يوم من أكثر أعياد أمة الكورد شهرةً وحضوراً وتفاعلاً وقوة ونفوذاً وتألقاً وزهوراً، وفي النهاية باءت كل محاولات محوِه من الذاكرة الكوردية بالفشل، حيث تم الاعتداء عليهم وهم يقبلون للاحتفال يعيدهم. عندما ينظرُ إلى صفحات التاريخ يرى بأن هذه الشهرَ حفلَ بأكبر قدْرٍ من ممارسة الوحشية بحق الإ نسان الكوردي. كانوا

ينصبون له كميناً، وفخاخاً ليصطادوه وهو يُـيَمِّمُ وجهه شطر النوروز فجراً، يعتقلونه بتهمةِ أنه يمارس طبيعة شعوره القومي، بيد أنه كان يزداد، ويزدان إصراراً على عدم السماح لأحد كي يقتلعه من جذوره. عبر السنوات، ترسّخ لديه اعتقادٌ أن النوروز يقترنُ بالقومية ذاتها، وأي مساس بالنوروز هو مساس بالهوية الكوردية، حتى أمسى الاحتفالُ بالنوروز بمثابة الاستمتاع بممارسة خصائص نفحات المشاعر القومية.

في الماضي كان يتحسّر وهو لا يرى أبناء جلدته يعقِدون حلقاتِ الاحتفال والرقص في أعيادهم الوطنية على مرآة من وسائل الإعلام بشكل علاني، حينما كان يرى الناس يرقصون ويعبرون عن مشاعر الابتهاج في مناسباتهم الوطنية والقومية.

الآن تتدفق إلى نفسه مشاعرُ النشوةِ وهو يرى المشهدَ ماثلاً أمام عينيه، حيث يخرج الناس وهم يتأنّقون بمفاخرِ بديعِ أناقةِ زي البيشمركة، يتوافدون شطر احتفالات النوروز الوطنية الكبرى ويتشاركون في حلقات الرقص والدبكات التي يزدان بها التراث الكوردي. وتأتي المغنيات الكورديات لتصدحْن بشدوِ صوتهن العذب بأجملِ ما أبدعه الإرث الكوردي من بديع اللحن.

للقيام باستعدادات الاحتفالِ بالنوروز طعمٌ مختلف، حيث تقضي التقاليدُ الكوردية أن يجتمعَ الناس أمسية النوروز، ويشعلوا ناره كرمزٍ للحرية مثلما سبق لـ (كاوا الحداد) أن فعل. عندما يتأملُ هذا الرمز، ينتابه إحساسٌ بأن الفكرةَ النوروزية تعتمد في جوهرِها على تفكيك مركَّب الدونية، وتحليل النزوع النرجسي الذي يتطوّر بالإنسان حتى يتكلّل في ذروة مدارجه عندما يبلغ هذا الإنسانُ مرحلةً يستمد فيها حياته من موت مواطنيه كرداً وعجماً.

يتعرض الملكُ في هذه الحكاية لداء يستعصي علاجُه، وبعد محاولات شتى يتوصّل أحد الأطباء إلى علاج يكمن في دهن موضع الداء من جسد الملك بمخّ إنسان.

يتخلى الملك (الضحاك) هنا عن كل نزعاته الإنسانية، ليقتصرها في نفسه، ويقبل أن تستمر حياته كلَّ يوم على حساب حياة أحد مواطنيه.

يأمر حاشيته بتنفيذ هذا الدواء على الفور، وتبدأ الحاشية في النزول إلى الطرقات كذئابٍ مسعورة لالتقاط الناس وجلبهم لقطعِ رؤوسهم واستخراج المخ ليُدْهَنَ جسدُ الملك به كي يستمر في الحياة يوماً جديداً. مع مرور الأيام، ذاعَ هذا الواقع في سواد الناس الذين باتوا يحبسون أنفسهم في البيوت، ولا يخرجون إلّا لأمور اضطرارية.

حينها خطر ولأول مرة لشاب يدعى (كاوا الحداد) أن يتمرّد على الملك ويسعى إلى قتله كي يتحرّر الناس من سجونهم في البيوت، ومن شبح الاختطاف الذي يطالهم واحداً تلو الآخر، وقد تحول أزلامُ الملك إلى اشباح تمتدّ أياديهم لتخطف الناس من الطرقات، ومن أعمالهم، أو بيوتهم.

يجتمع هذا الشاب مع ثلة من الناس، ويخبرهم بأنه عازم للذهاب إلى الملك لإنقاذ حياة مَن تبقّى من الناس، وإذا نجحت خطته في القضاء عليه، سوف يشعل ناراً كي يقدموا جميعاً ويعلنوا الحرية، وإن لم يشعل النار، فذلك يعني أن أمره قد انكشف، وتم اعتقاله. عندما فرش الليلُ جدائلَه على الطرقات، تهيَّأ الشاب للزحف شطر القصر، ومع الوقت وحلولِ السكون، ولج القصرَ خلسة، حتى بلغ الملك وتمكّن من قتله

عندئذ خرج، واعتلى موضعاً مرتفعاً وأشعل النارَ، بلغّت الإشارةُ إلى رفاقه بأن العملية تكللت بالنجاح، فتقدّموا إلى القصر معلنين تحرير بلادهم من طغيان الملك. من ذلك الوقت والكورد يتخذون من هذا اليوم ميلاد سنة جديدة لأنه اليوم الذي تم تحريرهم فيه من الطغيان، وبات هذا التاريخ يشكل منعطفاً انتقالياً أمام الأمة الكوردية، تاريخها ما قبل النوروز، وتاريخها ما بعد.

في أمسية النوروز، قامت آفان بتحميم الأطفال كي لا يناموا باكراً، وأحضرَت ما جلب من أنواع الطعام والشراب للاحتفال. سهروا حتى وقت متأخّر من الليل حيث نام الأطفال، ولبث برفقة زوجته يحتفلان بهذه الأمسية المميزة.

صعدا إلى السطح يشهدان انطلاق الألعاب النارية ابتهاجاً ببدايات استقبال صبيحة النوروز حيث يتحول الظلام إلى ألوانٍ قوسِ قزحيةٍ، وتمتلئ الأركان بأصوات الألعاب النارية، والأهازيج.

في الصباح، أنهضت الأطفالَ باكراً وألبستهم مفاخرَ الثّياب التقليدية الكوردية، ثم راحت تتأنّق ببديع أناقةِ الزي الكوردي الذي يُظهر سحرية أنوثة المرأة الكوردية، إذ لم يكن مسموحاً لهم ارتداء ثيابِ البيشمركة، أو ثيابٍ تمثل ألوان العلم الكوردي الذي يرمز إلى قوميتهم التي ينتمون إليها.

بدت الطرقاتُ خالية من حركة النّاس، وأبوابُ المحالّ مغلقةً، حيث استقطبَت الطبيعةُ حشود الناس إلى أحضانها في مولد يوم مشهود يحدث مرة واحدة على رأس كل سنة كوردية. حتى السياراتُ بدت نادرةً في الطرقات، فاضطرَ للبقاء نحو نصف ساعة ريثما عثر على سيارة وطلب من السائق أن يوصلهم إلى موضع يحتفل فيه الناس.

قال له السائق بأن الأماكن متعددة، منها بعيدة ومنها قريبة، أما البعيدة فيتعذّر الذهاب إليها بسبب الزّحام، ويستحسن أن يذهب إلى مكان قريب من طبيعة كوردستان لأن (القربالغ) الزحام يكون خفيفاً، ويمكن لهم أن يعثروا على سيارة تعيدهم بِيُسْر.

عندما وصل موضعاً من الطبيعة اتخذه الناس للاحتفال، رأى نفسَه في حضرة لوحة كرنفالية اكتشفَ من خلالها كم أن الطبيعة تتزيّا بلمسات جمالٍ خلاّب عندما يحتفل في أحضانها الناس، كم أنها تبدو متألقة ومتأنّقة وزاهية بهؤلاء الناس، تبدو بأنها تتفتّح حتى تأخذ أوجَ إشراقتها وهي تحتفل معهم.

ها هي تلقائيّة الإنسان الكوردي تتجسّد بكامل مزاياها أمام عينيه، ها هو يعبّر عن مقدار تعلّقه بالحرية، ومقدار حبه لطلاقة الطبيعة.

حينئذ لفت نظرَه رجل عجوز يجلس بجانب خيمة يتحدث مع شاب في مقتبل العمر عن أمثال الشعب الكوردي.

قالت آفان وقد تمهّلت بها قدماها: لنسمع ما يقوله هذا الرجل.

تقدم إليهما مستأذنا إذا كانا يسمحان لهم بمشاركتهما الجلوس.
حينها نهض الرجلان ورحّبا بهم بحرارة. بعد جلوسهم بقليل، خرجت امرأة من الخيمة وراحت تتبادل القبلات مع آفان مرحّبة بها وما لبثت أن شاركتْها الجلوس.
قال الرجل الذي كان يتحدث عن الأمثال الشعبية عند الكورد: من أين أنتم؟
قال: من سورية. كرّر ترحابه مبتهلاً إلى الله أن يطفئ النار التي نشبت في أرجاء ديارهم ويعيدهم إليها بسلام. ثم عقب الرجل الآخر: ما تمرون به كاكه، مررنا به من قبل، الانفلاتُ الأمني أكثر صعوبة من الحرب، في ظل الانفلات الأمني يصبح كل شيء مستباحاً، أنا زرت سوريا منذ عشرين سنة، كانت جميلة والحياة فيها غير مكلفة.
بعد قليل جاءت امرأة أخرى حاملةً سفرة عليها بعض الفاكهة والحلوى والمكسرات.
عاد الرجل إلى حديثه عن الأمثال وأهميّة دلالتها بالنسبة للمجتمع الكوردي، وهو يصغي إليه راوده إحساس بأن مأثورات المجتمعات ما هي إلا ملخصاتٌ تعبّر عن كينونتها.
قال الرجل بأن الكورد أنتجوا منظومة من الأمثال التي بقيت في دائرة الشفوية، ولم يتم تدوينها: عندما نردّد بعض الأمثال الكوردية التي يتناقلها المجتمع الكوردي شفاهاً، تجلو فيها خصائصُه، حيث يمكن لسامعِ هذا المثل أن يلتمس شيئاً من التّعرف على طبيعة ومقومات هذا المجتمع بصفة عامة. هذا المثل الذي يبيّن تشابه الكرد أينما كانوا. ثم استأنف الرجل يقول: الكردي الذي يعيش في باريس، يشبه الكردي الذي يعيش في قامشلو، وهو يشبه الذي يعيش في أصفهان، وهو يشبه الذي يعيش في ماردين، وهو يشبه الذي يعيش في هولير.
ثم تناول حبّةَ موز وبدأ يقشّرها مُردِفاً: يقول مثل كوردي
(أن يأكلك أسد أفضل من أن يحتال عليك ثعلب)
في هذا المثل يظهر أن المجتمع الكردي يدعو إلى اليقظة، وألّا يكون المرء مغفلاً، فيقع ضحية غفلته، ولذلك يدعو إلى المواجهةِ حتى النهاية دون الركونِ إلى اليأس.

كذلك يبيّن هذا المثل بأن الحياة تخبِّئ النقيضين، وعلى الإنسان أن يدرك ذلك ولا يعتقد أن الحياة ستمضي به على وجه واحد.

يقول مثل آخر: (ما من أحراش دون ثعلب يعيش فيها).

وفي ذات المفهوم يقول مثل آخر: (الدنيا ملك الشجعان).

يتغلغلُ المثل الشعبي الكوردي في بنية المجتمع ويعطي صورةً جليّة عن شخصية الإنسان الذي واجه صعوبات شتّى عبر مختلف الأحقاب الزمنية، واستطاع أن يواجه ويثبِت حضورَه وتواجده.

ثم أردف الرجلُ يقول وهو ينظر إلى الشاب: هناك مثل آخر يدعوهم للتفاعل مع الواقع: (القلوب الرقيقة لا تبلغ الآمال).

أمّا عن أهمية وحدته وتماسكه يسري مثَلُنا الشعبي القائل:

(اتفاق النمل يجرّ الجبال).

ذلك أنّ أشد ما يلقاه الكورد هو من هول التّفرِقة، وإنهم لن يكونوا أقوياء بأي وجه إذا تشتت بهم منعرجات الطرق، وعندما يتكاتفون معاً، فقوة العالم لن تجسر على قهرهم.

يروي مثَلنا بأن الإنسان الكوردي صاحب موقف، ويعزز هذا الانتماء لديه المثلُ القائل:

(كن ديكاً ليوم واحد، أفضل من أن تكون دجاجة لسنة كاملة).

أمثالنا هي مدرستنا الشعبية، تعلمُنا الحكمةَ، وتعزّز في نفوسنا خبرات وتجارِب أسلافِنا، إنها بمثابة منارات تنير لنا دجى الليل.

يتدخّل مثلنا الكوردي في مختلف شؤوننا الحياتية ويحضُّنا على النشاط والعمل. يوصينا قائلاً:

(تراب العمل ولا زعفران البطالة).

(إن لم تكن ورداً، لا تكن شوكاً).

(لا تستخدم يدي في قتل الأفعى).

(كيس اللصوص مثقوب).

(من يجلس قرب الحداد، يعرض نفسه لشرارة النار).

هذه الأمثال بمثابة ملخصات استطاع الإنسان الكوردي أن يستخلصها من وقائع حياته وتجاربه:

(الأعور بين العميان ملك).

(ابن آدم مثل النمل ضعيف جبار).

(أنا أمير وأنت أمير.. مَن يسوق الحمير).

(البيت الضيق يسع ألف صديق).

(لا جبال عالية بلا ثلج، ولا وديان عميقة بدون ماء).

هناك أيضاً بعضُ الأمثال التي ترد على شكل إشارات وتحذيرات مثل:

(قمم الجبال لا تلتقي، لكن العيون تلتقي).

(مسد القنفذ على أشواك فراخه فقال: كم هي ناعمة).

(إذا كان اللص من أهل البيت، فلا داعي لغلق الأبواب).

(هذا العجين يحتاج إلى ماء كثير).

(عندما يصيح الديك في غير أوانه، يُذبح).

(لو لم تمد يدك إلى الموقد، لما احترقتْ).

(أعطِ الخبز للكلب، ولا تعطه لناكر الجميل).

ثم نظر إلى آفان وقال: نتعرّف على منزلة المرأة أيضاً عن الكورد في هذه الأمثال يا بنتي لأن المجتمع الكوردي يكنُّ احتراماً خاصاً للمرأة التي شاركته معاناة الحياة ومشاقها، وصبرت على الأهوال حتى توجَّها الكوردي بـ أميرة الصبر والجلد، جاءت الأمثال منبّهة إلى مفهوم الإنسان الكوردي للمرأة، مبيّنةً منزلتها الرفيعة، حتى قال في حقها:

(المرأة دعامة المنزل).

(المرأة الفاضلة هبة عظيمة، والمرأة السيئة قيد ثقيل).

(المرأة حصن، والرجل سجين).
(الرجل نهر، والمرأة بحيرة).
(الرب خلق المرأة، والمرأة صنعت الرجل).
(لا تنظرْ إلى المرأة، بل انظر إلى أقربائها).
(المنزل الغني بالمال يمكن هدمه، أما المنزل الغني بالأبناء لا يمكن هدمه).
(المنزل الذي فيه طفل لا يدخله الشيطان).
(الأطفال فاكهة المنزل).

لم يكن يعلم بأنه سيلتقي بأناس يجسدون قممَ الارتقاء في مدارج النزوع الإنساني، هكذا ينتابه شعورٌ مطلَق بالأمان وهو يتعرّف على طبائع ونزوعاتِ الناس الذين لا يعنيهم شيءٌ بقدر ما يعنيهم أن يستمتعوا بممارسة مزايا عذوبةِ مشاعرهم الإنسانية ورهافتها.

باتت الإقامة في هولير تقدم إليه مذاقاً خاصاً للحياة. كل شخصٍ يسعى إلى تقديم حالة إنسانية حتى من خلال كلمة يلفظُها، وهذا ما لفت نظرَه بقوة وهو في ظَهْرَانَي إيقاع هذا المجتمع.

أتاحت له الشهورُ الماضية أن يلتقي بأناس تميّزوا عن سائر الناس الذين التقى بهم، أحياناً يبدو له أنه ينظر إلى قدّيس ولذلك كانت الدموع تُذرَف من عينيه وهو يكتشف قوةَ إنسانيّة الإنسان في هذه البقاع وقد تحولت أمام ناظرَيه إلى منارات إنسانية علّمته كثيراً. حينها تشكّلَ لديه اعتقادٌ بأن تجربة التّعرض لأفتك أسلحة الدمار الشامل بحق الطفل الكوردي قبل كل شيء، أسّست لحساسيةٍ ثقافيةٍ إنسانيةٍ تمتعَت بسعة أفقها، أسهمت بفعالية بالغة لحساسية ثقافية وإنسانية في المخيّلة الطفلية الكوردية، هؤلاء الأطفال الذين تحولوا إلى آباء، وإلى طيف اجتماعي كوردي معاصر.

وهو يتأملُ الناس يحتفلون بهذا العيد الرمزي للحرية، تناهى إليه حدثٌ قريب وقعَ منذ أيام عندما فرح الكورد في العالم كلّه فقط لأن البعض اعترف بأن الأطفال والنسوة

الذين تعرّضوا لعمليات الأنفال وأفتك الأسلحة الكيماوية كانوا ينتمون إلى الإنسانية، وأن ما مورس بحقهم هو جريمة بحق الإنسانية.

حينها أدرك قيمةَ أن يقدّم الإنسان ورداً لمن يقذفه بالشوك، وهو يرى أن التاريخ البشري لا يسجل أن شعباً تعرض للتنكيل، والمآسي، وألوان القهر كما تعرض الشعب الكوردي عبر مراحل التاريخ، ولا يسجل هذا التاريخ أن شعباً كهذا استطاع أن يبادلَ البشرية قاطبة بصفحات التسامح، وتقديم كنوز الفكر، وجواهر الآداب، ولآلئ الفنون، ومتاحف الآثار، ونماذج راقية في تقديم مفاخر شخصيات ومواقف إنسانية وسياسية.

إنه أكثرُ شعوبِ الأرض تعرُّضاً للسّطْوِ على ميراثه الإنساني، وما يجعله ينظر بدهشة هنا أن الكوردي ما زال مصراً على الركون في ظلمته، في شبه عزلة صوفية عن نسيج العالم.

يومها قال لزوجته: هكذا دوماً، يصل الكورد متأخرين.. أعني: متأخرين جداً.

قالت: ربما لأنهم نهلوا الكثير من الصبر، ربما لعمق الحكمة، ربما لطيبهم الزائد عن اللزوم. لكن، ذلك أفضل للمرء من ألّا يصل أبداً، وكم من أناس لم يصلوا البتة، كم من أناس لبثتْ قضاياهم في دياجيرالظلمات

قال: رغم كلِّ تلك الأهوال التي لحقَته ما يزال يتحصّن بالصبر، بروح الحكمة، بجَبْل الطيب الكردي. يلحقُه الأذى حتى في ركونه تحت الأيدي، يقبل ألّا يتحدثَ لغته، يقبل أن يهجُر تقاليده، أن يتجنّب تسمية أطفاله أسماءه في كثيرٍ من الديار، بل يحظر عليه ارتداء حتى ثوب يرمز إلى علم هويته القومية فقط لأنه طيب للغاية و لا ظهر له لقد سطُوا على أراضيه، ولم يفعل العالم شيئاً.

قتلوا أطفالَه بقسوة، أهانوا شيوخَه، اصطادوه في الطرقات، في الخيم، في البيوت بدون أن يرتكب أي جناية سوى جنايةِ أنه كوردي.

قالت وقد تقدمت بهم خطواتهم صوب حلقة دبكة من التراث الكوردي : انفجرت السيمفونيات الكوردية كبراكين تدوي في عمق الإنسان.

قال: بيد أن الحصار كان أكثر تفاعلاً للحد من سعة الانتشار. ثمّة موسيقى كوردية بعذوبةِ موسيقى (نيكوس) بعبقرية موسيقا موسيقى (باخ) ثمة أساطين، ثمة ملاحم أدبية وفكرية وفلسفية وإنسانية اغتنى بها التراث الإنساني.

دوماً الخوف يا عزيزتي من ظهور الكوردي في الواجهة، لأن هذا الظهورَ بمثابة خطوة أولى للمُضيّ شطر بلوغ حقه كإنسان في إقامة دولته، في انتشار لغته لتغدو لغةً إلى جانب لغات العالم الحيّة، لترجمة آدابه، لظهور عبقرية الكورد عبر العصور البشرية، حينها يكون عيباً على الضمير الإنساني أن يستكثر عليه حتى ما يمكن تسميته بحكم ذاتي في خيمة متواضعة من هذا العالم تعود أحقيتها إليه عبر التاريخ، وكأنها جريمة عظمى يرتكبها الكورد.

هنا.. في كوردستان يملكُ الكوردي أن يتحدث لغته، يملك أن يغني أغنياتِه، يملك أن يُظهر حجم طيب الإنسان الكوردي النبيل الذي يذهب مع السلم إلى آخره.

يتحدث وزوجته تنصت إليه: أجل يا عزيزتي هناك أناس في هذا العالم ما زالوا حتى الآن يخطّطون لإخراج الكورد حتى من إقليمهم الصغير المتواضع هذا، ودفعِهم للتشرد أسوة بإخوانهم في الأشطار الأخرى من كوردستان، من جهة، ومن جهة أخرى كي لا يكونوا عوناً لبعضهم بعضاً في أزمات الزمان كما هو واقع معنا الآن.

هناك أناس يخططون لأن يحرضوا الكوردي على الكوردي حتى يستمتعوا بالتّفرج عليه وهو يفتك بعضه بعضاً، يراه وهو ينهار من أعلى شموخه على مرآة من العالم، بيد أن التجارب كانت له بمثابة حصانة جعلت هؤلاء يركنون إلى هوة يأس.

إنها المرة الأولى في التاريخ التي وقف فيها المجتمعُ الكوردي هنا أمام امتحان إنساني قومي تاريخي تجاه أكرادٍ لاذوا بهم من الجناح الغربي لكوردستان حاملين فلذات أكبادهم من هول حرب أهلية فتاكة بأوجه مختلفة.

وقف الكورد هنا إلى جانب مؤازرة أخوتهم وبني جلدتهم وقومهم ولسانهم، وقد لاذُوا بأرضٍ كوردية يحسبون أنفسهم مواطنين فيها، لا لاجئين، ولعل أكثر ما يثير استياءهم

هو شعورهم بأنهم لاجئون. دعَتْهم إحدى العلائلات لتناول بعض المشاوي، فلبُّوا الطلب مستمتعين بطقوس نوروز، حينها قالت آفان بسخرية: أرتْنا ما سُمِّيت بثورات الربيع العربي أن غالبية هؤلاء الذين وضعوا مخططاتٍ وقوانينَ ومراسيمَ لاضطهاد الكورد بحجة الخوف على البلاد والعباد، كانوا أول مَن أسهم في إلحاق الأذى بالبلاد والعباد معاً. ثم أردفت تقول: أثبتت التجربةُ أن الذي لا يحترم بلاد غيره، لايحترم بلاده، الذي لا يغير على بلاد غيره، لن يكون بوسعه أن يغير على بلاده، الذي لا يحترم خصائص القوميات، لن يكون بوسعه أن يحترم خصوصية قوميته.

لا أعرف ما الذي يجيزُ للإنسان أن يسلِبَ إنساناً آخر لغته، خيمته، إرثه، انتماءه، وكيف يصدّق أنه يلقى احترام الآخرين، بل حتى احترام زوجته، وولده، ونفسه؟

صمتَتْ قليلاً ثم أردَفَتْ تقول: لعلّ من أقوى إيجابيات ثورات الربيع العربي أنها أسقطت أوراق هؤلاء، وجعلتهم كشجرة ساقطة الأوراق في مهب ريح آخر خريف.

خيّم صمت، وراح يفكّر بأن هذا كله قد لا يُهِم كثيراً بقدْر ما يهم المستقبلُ الذي يشرف، أو يتهيأ الكوردُ لفتح باب جديد إليه، ومدِّ خطوة أولى شطر المدرج الأول نحو عصرٍ يأملون أن يكون أقل طغياناً، أن يرتقي درجة شطر شيء من طبيعةِ وتلقائية الإنسان الطبيعي.

الآن.. بعد سنوات عجاف طويلة، يقرّ البعض بأن ما تعرض له الكورد من عمليات سحق و(تطهير) عرقي، وإبادة جماعية، ومحاولات محوه من الوجود من خلال أفتك أسلحة دمار شامل يُعد جريمة ضد الإنسانية.

رأى أن هذا الموقف يحتمل أوجهاً من التحليل، فهو في وجهٍ يشير بأن الكوردي يطلب من العالم أن ينظر إليه على أنه إنسانٌ، وأن الأطفال الذين قضوا بالأسلحة الكيماوية وإن كانوا أكراداً بيد أنهم كانوا ينتمون إلى الإنسان، وأن كرديتهم لا تُسقط عنهم مزايا إنسانيتهم، وأن الذين نجوا وقد لاذوا أفواجاً وجماعات بصقيع العراء، لهم حق في أن يلبثوا أكراداً، ويزدادوا ثباتاً في كورديتهم، وهذا كل شيء.

ها قد ظهر مفهوم الجينوسايد الكوردي وهو في كوردستان، وهي كلمة مخيفة بالنسبة إليه، تعني فيما تعنيه الإبادة الجماعية لمجموعة إنسانيّة لأسباب شتى، تتألف من مقطعين، الأولى(جينو) نوع مشتقة من اللاتينية **genus** جيناس، والثانية مذبحة **caedes** كايدس.

أثبت له ذلك أنه لا أحداً يمكنه العيش في منأىً عن حميمية العائلة الإنسانية، ومشاعرِ التكاتف الإنساني التي لا أحد في هذا العالم يمكنه أن يكون بغنىً عنها.

وليس بوسع أحدٍ بأي وجه أن يسعى إلى فصل التاريخ الكوردي من سيرورة الأحداث والوقائع الزمنية، لأنه يشكّل صفحة من دفتر التاريخ الإنساني.

هذا الإنسان الذي ما يزال يعاني الشتات في الأرض دون أن يستقر في دولته رافعاً علم هذه الدولة في ربوع الدولة الكوردستانية التي تلمّ شتات االكورد، فتجعلهم أكثر تركيزاً في كورديتهم، وبالتالي يعطون صورة جلية عن خصائص ومزايا الأمة الكوردية.

ثم راح يتأمل كيف أن هذا الشتات أدى إلى تشتت الإمكانات الكوردية في شتى المجالات الإبداعية، والفنية، والاقتصادية، والسياسية، والإعلامية، والاجتماعية، وفي كثير من الأحيان تجرَّدت من فحوى كورديتها، حيث لحق الويل بالكورد لا لشيء سوى لأنهم كورد، ودوماً كانوا يقدمون لآلئ وجواهر ونفائس الإبداع إلى العالم دون أن يستسلموا، أو ينتابهم يأس.

عندما يستذكرُ كل تلك الصفحات التي يندى لها جبين الإنسانية، تنتابه حالة مقت لكلّ شيء له صلة بالسياسة، هذه السياسة التي تبرّر لنفسها حتى قتل الأخوة، بات يشعر بشيء من القرف وهو ينظر إلى ديكورات هؤلاء المقيتة التي تهيئ لهم أنهم تعالوا عن الناس، وفي سبيل ذلك يلحقون الويلات حتى بشعوبهم.

حينها بدأت تتبيّن له مرارةُ حقيقة عدم تأهّلِ هؤلاء لمراحل القيادة الفعلية، لكنه عاد وقال لآفان: علينا أن نكون سعداء، ونحن نرى بأن الكورد هنا استطاعوا أن يصلوا إلى نتيجة مفادها أن لا أحد متأهل لتمثيل المجتمع الكوردي أكثر من سواد شعبه، وأطفاله

الذين قضوا تحت وطأة الغازات السامة، وهو لا يسمح لأحد بأن ينصب نفسه سيّداً عليه.

هكذا انفجرت مليونية الكورد المزلزلة سنة ١٩٩١، كإشارة بأن هذه المليونية متأهبة للانفجار في أي لحظة، وفي وجه أي جهة يمكن لها أن تشكل تهديداً لأمنه القومي.

هنا.. في هولير أمكنه التعرفُ على الملامح الكوردية عن قرب أكثر من أي بقعة أخرى من العالم، ذلك أنه لأول مرة يلج أبواب مدينة كوردية خالصة، وهي أول مدينة كوردية تتمتع بمزايا كورديتها ضمن مساحة الإقليم الكوردي الذي يتألف من ثلاث مدن رئيسية هي العاصمة هولير سليمانية دهوك.

هنا.. في هولير مدينة الكورد الروحانية بامتياز حيث تتيح له أن يستمتع بقيمة عذوبة وعفوية الجمال الكوردي سواء في الإنسان، أو في الطبيعة، أو حتى في عذوبة إيقاع الحروف الكوردية التي هي أعذب من كل ما استمع إليه من موسيقى.

ليس بوسع المرء هنا سوى أن يزداد يقيناً بأن الكورد هم من الشّعوب العظيمة في هذا العالم، ومن الشعوب الأكثرَ صبراً وأكثرَ حكمة، وكذلك الأكثر تعرُّضاً للقسوة وألوان الاضطهاد على مدى مراحل التاريخ الإنساني، و ما زالوا حتى الآن يقدمون الزهور للعالم، يقدمون ابتساماتهم، وتسامحهم العظيم، وموسيقاهم، وآدابهم.

لقد أعطوا العالم كلَّ شيء دون أن يعطيهم العالم شيئاً، وما زالوا يصرون أن يقدموا للعالم كل شيء وهم يوقنون أن العالم لا يقدم لهم شيئاً.

استطاع الإنسان الكوردي أن يوظِّف هذه القسوة اللا إنسانية التي تعرض لها، لتعزز في كوامنه قوة نزعة إنسانية جديدة يتحصن بها.

جعلتْه في حالة تميز إنساني بالنسبة لكل شيء، وما لبثت أن قفزت تلك الحمامة إلى مخيلته حينما كان يمشي في (البازار) في الشهر الفائت، وقد طارت حمامة لتحطّ في منتصف الطريق، حينها وقف يتأمل ما سيحدث، توقفت السيارة الأولى في أرضها منتصف الطريق، وقد مشت الحمامة حتى استقرت تحت جسم السيارة بالضبط،

توقفت السيارات الأخرى التي تقف خلفها حتى أصبح ما يشبه أزمة سير، ورأى رأي العين أن السائق نزل من سيارته وتحايل على الحمامة بمحاولات شتى وهي متشبّثة بالبقاء تحت السيارة، وعندما علم السائقون ذلك، انتظروا حتى نجح الرجل أخيراً في إخراج الحمامة. لم يدعها على الرصيف ويمضي، بل حملها وأطلقها في الفضاء لتطير، ثم مضى وتبعَته السيارات الواقفة.

هه وليرِ مدينة الحب والحمام، حيث تزدان حدائقُها وبيوتها وطرقاتها بطيور الحمام، وهذا يرمز إلى حجم قوة السلام الذي يتطلع إليه سكانها.

هكذا عندما استأجر البيت، رأى حمامتين في عشّ، وكأن عش الحمام هو ركن أساس من أركان أي بيت هوليري.

يتأمّل جمالية الرّقص الكوردي على إيقاع الطّبل والزرنة الذي تؤديه صبايا كورديات وهن في أوج أناقة زيهن الكوردي الأصيل.

وتأتي المغنيات الكورديات لتصدحن بشدو صوتهنّ العذب بأجمل ما أبدعه الإرث الكوردي من بديع اللحن في يوم أكثر ما تتجسّد فيه مظاهر الكرم الكوردي، حيث رائحة الشواء تملأ الطبيعة برمتها، وتحضر كل ألوان الطعام والشراب والفاكهة والمكسرات في موائدَ مفتوحة دون حرج، إذ يمارس الكوردي بطلاقة عفوية طبيعته الكوردية.

هنا يمكن أن يجلوَ للناظر أنه لا كوردي لا يعيش حالةً بطولة حقيقية في داخله.

كلُّ شخص هنا هو بطل في شخصيته، بطل في مهنته، بطل في تواصله الاجتماعي، بطل في كورديته.

من الصعوبة أن يجد المرء هنا أناساً مهزومين، أو عَدَميين.

لقد أثبتتهم المأساة في صميم واقعيتهم، رسخت أقدامهم بقوة في تربة أرضهم.

* * * *

انفرجَت أساورُ رموشِ عينيه المثقلتين بتؤدة، إثرَ رفيفِ لمساتٍ ناعمة على مساحة جبهته. شهق نفساً بعمق، وما لبث أن انتفض جسدُه ليستويَ قاعداً، بيد أن وخزة ألم شديدة أعادته إلى حيث ما كان عليه مستلقياً بمفاصل مُفكّكة على ظهره في السرير.

ثم ما لبثت أن صدرت من صوته الكسير ترنيمة مرتعشة:

هه

هـ

هـ

و

و

ل

ل

ي

ي

ر

ثلاثةُ أيام مضت عليه وهو مستلقٍ على ظهره في السرير بسبب ألم حاد اجتاح عمودَه الفقري بشكل مباغت، ولم يعد قادراً على المقاومة رغم أن آفان أحضرت له بعض العقاقير المسكنة ذات المفعول الجيد.

عندها لم يبق أمامه غير أن يعرِض نفسه على طبيب، فراحت زوجته تحضر سيارة أجرة، وشرعت تعينه برفقة السائق حتى جلس في المقعد الأمامي.

صعدت مع الأطفال، وانطلقوا جميعاً إلى حيث عيادة طبيب اختصاصي.

عندما أجرى الطبيبُ كشفَه الأولي، نصح أن ينتقل إلى مشفى خاص لأن حالته تستدعي إجراء عمل جراحي فوراً، وأي تأخير سيفسح المجال أمام سعة تمكّن الحالة

من مفاصل الظهر بشكل جيد، حتى تأخذ امتدادها، وتستفحلَ بمفصل الظهر بشكل جيد، وتتطور إلى (ديسك). ثم قال وهو يتجه بالكلام إلى زوجته: العمل الجراحي الذي سأجريه مدام من شأنه أن يخفف عليه حدّة الألم من جهة، ويحدَّ من رقعة اتساعه من جهة أخرى، ثم تأتي الأدوية لتتفاعل في عملية شفائه واجتثاث مسببات مقدمات (الديسك).

أمام ذلك لم يبق أمامه سوى أن يتجه على الفور إلى المشفى الذي سيوفّر له حالة جيدة من التّهيئة البدنية والنفسية حتى صباح الغد، حيث سيجري له تحليلاتٍ لازمةً، وعندما تحل الساعة التاسعة، سيكون هناك، وسيباشر في إجراء العملية في التاسعة والنصف، وستستغرق معه نصف ساعة فقط. ثم قال مطمئناً إياه: على العموم أنا لا أُسمّي هذه عملية بمعنى الكلمة، يقولون عنها عملية لأنها تدور ضمن عمل جراحي، تماماً كخلع السن، أو إخراج معدن انغرز في الجلد. هذا الإجراء بتقديري لا يتمتع بأكثر من نسبة الربع من العملية الجراحية المتكاملة.

قال: لكنني لا أطيق البنج، ولم يسبق لي أن جرّبته.

قال مبتسماً: ألم أقل لك بأنها ليست عملية متكاملة، لذلك حتى البنج يمكن ألّا يكون متكاملاً، لو شئت سأقوم ببنج موضعي يشمل النصف الأسفل من جسدك فقط.

ثم أعطاه إحالة كي يتم بموجبها استقباله. عند وصوله، استقبله المشفى، وأخذه أحد العاملين إلى حيث الغرفة التي يقيم فيها، ويتلقى فيها علاجه.

في المساء نصحَته إدارة المشفى ألّا ينام الأطفال هنا تجنباً لأي فيروس يمكن أن يصيبهم بسبب عدم تمتعهم بمناعية كافية مثل الكبار، ولكن يمكن لزوجته أن تنام في ذات الغرفة إن شاءت.

عندئذ اتفقا أن تذهب بهم إلى البيت، وتأتي صباح الغد.

كان الطبيب دقيقاً في موعده، حيث أدخله في الموعد إلى غرفة العمليات، وعندما رآه مرتبكاً بعض الشيء قال: إنها بمثابة نزع شوكة من جلد.

قال: لكنني أتحسس من البنج الذي لم يسبق لي أن جرّبته.
قال: لا توجد مشكلة عزيزي، يمكنني أن أجريها بتخدير موضعي يشمل النصف السفلي من جسدك فقط كما سبق وأعلمتك إن رغبت في ذلك.
قال: نعم أريد التخدير الموضعي.
هزّ الطبيب رأسه وهو يقول: سنتبادل أطراف حديث، وقبل أن ننتهي، ستكون العملية انتهت، هه عزيزي، هل أنت مستعدٌّ الآن، وإن لم تكن مهيئاً، يمكن أن نؤجل ذلك إلى ساعة، أو ساعتين، أو إلى المساء. ما يهمني أن تبقى مهيئاً للعملية كما كنتَ قبل أن تدخل هذه الغرفة.
قال: لا شيء، فقط لم أكن أتخيل بأنني سوف أدخل ذات يوم إلى غرفة عناية مشددة.
قال: لا مكان أكثر أماناً من غرفة العناية المشددة في العالم كله، هنا كل شيء يمضي بشكله الطبيعي بحسب ذبذبات تظهر على الشاشة.
الآن لدي إشارة بأنك من الناحية الصحية مهيَّأ تماماً لإجراء أصعب عملية يمكن أن تُجرى لإنسان.
كل شيء على ما يرام، ما يلزمني فقط هو أن تستسلم لحالة الاسترخاء.
قال: هل يمكنني الاستعانة بموسيقى يمكنها أن تعينني على ذلك، على العموم هي موجودة في جهاز موبايلي عند زوجتي التي تنتظر في الخارج. عند ذاك طلب الطبيب من أحد معاونيه أن يحضر جهاز هاتفه، فتناوله وراح يضع على مقاطع من موسيقى المونامور.
بدأت الموسيقى تفعلُ فعلها منذ شذراتها الأولى، حيث أحس بحالة من الاسترخاء البدني والنفسي إلى درجة أنه بات مستعداً لإجراء العملية دون بنج.
أجلسَه الطبيب على السرير، ثم بدأ الممرضُ يحقنه حقنة البنج الموضعية في ظهره.
تمدّدَ على بطنه والموسيقى بدأت تُخرجه لمسة لمسة من المشفى كله ليحلّق على أجنحتها في فضاءات عالم هولير، كم تمنى فيما لو كانت بجواره، فيما لو بقي

ممسكاً بكفها لحظات إجراء العملية، لكنه استبعد الفكرة لأنه لا يريد أن تراه هولير في وضع كهذا، هولير التي تريد دوماً أن تراه قوياً، تراه واقفاً على قدمية كما عهدُها به.
علت غصّةٌ إلى حنجرته، وفاضت دموع من عينيه، بيد أن الطبيب بدا منهمكاً في عمله يفصلهما الحجاب الذي وضعه بينهما تجنباً من إلقاء أي نظرة مفاجئة منه.
بدت لحظات الاسترخاء تتحول إلى نشوة رغب فيها أن يمتدّ به الوقت في لحظات بدت غارقة في استثنائيتها قد لا تتكرر مرة أخرى، بدا له كم أنه محظوظ بهذا المرض الذي بدا سخياً، ومدّه بطاقة عذبة من رهافة المشاعر نحو هولير، لم يكن يعلم أنه متعلق بها بكلّ هذه الشّفافية، بكل سحرية العنفوان هذه.
عندما تناهَت عبارات الطبيب إلى سمعه: حمداً لله على سلامتك عزيزي.
أحس في تلك اللحظة بمدى قسوة وجبروت الطبيب الذي سيجبره على الخروج من محراب أرقّ وأعذب لحظات العمر الذهبيّة.

هه

ه

ه

و

و

ل

ل

ي

ي

ر

علقت نظراتُه بها وهو يدندن بأعذب إيقاعٍ حروفَ الأبجدية الكوردية.

ابتسمَت مُتمتمَة: أحضرني شوقي كي أطمئن عليك.

عبارتها هذه جعلته يشعر بنشوة، وهي التي ضعف ملوك الأرض أمامها، هل يُعقل أنها تبدو ضعيفة في مشاعرها نحوه. وما عزز هذا الشعور لديه أنه تخيل بأنها تردّدت حتى آخر ما يمكنها أن تستطيع بحيث أتت إليه وهو في اليوم الثالث والأخير في المشفى كون أخبره الطبيب أن بإمكانه الخروج صباحاً إلى البيت.

رفع كفّيه يخفي الدموعَ التي انبجَسَت من مقلتيه، وخيّمت عليهما مِئذنة سكون بدا سرمدياً، تتأمله وهي تخفي دموعاً بدأت تغالب بؤبؤتَي عينيها.

آلمها ذلك وهي ترى نفسَها على مشارف الوهن لأول مرة عبر عمرها المديد.

تذكرت جبروت الطّغاة الذين بدوا أضعف خلق الله وهم يرضخون، ويقبّلون قدميها سعياً لمرضاتها. تذكرت جبروت هولاكو وهو في أوج طغيانه ودمويته، وقد بدا أمامها واهناً يطلب رضاها بركبتين مُصْطَكّتين.

حينها أدركَت لأول مرة ألّا جبروتَ يغلب جبروتَ الحب، وأنها تسبّبت بشكل، أو بآخر في إلحاق الأذى بكل أولئك الذين تعلّقت شغافُ قلوبهم بها، وأقبلوا من مشارق الأرض ومغاربها كي يظفروا بنعيمِ إلقاء نظرة واحدة إلى سلطان جمالها، أن ينعموا بقضاء ليلة عمر استثنائية واحدة في ربوع دوحة سَمَرها، ينتعشوا باستمتاعِ لذّة النظر إلى خصلات شعر مليكتهم، بيد أنها كانت دوماً تأبى أن تمنحهم الأمان، تأبى أن تكون مخلصةً لهم، حتى ملوك وأباطرة الكورد، تخلت عنهم عندما رأتهم على معارج وهن، على أرصفة شتات، فكانت تنظر إلى انهيار إمبراطورية الميديين وهي تتداعى على مرآة من عينيها، هزيمة الملك الميدي كيخسرو، انهيار مملكة مادستان، زوال إمبراطورية الحثيين وهي تتلاشى رويداً رويداً.

كانت دوماً محظية مَن يبلغها بقوة السيف، يبذلُ في سبيلها الغالي والنّفيس، حتى تتنازل وتتوّجَه ملكاً على عرشها، وهو يقلّدها بنفيس الجواهر.

الآن ترامى إليها أنها تدفع ثمن كل ذاك العناد، وهي تقع في مكامن شباك خفقات القلب، تترك محجرها النفيس الذي لم يسبق لها قط أن تركته، وتجري بهدي خفقات عشقها، أهو عشق حقاً يا هولير؟

كم يرعبكِ ذلك، وأنت أكثر مَن تعلم نتيجة هذا الهيام، لكن رغم كل ذلك فإنك يا هولير تشعرين لأول مرة بأنك أنثى، تمارسين لأول مرة مزايا أنوثتك وأنتِ تنظرين إليه وهو يخفي وجهه براحتي كفيه كي لا يبدو أمامك واهناً وهو يسكب الدموع مدراراً.

إنه الحب يا هولير، نظراته تفضحه رغم أنه يكابر، رغم أنه ينتقي الكلمات التي توحي لك بأنه متعلّقٌ بزوجته.

امتدَّت أناملها تداعب ثنايا شعره بحنوّ وقد صدرَت منها دندنة شجية: أريدك أن تبقى في قمة شموخك. ثم قالت: تكمن السّعادة الحقيقية في ثنايا تلك اللحظة التي تشعرُ فيها بأنك بطل.

رفع رأسه وهو ينظر إلى عينيها النسريتين وتمتم: لكن المرض هدّني.. ياه، كم أنا مُتعب! أكثر تعباً من مُتعب. ترامى صوتُها إلى مسمعه بهمس وكأنها تحدّث نفسها في حوار حميمي بالغ الحساسية: هنا مفاصل مكمن القوة!

أدهشَه قولُها، وفي لحظات تحوّلت نظراته إليها إلى نظرات استفسارية، فقالت: إنها فرصتك الثمينة كي تستخلص جواهرَ رعشات اللّذة المباركة من مفاصل هذا الألم.

افترَّ ثغرُه عن بسمة، وقد شعر بأن قلبه استمدّ قبسةَ نور من منارة حضورها.

تتمتمَت على شفتيه الكلماتُ: إنكِ تبثين الأمل إلي، ثم تدرّجت به البسمة والكلمات تتدحرج على لسانه: الآن بلغَتْني إشارةٌ أولى عن سر احتفاظك بوهج حيوية الصبا.

ثم هتف وهو ينظر إليها بعينين وسيعتين: أنتِ يا مولاتي تمنحين الرّحيقَ لبراعم الأزهار.

قالت: ذات يوم قلت لآشور بانيبال: ما الذي جعلك تترك الدنيا قائمة، وتأتي إليّ؟

قال: لأنني هنا فقط أشمّ رائحة الحياة.

قلت له: لكنني لن أدوم لك، ولا لأبنائك.

أجاب وهو يحاول مقاومة مشاعر الهزيمة في حضرتي: سأسعى إلى ذلك ما استطعتُ إليه سبيلاً. ثم قال بزهوٍ كما لو أنه ديك رومي ضحكت وهي تقول : لا أعرف حينها لماذا تخيّلتُه ديكاً رومياً منفوشاً : الموت في سبيلك ياتاجي النفيس، حياة.

عبارته هذه تركَت لدي أثرَها حتى اليوم، ولم أخبر بها مخلوقاً قط غيرك.

كنت ألمحُ معالمَ الانشراح باديةً حتى على نبرات صوته وهو يحب أن يدلعني بـ (أربائيلو).

كان بانيبال شبيهاً بالملك الآشوري الرّقيق دان الثالث، كانوا عندما يريدون الذهاب إلى حملاتهم العسكرية، لم يقدموا على ذلك قبل أن تحجّني جيوشهم، وتطلب مرضاتي، ثم ينطلقون ليحققوا لي المغانم، وسعة الملك.

لكن كما سبق وتنبَّأت لهم، فلم يسكت أبنائي عن ضيم، عندما اشتد عود الميديين وأشادوا إمبراطورية الكورد، لم يترددوا من الاتفاق مع الكلدانيين، وقاموا بهزيمة مملكة آشور، كان ذلك سنة ٦١٢ قبل المسيح.

أجل، عبارته هذه جعلتني أشد انتباهاً إلى مكامن نقاطِ ضعف جبابرةِ، وقادة، وسلاطين، وملوك، وأباطرة المعمورة الذين أفصحوا عن مكامن نقاط وهنِ نفوسِهم العظمى إزائي، وقد استسلمتْ بهم تلك النقاط على ضفاف خلوتي.

قال: أما تزال ذاكرتُكِ تحتفظ بكل هذه الوقائع؟

قالت: هذه هي ذاكرتي، كل مدينة تستمد قوتها وحضورَها من ذاكرتها، المدينة التي لا ذاكرة لديها، لا تقف على أركان مدينة. كل واقعة، بل كل كلمة سمعتها، ما أزال أحتفظ بها كما لو أنها وقعت بالأمس. عندما رست سفينةُ نوح على الجودي، كان عهدي بأبناء آدم الثاني.

قال: آدم الثاني؟!

قالت: بعد الطوفان بات نوح هو أب الناس جميعاً، لأنهم تناسلوا من صلبه. زحف الناس يومَها إلى ربوعي واتخذوا من كهوفي مخابئ ومآمن لهم.

إذا أعدتُك إلى ستين ألف سنة ماضية، سترى معي كما لو أنه حدث في رأس السنة الكوردية الماضية أن الناس قطنوا هنا في كهف شاندر.

قال: متى كان ميلاد السنة الكوردية؟

قالت: كان ذلك سنة سبعة آلاف قبل ميلاد المسيح، الناس بشكل عام كانوا يتوافدون إلى كل مدن هذه المنطقة الخصبة التي كانوا يسمونها أرض الكورد.

في عصر حضارة ما بين النهرين كانت أرض كوردستان، أعني (كوردواري) لكن لأخفف عليك شيئاً وأنا أدرك أنك لن تستوعب مني كثيراً إذا حدّثتك بأصيل لغتك، لأن اللهجات توالت، وميزت طوائف الكورد عن بعضها، وعبرت عن خصائص كل طائفة.

قال: كم لغة تعرفين سيدتي؟

ضحكت وقالت: قل كم لغة لا تعرفين.. لا أظن أن هناك لغات لم يعلمني إياها الملوك، ولم تعلمني إياها الغزوات التي تعرضتُ إليها، كنتُ أتحدث كل تلك اللغات بطلاقة، لكن لا أخفيك أن أحب اللغات إلى قلبي هي اللغة الكوردية، كما أن أحب الأسماء إلى نفسي هه وليز.

أشعر بجمالية الحروف عندما يناديني به الناس، إن كل حرف من حروف هذا الاسم تسري في عروقه كريات دماء كورديتي. كانت هذه البقاع تجذِب وتغري النّاسَ لدخولها أكثر من أي بقاع أخرى في رحابة أرض الرب.

في العهد العباسي، عادت هذه الأرضُ لتشهدَ أمجاد الإمارات الكوردية لأنهم أصبحوا مسلمين موالين، يؤازرون دينَ الإسلام، فكانت إمارة عيشاني، وإمارة روادي، وإمارة شدادي، وإمارة مرواني، وإمارة عنازي.

ثم ابتسمت وقالت: إمارة هزباني.

وأردفت تقول ببسمة: هذه الإمارة الكوردية لي معها ذكرياتٌ طيّبة لأنها كانت تخصّني، وهي تذكّرني بأميريها: عيسى بن موسى الهزباني، وأبو الحسن بن موسسكي الهزباني.

خيم صمتٌ عليهما استغرق زُهاءَ نصف ساعة من عمر اللقاء، ثم ما لبثت أن كسرَت زجاجته وهي تقول: أخذتُ من كل شخص من أولئك شيئاً لبني قومي، وهذا ما أفادهم كثيراً، وألحق بهم الهول كثيراً. أفادهم لأنهم تحولوا إلى خلاصةٍ من الرحمة، وآذاهم لأن طيبَهم فاض بهم عن حدوده الدُّنيا.

ثم نهضت هولير، واستأذنَته بالخروج، ابتعدت عنه بخطواتها دون أن يجسر على النهوض لوداعها، أن يصطحبها إلى الباب، أن يلوّح لها بكفه، وهي تتوارى في حلكة العتمة.

يا لقسوة وقع المرض! يا لهول ضعف الإنسان تحت جبروت الألم.

الليلُ، يا لوحشة الليل! السكون، يا لهول السكون!

للتوّ أدركَ أن الإنسانَ يكون بخيرٍ ما دام يملك قدمين ينطلقُ بهما إلى حيث يشاء، وإن لم يملك قدمين يستطيع أن يقف عليهما ويمضي، فإنه لا يملك شيئاً.

كان عندما يغلبُه الشوقُ لهولير، يجوب الأحياءَ، يخرج من سيتاقان، ويدخل طيراوة، يطوف طرقات خانفاه، ويجنح إلى الإسكان، يعرج إلى سيداوه.

في اليوم التالي يجوب أحياءً أخرى، وعندما يشعر بإرهاق يستخدم (الكوسر) الباص، يلجُ: آزادي، يمشي في طرقاتِ كوران، يزور شورش، يتأمل زانياري، يشم رائحة هولير وهو يتجول بين الأحياء: روناكي، منتكاوه، علماء، برايتي.

يخرج كلَّ يوم من البيت وقد تأنّق، يقوم بزيارة جديدةٍ لم يزرْها من قبل، وهولير تزداد غنىً، تزداد تألقاً.

ويا لجمال (تل قالينج آغا) تفوحُ منه رائحة إنسانِ ما قبل التاريخ، مصيف صلاح الدين الذي يتربّع على جبل بيرمام، ويتكِئ على وسادة جبل سفين، ولا يسمح لدرجة الحرارة أن تتجاوز ٣٦ درجة مئوية مهما كانت ظروف الطقس استثنائية في ذروة الصيف، حيث يرتفع ١٠٩٠ متراً على سطح البحر، ويزدان بأشجار البلوط، والسرو.

يأخذ عائلتَه في يوم آخر إلى مشاهدة (المنارة المظفرية)، وفي يوم آخر إلى جامع جليل الخياط، وآخر إلى مرصد هولير.

كل يوم يكتشف لمسات جديدة في هولير، حتى تلك الأماكن التي رآها، فإن كل مرةٍ جديدة تريه ما لم يره في المرة السابقة، ويا لسوق القيصرية المكتظ بكل ما يمكن للمرء أن يحتاجه حيث يشرع أبوابه أمام زوّاره للدخول من مداخله المتعدّدة، وهو يستقرّ وسط البازار، جنوب القلعة، وكل مدخل يحمل لمسة من لمسات هولير، يعبق بلون من ألوان زهورهولير.

متعة الولوجِ من المدخل المُقابِل للقلعة، المحاذي لجامع الحاجّ نوري، من مدخل سوق التنكجية، مدخل سوق الحر، مدخل سوق النجارين، سوق الهرج، سوق القصَّابين، سوق البقّالين، سوق الأقمشة، سوق الألبان. الدّخولُ من فروع المداخل، والتجوّلُ بين ثنايا الفرع حيث ينهال الناس من كل حدب وصوب للتسوق وشراء حاجاتهم.

عندما تعالت أصوات الأذان، راوده إحساس بأن موعدَ قدومِ آفان بات قريباً، فهي الآن تنهض للصلاة، ثم تقرأُ شيئاً من القرآن، وبعد ذلك توقظ الأطفال، تحضر لهم الطعام، ثم تلبسهم وتأتي.

تأملَ جدران الغرفة وفي لحظة راوده إحساسٌ بأنه عقدَ علاقة مع هذه الجدران، كم من أناس دخلوا هذه الغرفة، وتركُوا ذكرياتِهم فيها، وكم من أناس سيدخلونها بعده!

إنها جدران صامتةٌ خرساء، بيد أنها شاهدةٌ على ذكريات أناس، وكاتمةُ أسرارهم.

دخلت ممرضة، وبدأت تخرج من يده حقنة السيروم قائلة له: الحمد لله على سلامتك ماموستا. اليوم أذن الطبيب بخروجك.

هزّ لها رأسَه بالشّكر متمتماً: (زور سوباس عزيزتي، دست خوش).

بعد قليل، انفتح شقّ الباب، فمدّت ابنته (بيرهات) رأسها، وهرعَت إلى حضنه، ثم ما لبث أن دخل ابنه الوسط (لاوين)، وعقبه ابنه الصغير (سيروان).

بدأوا يتبارزون بطبع القبلات عليه، وهو يبادلهم القبلات، لكن سيروان كعادته يريد أن يكون الأثيرَ والأقرب إلى حضنه. ضمَّه إليه وهو يمازحه ويقبله.

في تلك اللحظات كانت زوجته تتِم إجراءات خروجه من المشفى، وعندما دخلت، قالت: كل شيء على ما يرام، يمكننا الآن أن نخرجَ من هذا المكان، السيارة تنتظرنا في الخارج.

أجل، ها قد حان موعد الخروج. تأملَ الجدران، قفزت هولير إلى مخيلته وهي تجالسه في هذه الغرفة. تلك الحقن التي تلقاها حقنة حقنة، ابتسامات الممرضات، لحظات دخول الطبيب، جهاز الضغط وهو يلتفُّ حول يده، ميزان الحرارة الذي يضعه في فمه. السهرُ بمفرده حتى وقت متأخر، النّهوض صباحاً والضغط على الزّر لتناول كاس من الشاي. نهض ببطء شديد، تقدمَ أحد الممرضين يعينه حتى بلغ السيارة الواقفة بمحاذاة رصيف المشفى.

عندما تحركت السيارة، ألقى نظرة إلى المشفى الذي بدأ يبتعد عن حجم بنائه.

دخل البيت وقد شدَّه الحنينُ إليه، أحس بأنه طير قد عاد بعد غياب إلى عشه.

تمتم في قرارة نفسه: ليس للإنسان من مكان أكثر أماناً من بيته، لذلك يبقى باحثاً عن بيت، ولا يشعر بسكينة إلّا بعد أن يعثرَ على هذا البيت، حتى حلم التوسُّعِ في امتلاك أكثر من بيت ما هو إلا الوجه الآخر لترسيخ عملية الشعور بمزيد من أمن، أو بأمن احتياطيّ.

عندما رأى فراشه في الغرفة الكبيرة التي اعتادوا النوم فيها جميعاً، طلب من زوجته أن تنقلَ الفراش إلى الغرفة الصغيرة كي يمضي أيام نقاهته فيها.

عبّرت آفان عن استغرابها من مطلَبِه، بيد أنه ذلك سيتيح له أن يأخذ أكبر قدر من الاسترخاء البدني والنفسي، أن يتجنّب أي شيء يمكن أن يعكّرَ عليه عمق استرخائه.

ثم تمتم بصوته الممزوج ببحّة مرض: ما ذنب الأطفال كي أحرمهم من مشاهدة التلفاز، ما ذنبهم كي أمنعهم من ممارسة ضجيجهم الطبيعي؟

هزّت آفانُ رأسَها وقد اقتنعت بوجهة نظره، وشرعَت في الحين تنقل الفراش بخفة كما لو أنها تتمتعُ بلياقة حصان، رغم أنها لم ترتحْ لفكرة بقائه بعيداً عنهم، فهو في أي لحظة متوقعة أو غير متوقعة قد يحتاج إلى خدمة ما، وليس بوسعه أن ينهض. لكنه مرة أخرة أقنعَها حينما قال بأنه عندما يحتاج شيئاً، سيرن لها على هاتفها الخلوي.

حينئذ لم تملك نفسها من تكرار ما قالته سابقاً في عشرات المواقف المشابهة: عندما تريد لأمر أن يحدث، فإنك تقنعُني به كما لو أنك محامٍ ماهرٌ تقدم كل المبررات والبراهين حتى تقنعَني بأن عدم حدوثه يكون بمثابة كارثةٍ، فأفعل ما بجهدي حتى يتم الأمر حسبما تشاء، وعندما لا تريد لأمر أن يحدث، تقنعني به وأنت تقدم كل الحجج التي تحول دون وقوعه.

يا لنا من مساكين نحن معشر النساء، نصدق كل كلمة نسمعها!

ثم قالت في سرها وهي تحدّجه بنظرة: لكن قلبي يوحي لي بأنك تريد البقاء بمفردك لغايةٍ في نفس يعقوب. رأى بأنها فرصةٌ سانحة له كي يدخل إلى عالم الكسلِ والنوم والاسترخاء كما يحلو لبعض الرجال الذين يفضلون الانزواء والانطواء وألّا يروا أحداً ولا يراهم أحد في بعض المراحل من حياتهم، وهي مرحلة هامة زيّنها لنفسه حتى راوده توق إليها. إنها مرحلةٌ لبقاءٍ قسريٍّ بين جدران أربعة، يمكنُه أن يكتشفَ بعض المزايا التي لا تتبدّى لأحد إلّا من خلال خوض غمار تجربة عيشها لحظة بلحظة.

نوم، استيقاظ، تناول وجبات الطعام مع العائلة، إنترنت، موسيقى، شاي، نسكافة، حليب، قهوة، عصائر، مكسرات، كاتو، حلوى، شوكولا، مثلجات.

وعندما يحِنّ للأطفال، يناديهم، فيتحلَّقون حوله، يمازحونه، وكالعادة يتسابقون في تقبيله، وطلب حاجات منه.

يضمّهم إليه منتشياً بلذة ممارسة مشاعر الأبوة وهو يستجيب لطلباتهم.

ثم يخرِج نقوداً من محفظته، ويناولها لآفان قائلاً: يا أولاد ما رأيكم الليلة بحفلة تشبه حفلة عيد الميلاد؟

يبتهج الأطفال مبدين موافقتهم، فتهز المرأة رأسَها قائلة: لن أوجع رأسي بالحوار معك، ما دمتَ طلبت ذلك، ستقيمه شئتُ، أم أبيتُ. علّمَتني السنوات الماضية أن أعتاد على طقوسك وأتقبّلها. قال وزوجته تتأهب خارجةً لشراء لوازم الاحتفال: ادعمينا عزيزتي، لا تمسكي يدكِ كثيراً.

التفتَت إليه هازَّةً رأسها فقال: إذا كان المرء سعيداً، يستحق الأمر أن يقيم حفلة بهذه المناسبة.

في صبيحة اليوم التالي، تناهى إليه رنينُ جرس هاتفه، وعندما حمل الجهاز وألقى نظرة إلى الشاشة، رأى اسم (كاروان). أحسّ بفرح وهو يذكر هذا الصديق بكل ما يمثل من واقعية وجرأة وانفتاح، الذي شاءت المصادفة أن يتعرف إليه بعد نحو شهر من إقامته في هولير عندما دخل محلَّه الخاص بتصوير الأوراق، وطلب إليه أن يصور له كتاباً إلكترونيا من الفلاش إلى الورق. رحب به الرجلُ، وقدم له كأساً من الشاي، وغدا يتبادل معه أطراف الحديث حتى فرغ من تصوير الكتاب الذي ناهز مئة وثلاثين صفحة. بعد ذلك فوجِئ به وهو يمتنعُ أن يقبض قيمة التصوير رغم محاولات عديدة حتى أنه مدّ خطوات إلى الخارج قائلاً: إن لم تأخذ ولو نصف القيمة، لن آخذ الكتاب، وسأذهب إلى تصويره في مكان آخر. أعاده وهو يقول بإصرار: لا آخذُ الثمن، ولا نصفَ الثمن، ولا ربعه، اسمع ولا تكن عنيداً، أولاً لأنك ضيفٌ، وثانياً لأنك ستقرأ كتاباً عن تاريخ الكورد.

قال: لكنني كوردي أجابه بجدّيته: كوردي يقرأ، خير من كوردي لا يقرأ.

حينها تناول الكتاب مضطراً وقد ركبه حرجٌ شديد، ومن جهة أخرى لبثت عبارته عالقة في ذهنه.

أمضى ثلاثةَ أيام في قراءة الكتاب، وهو يشعر بأن ذاك الرجل هو الذي ألّفه، ولبثت صورته تتقافز من صفحة إلى أخرى، وعبارته: كوردي يقرأ، خير من كوردي لا يقرأ. لا تفارق ذاكرته وهو يلفظها بنبرات جادّة.

في أمسية اليوم الرّابع وقد فرغ تماماً من قراءة الكتاب، خطر له أن يقوم بزيارةٍ إلى ذاك الشخص كي يلقي عليه السّلامَ، ويجلس بعضَ الوقت عنده، فراح إلى محل لبيع الحلويات وأخذ علبتين من أنفس وأثمن ما تنتج هولير من حلويات، وأقبل إلى الرجل مقدّماً له الهدية. رحّب به وقد بدت علامات حرج شديد على سحنته، ثم ما لبث أن قال بنبرة حملت شيئاً من الاستياء: لماذا فعلت هذا عزيزي؟!

قال: كوردي يقدم هدية، خيرٌ من كوردي لا يقدّم هدية

للتو ابتسم وبدا أن العبارةَ تركت أثراً عليه، فقلبَتْه من حال إلى حال، ثم دعاه للجلوس مُحتفُياً به وهو يقول مبتسماً: ألم أقل لك: كوردي يقرأ، خير من كوردي لا يقرأ؟

ثم تناولَ الهدية من يده وهو يقول: ليس من شيمة الكوردي أن يردّ هدية، لكن عزيزي وضعك لا يسمح.

قال: لا يهمك، أختك أم لاوين كانت قد خبأت قرشنا الأبيض ليومٍ أسود.

ضحكَ كاروان وقال: للنّساء حدسُهن الخاصّ بهن.

قال: عندما أقبلنا على مغادرة بيتنا، فوجئتُ بها تعطيني حزمةَ نقود!

نظرتُ إلى الحزمة وقلت: من أين لك هذا يا أم لاوين؟

قالت: وهل لي غيرك في مسألة كهذه؟!

استغربتُ لجوابها، فسارعتْ في القول: كلما كنتَ تعطيني مبلغاً لشراء حاجات للبيت، كنتُ أقتصد وأخفي منه شيئاً لعلّنا نحتاجُه في يوم أسودَ لم نحسب لحلولِه حساباً، وإن لم يأتنا ذاك اليوم، لن نخسر شيئاً.

ثم بكَت وهي تقول: أظن أنه لن يأتي علينا يوم أشدُّ سواداً من هذا، وقد تركنا خلفنا ديارَنا وممتلكاتِنا ومصادرَ رغدِ عيش أطفالنا، ونحن نحملُهم بأسناننا كما لو أننا قططٌ ونلوذُ بهم من هول الحرب التي لم تدع حجراً على حجر.

قال كاروان: سيدا، دوماً للثورات ضرائبها الثقيلةُ خاصة في بلادِنا التي بات الحاكم يختزلُ فيها الدولةَ بشخصه، ويعتبر أن إزاحته عن سُدّة الحكم بمثابة إنهيار انهيارٍ

لقوائم الدولة برمتها، ومنذ استلامه لمقاليد الحكم يخطّط لهذا المفهوم ويعملُ له، بحيث عندما يحدث طارئ ويُقتلَع من كرسيه بالقوة، يقع كل ما كان رتّب له من عوامل الانهيار في بنية المجتمع، وبنية الدولة، وحينها سيندمُ الناس عليه، ويعيدوا ويعيدون تجسيدَه بطلاً وطنياً لأن الأمن في عهده كان مستكيناً، والبلاد كانت عامرة، والناس كانوا في منازلهم وعلى رؤوس أعمالهم كأمراء.

أهل الغرب استطاعُوا أن يتحرّروا قليلاً من عقدة اختزال البلادِ في شخص الحاكم، فقبِل هذا الحاكم أن يتنازل ويختزلَ حقبة واحدة بشخصه، ويسلّم البلادَ ما أمكنه إلى الحاكم الجديد وهي في أوج ازدهارها.

صمت قليلاً ثم أردفَ يقول: في اعتقادي لو لبثت بلاد العرب كلها ممالك، لكان ذلك أفضل لها ولشعوبها، لأن الجمهوريات تحولت إلى الوجه السلبي للممالك.

رئيسُ الجمهورية بات لا يقبل التنازل عن كرسيه، وهو يرى زميلَه الملك الذي يقيم على أميال منه يبقى على كرسيه، ويورّث المُلكَ لولده، فبات هذا الحاكمُ يقتدي به، بيد أن مشكلة الجمهورية تسبّبت في إشعال كل أشكال الاعتقالات والاغتيالات وأشكال الأذى التي لحقت بالبلاد والعباد.

في الغرب يكون الأمر مختلفاً، فلا أحد يبقى أكثرَ من مدة محددة، وبذلك فإن الكراسي تكون دائمة التجدد.

لقد قبلنا نظامَ الجمهوريات دون أن نتهيأ لها بشكلٍ جيد كما تهيّأ لها الغرب، كانت قراراتٍ متسرّعةً للغاية، والآن ندفع ثمنها بشكل باهظ.

إذا نظرت إلى الحكّامِ الذين تركت الثقافة الغربية أثرها عليهم، سترى بأنهم أكثر ليناً، لذلك ترى أن أول ثورة اشتعلت في أكثر دولة انفتاحاً على الغرب، وقَبِل الحاكم أن يقتدي بالغربِ وينسحب بهدوء، وهذا ما شجع الناس في البلاد الأخرى للثورات بشكلٍ متسرّع ظناً منهم بأن حكّامهم سيقتدون بسلَفِهم.

بعد قضاءِ نحو ساعةٍ ونصفٍ من جلوسه مع صديقه والاستماع إلى وجهة نظره، شكرَه على ترحيبه، وكذلك على حديثه، ثم نهضَ مودّعاً إياه، لكن الرجل فاجأه قائلاً: إذا أذنتَ لي، دعني أكمل حفاوتي بك، أنت الليلةَ معزوم عندي على العشاء.

عندما رآه مصراً على ذلك، لم يشَأ أن يرده، أو يفسد عليه حالته الاحتفائية به فأبدى موافقته. بدت علاماتُ البهجة على الرجل وهو يعِد لإغلاق محله، عندئذ أخرج هاتفه وأجرى اتصالاً بآفان يخبرها بما وقع معه.

وافقتْه على رأيه قائلةً: فرصةٌ ممتازة لتغيّر فيها الجو، لأن لأنه هنا لا أصدقاء لديك، أنت بحاجة إلى تغيير كهذا، أتمنى لكما سهرة طيبة.

أنزل الرجلُ باب الدكان المعدني السحّاب، ودعاه لركوب السيارة مُستأذناً بأنه سيأخذ بعض الحاجات إلى البيت، ثم سينطلقان إلى مكان جميل يمضيان فيه سهرة ممتعة.

مضى بالسيارة قليلاً، ثم توقّفَ أمام محل، ابتاعَ طنجرة صغيرة من لبن الغنم الهوليري، ثم صحناً من البيض، وعلبة عسل، وأخرى طحينة، ثم عرجا إلى مخبز، واشترى عدة أرغفة من خبز التنور المرقّد الساخن. جلس في السيارة قائلاً: ها قد تحررنا من طلبات البيت. وعلى الفور سحبَ هاتفه، وأجرى اتصالاً بزوجته طالباً منها أن يخرج ابنه إلى باب البيت كي يأخذ الأغراض. عندما أقفل الهاتف، هزّ رأسه وهو يبتسم: مشكلة المرأة الوحيدة في هذا العالم أن الرجلَ دوماً يسيء فهمها، وأنها دوماً تُحسن الظن به. هذه المسألة جلبت لها الكوارث، فلا هي تتخلى عن حسنِ ظنّها بالرجل، ولا هو يتخلى عن سوء فهمه لها. عندما تسيء الظن به، فإنها ستتساوى به، ويصبحان في وجهات نظر متقاربةٍ، وعندما يحسنُ الظن بها، فإنه سيتساوى بها، ويغدُوان في وجهة نظر متقاربة. قال: ترى بأن المسألة كلها متوقفة على سوء وحسن الظن؟

أجابَ: إن أفضل الأيام التي تمر على الزوجين هي تلك الأيام التي يخفّف كل واحد منهما من حدّة وجهة نظره تجاه الآخر، وأسوأ الأيام التي تمرّ عليهما هي تلك الأيام التي يصعّد فيها كل واحد منهما من حدّة وجهة نظره.

تمتلك المرأة طاقاتٍ غنيةً يمكن لها أن تمنحَ الرجل كثيراً، لكن الذي يحدث أن الرجلَ أحياناً يسيء فهمها ولا يدعُ لها حرية ممارسة عطائها له، ولذلك يا صديقي، لم يستطع الرجل أن يستمتعَ بكل مزايا المرأة وكل ما يمكن لها أن تهبه إياه، وهو على الأغلب يشكّل عامل استفزاز وإزعاج بالنسبة لها خاصة إذا كان زوجَها، بيد أنها تأخذ كل ما تلقاه من هذا الرجل على محمل التيسير حتى تستمر حياتها معه.

إنها تغمِض عينيها عن رؤية أشياء كثيرة، وتصمّ أذنيها عن سماع كلمات كثيرة في الوقت الذي لا يقبل شريكُها فيه أن يغمض عينيه عن رؤية شيء واحد، أو يصم أذنيه عن سماع كلمة واحدة.

توقفت السيارة بمحاذاة بابٍ يقف صبي بجانبه عندئذ قال: هذا ابني سربست يا صديقي. تقدّمَ الصبي يسلّم عليه في السيارة، وراح يقبّل والده من خدّه، ثم شرع على الفور يحمل الأغراض ويتجه إلى البيت. أدار السيارةَ ومضى في ذات الطريق قائلاً: ما زال الوقت باكراً، ما رأيك أن نتجوّل قليلاً في شوارع هولير؟

هزّ رأسه بالإيجاب قائلاً: فكرة جيدة، مما لاحظتُه في هولير ظاهرة قيادة المرأة للسيارة بكثافة ربما لم أشهدها في مدن كثيرة. قال: هذا شكل من أشكال الحريّة التي تمتّعت بها امرأتنا الكوردستانية، وها هي تثبِت بأنها تقوم بكل ما بوسعها كي تخفف عن الرجل.

تعرضت المرأة لقسوةٍ مضاعفة عمّا تعرّضَ له الرجل بسبب حساسيتها، ومشاعر أمومتها، وحرصِها الشديد على بيتها، وذلك لأن المرأةَ تبذل جهداً أكثر من الرجل في تربية أبنائها، تبذل جهداً أكثر منه في تكوين وتطوير بيتها، لذلك فهي تحافظ على ما تكسبه، وإن نظرتَ إلى قيادتها للسيارة، سترى بأنها تقود ببطء، ولا تزعج أحداً بقيادتها، وتتقيد ما أمكنها بقواعد القيادة.

المرأة في كوردستان انخرطَت في غالبية مجالات العمل لتساندَ زوجها في تكوين البيت وتربية الأولاد، والرجل لم يتشدّد في هذه المسألة، بل ترك لها حرية أن تمارس ما تكون قادرة عليه من أعمال.

أخرج سيجارة، وبعد أن أشعلها قال: أتعرف بأنكم أضفتم حيوية جديدة إلى كل أرجاء الإقليم؟

عبّ نفساً من سيجارته ثم استأنف يقول: المخبز الذي كان يبيعُ كل يوم بمئة ألف دينار، بات اليوم يبيع بمئة وخمسين ألفاً، وقسْ ذلك على المطاعم، واللحامين، وبائعي الدجاج، والخضار، والفاكهة، وأصحاب السيارات.

بل إذا سألتَ أي شخص من عموم أهالي الإقليم عن مستوى دخله، سيخبرك بأن دخله الشهري قد زاد بشكل ملحوظ. أنتم عزيزي لم ترضوا أن تعيشوا دون إنتاجٍ لأن طبيعة الإنسان الكوردي هي طبيعة بالغة الحساسية، فحتى لو كان ضيفاً، بعد ثلاثة أيام سينتابه شعور بأنه متطفل على مستضيفه.

لذلك، انطلقتُم إلى ساحات الإنتاج حتى صار الإقليم ينتج ضعف ما كان ينتج من كل مقومات الحياة، إضافة إلى ذلك، لقد جلبتُم معكم أموالاً، وتصلكم أموال من أقربائكم خارج البلاد، وبعضكم تصله أجور عقاراته واستثماراته التي تركها.

أعلم أن الكورد يُعدُّون من الأغنياء في جناح كوردستاننا الغربي، لا أعني غنى المال فحسب، بل غنى الحرفة، والطب، والقانون، والسياسة، والفن، والأدب، والهندسة، والعمارة، والتكنولوجيا.

والإقليمُ يحتاج إلى مهاراتهم، وهذه هي فرصته الوحيدةُ للاستفادة من هذه المهارات، لأنهم عندما تضع الحرب أوزارها سيرجّحون فكرة العودة إلى ديارهم.

ثم أضاف وهو يشعل سيجارة جديدة: حتى الذين يقيمون في مخيّم دوميز، فإنهم يتخذون من المخيّم مسكناً مجانياً آمناً لعوائلهم، ثم ينطلقون إلى مواقع أعمالهم ومنتجاتهم من الصباح الباكر، ويعودون مساء إلى عائلاتهم.

إنهم يبنون، ويزرعون، ويحصدون، وينعشون تربيةَ الثروة الحيوانية، والمسامك، ويدرّسون في الجامعات، يديرون المشافي، والعيادات، والمشاريع الهندسية، ودوائر القضاء، والإعلام. هذا كله إذا وضعنا المكاسب الإنسانية والسياسية المتقدمة التي تحققت للإقليم بفضلكم في كفة أخرى.

غداً عندما تذهبون، سينتابنا شعورٌ بأننا بقينا في صحراء قاحلة، سنفتقد حراككم، نفتقد رائحتكم. سنشعر بهول الفراغِ الذي يخلّفه غيابُكم، سيعود كلُّ شيء إلى ركوده الأزلي، سنبدو ضعفاء مهما توافد إلينا الآخرون، حينها سنكتشف الوجه الآخر للخسارة التي خسرناها، وسيتأكد لنا أكثر بأن أمّة الكورد لن تكون أمةً مُعتبرَة بين الأمم إلا وهي تؤازر بعضها البعض. بدت هولير هادئةً والساعة تتجاوز التاسعة مساء، يفترش الليل ثنايا الطرقات المزدانة بالمصابيح.

قال كاروان: الناس هنا يفتحون محلاتهم مبكراً، ويغلقونها مبكراً، لا يسمحون لساعات العمل أن تستأثرَ بكل وقتهم، إنهم دوماً يتركون متسعاً لممارسة وقائع حياتهم الاجتماعية. وهو يصغي إليه، خطرت له فكرة تقسيم الناس إلى أناس اجتماعيين، وأناس عاملين، وأناس توفيقيين.

تذكر أنه يعرف أناساً كانوا يمضون جل وقتهم في العمل، ولا يدخلون بيوتهم إلّا عندما ينهكهم إرهاقُ العمل، ويقبلون من باب البيت إلى الفراش، ثم يتجهون من الفراش إلى باب البيت. راودَه إحساسٌ أن الناسَ هنا يعيشون حالةَ هُدْنة مع الحياة برمتها، وقد أنهكَتْهم المطاردة، إنهم لا يعرفون في أي لحظة سوف تنقلب عليهم موازينُ الأمور، ولولا سكينةُ الإيمان التي يستكينون في محرابها، لما وجدوا بدّاً من تحويلهم إلى أناس لا منتميين.

كانوا سيعيشون حياتَهم كالغجر الرحّل في الخيام، وعند منعرجات الأنهار، والتسكع على أرصفة العالم، كانوا سيمضون حياتهم في حالة عدمية مطلقة.

حينها بدا ما قالته له هولير يتداعى إلى ذاكرته كما لو أنه شريط سينمائي:

الحياة ما هي إلّا سلسلةُ أحداث يتربّع على عرش بطولتها الأقوياء.
هزّ رأسَه كمن تلقّى حكمةً أيقظَته من غفوة.
أردفت: الأقوياءُ هم ذاكرة التاريخ، يشكلون حلقاته المُتَحاقبة.
لبث في حالة سكونٍ وهو ينظر إلى الأرض، فترامى صوتُها: عندما تكون قوياً، فإن الأقوياء يستوهنون منك.
بعد صمتٍ ليس بالطويل استأنفت تقول: وعندما تكون ضعيفاً، فإن الضعفاء يستقوون عليك. يعرفني سكَنَتي أكثر من غيرهم بأنني أمقتُ الضعفاء وأبصقُهم من تربتي حتى لو كانوا فلذة كبدي، ثم أستبدل بهم أناساً أكثر منهم قوة ويكونون على جدارة بالعيش في محرابي. الأمة الواهنة هي تلك الأمة التي لا مستقبل لها، وتعيش متطفّلة على فضلات الواقع. ثم بدأت تعدّد له الأقوام التي تلاشت عندما استوطنها الوهن، اللغات التي ذابت على ألسنة أناس ضعفاء.
قفزت كل تلك التداعيات إلى مخيلته كما لو أنه في فيلم سينمائي، والسيارة تمضي به على مهل في أُنسِ ليل هولير.
للتو أدرك كم أن الإنسان يمتلك طاقات مُبهمَة خفيّة يمكن لها أن تحقق له ذروة المجد، ذروة التّحرر من كل قيد. يمكن له أن يمارس مطلق حريته، ويستمتع بكل لحظة من لحظات الحياة.
كاك كاروان، كم أن الحياة جميلة وهادئة في هذه البقعة من العالم.
قالها بنشوة وانشراح كما لو أنهما يحلقان كطيرين في فضاء هولير.
ربت صديقُه على كتفه: طبعاً جميلة، ومن يقول بأنها ليست جميلة، فإنه ليس جميلاً يا صديقي. كل الوجوه التي التقاها منذ أن وطئت قدماه أرض كوردستان بدأت تظهر، وتذكره بمواقفها. كلهم يصرّون أن يعبّروا له بأنها فرصتهم الوحيدة كي يؤازروا أخوة لهم، إذ لم يسبق أن لجأ إليهم أحد، لم يسبق أن لاذ بهم أحد.
على مدى كل تلك الحقب كانوا يلجؤون، فبات الآن يُلجَأ إليهم

كانوا يهربون، فبات الآن يُهرب إليهم
كانوا يلوذون، فبات الآن يُلاذ بهم
إنها فرصتهم الوحيدة كي يعطوا كل شيء
أن يعطوا أكثر مما أُعطوا
أن يحتضِنوا أكثر مما احتُضُنوا
وكلما أعطوا، راودهم إحساس بأنهم ما أعطوا شيئاً.
ذلك أنهم يعطون وهم أغنياء
يعطون وهم يحكمون ديارهم
يعطون وهم أقوياء
وقد أُعطوا من أكرادٍ كانوا معدومين
أُعطوا من أكراد كانوا واهنين
أُعطوا من أكراد ما كانوا يحكمون ديارهم.

ثم ما لبثت أن قفزت صورة (خوشناو) صاحب المكتب إليه عندما مضى شهر، وراح يسدّد له أجر الشهر الثاني، حينها أعاد له خوشناو نصف الأجر قائلاً: هذا يكفي.
ومرة أخرى لمح دموعاً تُذرف من طرفَي عينيه، فسأله عن السبب.
عندها شرح له الرجلُ بأنه كلما ينظر إليه ينتابه إحساس بأنه مرآة يرى فيها نفسه منذ ربع قرن مضى عندما لجأ مع عائلته إلى بيتٍ كوردي في أيران. كان الطقس شديدَ البرودة وسيئاً للغاية عندما بُثَّ الذُعرُ فيهم نتيجة قصفهم بغازات سامة بهدف اجتثاث سلسلتهم من الأرض من أجل الاستيلاء على ديارهم. أفواجٌ بمئات الألوف كما لو أنه يوم الحشر المعلوم، تحيط بهم روائح غازاتٍ خانقة وبين لحظة وأخرى يسقط طفل رضيع من حضن أمه المنهكة، تقع امرأة مُسِنّة، يرتمي شيخ عجوز وقد بلغ به العمر عِتِيّه. والأفواج تزداد تدفقاً وكثافة شطر الحدود حيث فتح الكورد الذين لا حول لهم ولا قوة بيوتهم ومساكنهم أمام بني قومهم.

عندها، تحجّرت الكلمات في حنجرته، وانهالت الدموعُ بغزارة من مقلتيه وهو يتخيّل ذاك الرجل الطّيب الذي كفله وقاسمَه بيته وفراشه وطعامه بسخاء رغم أنه كان فقيراً يعمل سائقاً للتكسي.

ثم بدأ يبلع ريقه ويحاول تهدئة نفسه قائلاً: ليت الأمر انتهى عند هذا الحدّ، بل الذي عاد إلى بيته، رأى نفسه وسط واقع شبحي من ذكريات أكثر من قاسية بدأت سياطُها تنهال عليه ليلاً نهاراً، فيُفزع ساعة الفجر ويفرّ من الفراش وهو نصف نائم ونصف مستيقظ. أيقظَه صوت صديقه وكأنه كان في غفوة ثقيلة: ها قد وصلنا عزيزي، انفضْ عنك كل شرود لأنك مقبل إلى عالم لا مكان فيه للشرود.

نزلا من السيارة، وسارا ببطء صوبَ مدخل المقصف الذي بدت موائده عامرة بالنّاس، وبألوان الطّعام والشراب. في تلك اللحظات، قفزت مدينة دبي إلى مخيلته، ولا يدري لماذا بدا يجري مقارنة بين هولير، وبين دبي. عندما سافر إلى دبي وأقام في فندق ذو نجوم خمس، رأى ألوان الكحول على موائد مطاعمه، مما جعله يتذكر جلوسه في مطاعم القاهرة، ودمشق، وبيروت.

عند وصوله هولير، تخيّل أن فنادقها حتى ذوات النجوم الخمس لن يختلفن عن فنادق ليبيا، وتذكر أنه أقام في فندق (تيبستي) ذو النجوم الخمس في بنغازي، ورغم توافد السياح عليه، لم يكن يُقدّم كحولاً. تذكرَ تلك المشاهد وهو يرى أنواع الكحول الفاخرة على الموائد، وهي المرة الأولى التي يرى فيها كحولاً في أحد مطاعم هولير.

قال كاروان: اعتدتُ أن أجلس هنا بين حين وآخر لأن طبيعة بيوتنا لا تحتمل أن يشرب المرء فيها كحولاً.

ضحك وقال: لا أخفيك بأنني أحياناً أشعر بأنني في باريس، وأحياناً يعتريني شعور بأنني في أفغانستان. ضحك هو الآخر وقد اختار مائدة ودعاه إلى الجلوس: هذه هي ميزة هولير كاكة، إنها تجمع ما بين التراث والمعاصرة.

هولير استطاعت أن تنجح في توفيقها بين إرثها الحضاري والإنساني، وبين ثورة الملتي ميديا التي اجتاحت كل أركان العالم، وبالتالي التزم سكانها بخصوصيتها.

قال: هذه من المفاجآت التي رأيتها في هولير.

قال: معك حق، لا توجد محلات لبيع الخمور بشكل عام، لكن توجد محلات بشكل نادر، أو أقل من نادر يحتاج اكتشافُها إلى خبرة ومعرفة بالمدينة بشكل جيد.

عندما أريد أن أشرب قليلاً وأنا أقود السيارة، أو أتجه إلى نزهة مع عائلتي، أذهب إلى (عنكاوة) لأن هذه الناحية تسكنها أغلبية مسيحية. هنا في المدينة لأن المحلاتِ قليلة، فهي مميزة ببيع الكحول، وأحياناً يجد المرء حرجاً للذهاب إليها لأن الناس يعرفون بعضهم البعض بشكل جيد. وقد يصدف أن يراك أي قريب في الشارع وأنت خارج من المحل وبيدك الخمر، هنا لن ترى إلّا مَن هو على شاكلتك، جاء فقط ليسهر ويشرب. بدا له أن كل ركن في هولير يرتدي حلة الرتابة والتخصص في عمليةِ تجنّبٍ ما أمكن عن الفوضى.

منطقة لعيادات الأطباء، منطقة للأجهزة الإلكترونية، منطقة لبيع اللحوم، منطقة للخردوات، منطقة للمفاتيح والأقفال والحقائب، منطقة للخضار والفاكهة، منطقة للآلات الموسيقيّة، منطقة للمكاتب العقارية، منطقة لتداول العملات، منطقة لبيع الطيور والدواجن والأسماك.

عندما بدأ النادل يضع أطباق الطعام على المائدة، خطر له ما كان يرى من أفواج الشبان الذين يلجون للتو أبواب الحياة، وهم يقبلون على محلات بيعُ الكحول في الأحياء الشعبية، يجرعون الزجاجات وقوفاً، ثم يمضون، يستخدمون الحقن والمخدّرات في أقبية البنايات الحديثة، يترنحون على الطرقات في سكون الليل. لا يتوانون من الإقدام على أي شيء من شأنه أن يبعدهم عن الواقع، ويبعد عنهم الواقع.

بدا له الواقع كالبيت الذي لا يحبه ساكنُه، لأنه يفتقد لأسباب الراحة، فيهرب منه بأي وسيلة. حتى لو اضطر للجلوس فيه، فإنه يفعل أي شيء كي يبعده عن حقيقة أنه جالس تحت سقفه.

وبين بيتٍ يحبُّه ساكنه، لأنه يوفر له كل أسباب الرفاه، فيفعل أي شيء كي يعود إليه مبكراً، ويتمتع بذروة يقظته، وهو يلتصق ويستمتع بواقعية وجوده في أركان هذا البيت.

لا يعرف كيف أخذَه الشرود حتى تفاجأ بوقف الرّنين، ثم بعد نحو خمس دقائق عاد الرنين ثانية، ففتح الخط على الفور. ترامت إلى سمعه نبرات صوت كاروان: ماموستا، جوني، باشي، أين أنت يا صديقي، اشتقتُ إليك.

قال: باشم، سوباس، بخيربي سلامتبي، أنا في البيت، لا شي سوى حاجتي لبعض الراحة.

قال: كاكا، قم الآن، خذ دشاً، وارتد ثيابك، سأكون عندك بعد ساعتين حتى نخرج، نأخذ معنا طعاماً وشراباً، ونتغدى في الطبيعة، لن أعيدك إلّا وقد نسيت الإرهاق.

لم يعرفْ ما يقول، وعندما طالَ به الصّمت، أردف كاروان: أودّعك الآن حتى ترتب أمورك. أخبرَ زوجته بأن صديقه كاروان سيأتي لزيارته وهو لا يعرف بأنه أجرى العملية.

كانت آفان قد التقت به مرة واحدة عندما أوصله ذات مساء إلى البيت وألحّ عليه كي يدخل ويتعرّف على عائلته.

يومَها قدّمت له فنجان قهوة، جلس الرجل نحو نصف ساعة، مازحَ الأطفال وقبّلهم ثم نهض مودعاً وهو يقول: (خوا حفيظ).

بخير جي، سر جاو. قالها وهو يشكره على زيارته.

عندما رَنّ جرس الباب، نهضت آفان لتفتحه وهي تعلم القادم.

ألقى عليها السلام، وسأل عن أحوالها وعن الأطفال.

أجابته وهي تسأل عن أحواله وأحوال زوجته وأولاده.

شكرَها على ذلك وبدا منتظراً خروجه، عندئذ دعته ليتفضل.

اعتذر قائلاً بأن الوقت ضيّق، فكرّرت عليه ذلك.

عندها أدرك أن الأمر يكْتَنِفُه شيء من الغموض، فما له لم يخرج ليستقبل صديقه حتى لو لم يكن مستعداً للخروج؟

أشارت إليه كي يدخل مرحّبةً به، فلم يجد بدّاً من الدخول وقد استبدّ به حرج شديد.

اتجهَ إلى الغرفة التي سبق أن دخلها مرة واحدة، وهو يفتقد صديقه ولم يسمع حتى صوتَه، فأشارت إليه أن يذهب إلى الغرفة الصغيرة، ثم اتجهت هي إلى الغرفة الكبيرة.

عندما دخل، تفاجأ بصديقه في الفراش، مال إليه وهو يقبّله سائلاً عن سبب وجوده في الفراش.

قال: لا تشغل بالك ياصديقي، إنها أيامٌ وستعدّي كما عدّى غيرها.

ما هي أحوالك، والله اشتقتُ إليك.

قال: أنا اشتقتُ إليك أكثر، مضتْ نحو عشرة أيام، قلت بأن صديقي يتثاقل علي، فلأذهب إليه أنا.

قال: أنت دوماً في بالي، لكن وقع ما وقع.

قال: ماذا حصل يا عزيزي؟

قال: اسمها عملية جراحية، ولكن مضمونها أقل من ذلك.

قال: عملية جراحية، ومشفى، ولم تخبرني، الآن معي كل الحق لأزعل منك.

قال: صدّقني حدث ذلك بشكل مفاجئ لم نرتّب له.

قال: العملية الجراحية هي عملية جراحية متكامِلة سواء أكانت صغيرة، أم كبيرة، إنها بنج، ومشفى، وحقن، وسيروم، ولصقات، وتحاليل طبية، وحمية.

دخلَت آفان مقدِّمةً له عدة أطباقٍ من الحلوى وكأساً من عصير البرتقال، شكرها على الضيافة وهو يقول: الحمد لله على سلامةِ صديقي يا أم لاوين.

ابتسمت وهي تتمتمُ في سرها: أصدقاؤه ظرفاء مثله.

ثم شكرته وجلسَت، وبعد نحو عشر دقائق من جلوسها، لحقها الأطفال.

مازحَهم الرجل وهو يقول: عليهم أن يتعلّموا اللهجة السورانية، ثم نادى بيرهات قائلاً: ألم تكن في المدرسة في سورية؟

قالت آفان: كانت في الصف الأول في مدرسة خاصة، لكن تركنا البلد بعد أقل من نصف العام الدراسي، وهنا واجهنا مشكلة اللغة.

قال: ما هي المشكلة لو درستْ في مدرسة كوردية؟

قالت: ستكون هناك مشكلةٌ إذا عدنا، هنا لا يتغير عنها المنهاج فقط، بل ستتغيّر اللغة كلها، ورغم ذلك نحن نفكر بهذا الأمر على نحو جادّ، لأن المقام قد يطول بنا.

قال الرجلُ وقد أجلس بيرهات بجانبه: أنتِ كوردية، وتتعلمين في مدرسة كوردية أليس كذلك ياحبيبتي؟

قالت: نعم.

قال: إذن لأعلِّمْك درساً في اللغة، هل توافقين؟

هزّت رأسَها بالإيجاب مبتسمة.

قال: أحضري لي دفتراً وقلماً.

نهضت، وبعد قليلٍ عادت حاملة الدفتر والقلم.

تناول الدفتر وهو يقول: قبل كل شيء لا بد أن تتعلمي الحروف الكوردية، وبدأ يكتب:

(ئـ، ب، بِ، ت، ج، ح، خ، د، ر، ز، رْ، س، ش، ف، فْ، ق، ك، ك، ل، لْ، ن، و، وْ، وو، هـ، ء، ى، ئ، ع، غ).

الحرف الأول يعلّمُك شيئاً هاماً وهو عدم كتابة الهمزة على الألف، في كتابة الكلمة التي تبدأ بالألف.

قالت آفان: ليست هي فقط، نحن أيضاً نعاني من اللهجة.

قال: هي مسألةُ وقتٍ حتى يأخذَ اللسانُ على طبيعةِ اللهجة، علّميها الضمائرَ بعد الحروف.

قالت: شكراً لك، فبدأ يكتب الضمائر على صفحة أخرى:

ئه مه هذا

ئه وه ذلك

ئه وه تلك

ئه وانه هؤلاء

ليْره هنا

له ویْ هناك

ئه وانه أولئك.

قالت آفان: أيام الأسبوع أيضاً مُهمّة.

قال: أجل، ثم بدأ يكتب:

شه مه السبت

يه كشه مه الأحد

دوو شه مه الإثنين

سينشه مه الثلاثاء

جوار شه مه الأربعاء

بينج شه مه الخميس

هه ينى الجمعة

أمّا فصول السنة:

زستان الشتاء

به هار الربيع

هاوين الصيف

بابيز الخريف

الأوقات:

سالْ سنة

وه رز فصل

مانك شهر

هه فته أسبوع

روژْ يوم

شه و ليل

وضروريٌّ أن تعلّميها أوقات اليوم مثل:

كاتژْ ميْر ساعة

خو له ك دقيقة

جركه ثانية

سات لحظة

نهضَت آفان، وبعد قليلٍ عادَت حاملةً فنجانَي قهوة وقطعتَي كاتو، فشكرها كاروان قائلاً: دست خوش.

رشف رشفةً من القهوة وقال:

سأكتبُ لك بعض الكلماتِ الضّرورية.

ثم بدأ يكتبُ وهو يلفظ:

ئه مروْ اليوم

به يانى غداً

بِياو رجل

ژْن امرأة

ناوت جِييه ما اسمك؟

ناوم اسمي.

جونى كيف حالك؟

به يانيت باش صباح الخير

ئيواره ت باش مساء الخير

شه وت شاد تصبح على خير

خوا حافيز بأمان الله

باوك أب

كورِ ابن

برازا ابنة أو ابن الأخ

خوارزا ابنة أو ابن الأخت

كج بنت

خالوزا ابنة أو ابن الخال

ئاموزا ابنة أو ابنة العم

خوشك أخت

دايك، وباوك الوالدان

برا زْن زوجة الأخ

ئالتوون ذهب

مندال طفل

نووستن نوم

هيْلكه بيض

سيْو تفاح

كاله ك بطيخ

قه يسى مشمش

ده ركَا باب

به نجه ره شباك

كَه رماو حمّام
جه قو سكين
ئاويْنه مرآة
سه رين وسادة
به خير بييت أهلاً
ساردكَه براد
دراوسىْ جار
به رتووك كتاب

أحسَّ بقيمة الصّداقةِ وهو يرى كيف أن هذه الصداقةَ تجعلُ من شخص غريب قريباً كما لو أنّه أحدُ أفراد الأسرة. حينَها أدركَ كم أن الإنسان يحتاج إلى كل تلك المزايا والروابط الإنسانية الاجتماعية لتغتنيَ بها حياتُه.

يمكن أن يكون الصديقُ أخاً، يمكن أن يكون خالاً أو عمّاً، يمكن أن يكون كاتمَ السر، يمكن أن يكون أنيساً، ويمكن عن طريق هذا الصّديق يتعرف المرء على صديق آخر. في تلك اللحظات، نهضت آفان وهي تلقي نظرة إلى ساعة الحائط التي أشارت إلى الواحدة ظهراً.

قال كاروان: يحتاج جسم الإنسان إلى المرض، كي يرتاحَ قليلاً من الإرهاق، ومن ناحية أخرى يحقّق المرض شيئاً من التّوازن والنّضج في شخصيّة الإنسان.

المرض هو حالةٌ من الهدوء والاسترخاء البدني والنفسي، يتيحُ للإنسانِ أن يقوم بمراجعة نفسه، ويختلي بذاته وهو مُمدَّد على الفراش الأبيض.

بعد أن ينهض المرءُ من المرض ويتعافى منه، سيرى بأنه اختلفَ عمّا كان عليه قبل المرض الذي أتاح له مساحة من روح الطمأنينية، وهالة من نقاء النّفس.

لذلك تراه مستقراً، مُستكِيناً، منشرحَ الصّدر، هادئ الأعصاب، يلاطف زوّاره، يمازح أطفاله، يتلذّذ بتناول الطعام والشراب بتؤدة، بمزيد من تؤدة، وعلى أقل من مهل،

يغمض عينيه ويغفو كما لو أنه طفل، ثم يفتح عينيه، ويصحو كما لو أنه ما برح رحاب الطفولة، تبدو على سحنته لمعة العافية. المرض هنا – كاكا – يضفي عليه هالةً من البراءة التي تجعله يشعر بأنه طفلٌ لأنه يعتمد في قضاء حاجاتِه على الآخرين، ويكون كثير الحاجة إلى الآخرين وطلب حاجاته منهم.

خيّمَ صمت دام نحو خمس دقائق ثم قال: في اعتقادي أن الإنسانَ يحتاج إلى قضاء شهرٍ في فراش المرض كل ثلاثِ سنوات، حتى يكبح المرضُ جماحَه، ويهدِّئ من روعِه، ويضفي على طموحاته، وهيجانه شيئاً من التوازن.

فتحت آفان البابَ، وبدأت تُدخِل طعام الغداء، فقد أحضرت من المطعم المجاور سمكة مقلية بزنة كيلو ونصف، وطبقاً من الكباب.

عندها، تناول كاروان السفرة الصغيرة من يد آفان، وطلب أن يسكب لصديقه بيده من الطعام ويضعها على فراشه كي يأكل لأنه لا يستطيع الجلوس معهم.

قال: هنا اعتاد الناس أن يتناولوا طعام الإفطار في السادسة صباحاً، والغداء في الثانية عشرة والنصف، والعشاء في السادسة مساء.

أظن أنكم تختلفون في مواعيد تناول طعامكم عنا.

قالت آفان: نحن نتناول الإفطار في التاسعة صباحاً، والغداء في الثانية والنصف، والعشاء في العاشرة ليلاً.

قال: الطعامُ يذكر الهوليريين بالغلاء، يذكّرهم بـ(بيوك قار) سنة الثلج الكبير، حينها تواصلَ سقوط الثلج بغزارة في هولير أربعين يوماً حتى امتلأت البيوتُ واضطر الناس لترك بيوتهم. ثم ابتسم وقال: المصائبُ تأتي دفعةً واحدة، عندها وقعت هزة أرضية جعلت من الذي لزم داره يفرّ منه أيضاً حتى أصبح الناس جميعاً في العراء دون مأوى.

لكن ذلك أفادَهم كثيراً لأنهم تعلموا كيف يخزّنون المؤن في البيوت، ويحسبون حساباً للطوارئ، وقد أفادهم هذا عندما تعرّض العراق للحصار، حينها بدأ الهوليريون يستخدمون ما خزّنوا من مؤونة، ولعل حذرَهم الشديد يقف خلف تحقيق الأمن، حيث

كل شخص هوليري ينتابه إحساسٌ بأنه رجل أمن، وأن مهمة حراسة مدينته تقع على عاتقه، وهو يتحمّل مسؤوليةً تجاه أركان الأمن.

الناس هنا هم الذين يحققون المنجزات الأمنيّة والاقتصادية، ويقومون بتكريم الضيف دون أن يلتفتوا إلى جهات حكومية.

إنهم يشعرون بقوة المسؤولية تجاه هولير كما لو أنهم عائلة كبيرة واحدة تعيش في بيت كبير واحد، هذه المسؤولية التي يتساوى فيها الجميع في خطٍّ واحد.

قطع شريحة من السمك، ثم أخذ سيخين من الكباب، وسكب صحناً من السلطة.

وضعها بجانب صديقه، ثم جلس يتناول الطعام برفقة آفان والأطفال.

قال وهو يمضغ الطعامَ: أفضل ما فعلته أمي هو أنها تزوجت في هولير، وأنجبَتني هنا.

ثم أردف يقول: هولير مدينة روحانية بامتياز تحقق طمأنينة روحية لسكانها.

لو لم تتخذ أمي ذاك القرار التّاريخي في حياتها، لربما كنتُ الآن في أورشليم.

انتبه إلى كلمة أورشليم التي سمعها من صديقه لأول مرة فقال: لماذا أورشليم بالضبط؟!

حينها تذكر كاروان بأنه لم يخبر صديقه، فقال: لعلي لم أخبرك ياصديقي بأن أمي يهودية. كان ذلك منذ زمن، لكن السياسات المقيتة دوماً تتدّخل لتفتّت نسيج الناس الاجتماعي. كان أجدادي اليهود يقيمون في هولير، وكان سكنُهم يتكاثر بجانب القلعة، وفي محلة الكنيسة، ومنهم مَن كان يعيش بعيداً عن القلعة في محلة تعجيل اليهود.

كانت أمي دوماً تروي لي كيف أنهم كانوا يقيمون مناسباتِهم ويشاركهم جميع أهل هولير بهذه المناسبات، من ذلك أذكر ما كانت ترويه أمي عن عيد الخيمة، فكان اليهودُ يقيمون خيمةً من حصير القصب، يزيّنونها بالأقمشة والألوان، والنباتات، ويعلّقون البطيخ بداخلها، كان يحدث ذلك في حوش الكنيسة، بمناسبة استقبال هطول المطر في بداية الشتاء، ثم يجتمعون فيها ويحتفلون بالعيد لمدة سبعة أيام، إضافةً إلى

أعياد أخرى مثل عيد الفطير الذي كان يدوم أيضاً سبعة أيام، ومن طقوس ذاك العيد أن النساء تغسل أرضيات بيوتهن باللبن، وكذلك عيد نزول التوراة.

كانت الأطعمة والمكسّرات هي سيدة هذه الأعياد، فكانوا يأخذون لجيرانهم من المسلمين هذه الأطعمة والمكسرات. أما يوم السبت، فكان استثنائياً عند يهود هولير، هذا العيد كان يوم راحة تامة، لا يشعلون فيه ناراً في البيت، ولا يطبخون طبخاً، ولا يصنعون شاياً، ولا يوقدون مصباحاً.

كانوا يأكلون ما في البيت من طعام بارد، وعندما يريد أحدهم أن يشرب شاياً، يذهب ويشربه عند جاره المسلم، أو يوصي إبريقاً من المقهى.

كانت النسوة اليهوديات شهيرات بخياطة الملابس النسوية، وكذلك بصناعة بعض الأعشاب الطبية، وكانت النسوة الكورديات من جميع أنحاء هولير يتوافدن إليهن.

عندما نشأت علاقة محبةٍ بين أبي وأمي، لم يكن أمامهما سوى الزواج خلسةً والتواري عن الأنظار عدة أشهر ريثما تهدأ الأمور، وبعد نحو سنتين من زواجهما، يبدو بأنها اقتنعت بالدين الإسلامي، وأشهرت إسلامَها، وعندما ذهب أهلها إلى إسرائيل، أصرّت على البقاء مع زوجها وأولادها.

لبث كاروان بجانب صديقه حتى ساعة الغروب، عندئذ ودَّعه وهو يتمنى له الشفاء العاجلَ كي يعود إلى زيارته في المحل كما كان. ودّعته آفان إلى باب الشارع وهي تشكره على زيارته، وعلى تفضله بإعطاء بعض دروس اللغة، وطلبت إليه أن يعيدَ الزيارة. للتو أيقن أنه لم يعد بمقدوره الخروجُ في أي وقت يشاء كما كان، وأنه ينتظر حتى يتماثل للشفاء، وتعود إليه عافيته كي يستطيعَ أن ينهض دون أن يعينه أحد، ويقف على قدَميه، يمدّ خطواته إلى حيث هولير التي غلبه الشوق إليها.

عندما يتجوّلُ في طرقات هولير، فإنه يشمّ رائحتها، عندما يقفُ بجانب القلعة، ينتابه إحساسٌ بأنها تلقي عليه النظرات من إحدى نوافذها.

الآن يستلقي في الفراشِ بمفرده بانتظار أن تفتحَ الباب، وتدلف كعادتها مثل فراشة، ينظر في عينيها، في وجهها، يستنشق رائحتها عن قرب.

الآن، الآن فحسب أدرك أن قوة المرض تفوق قوةَ الإنسان، وأنه غدا بالفعل رهين قيد جبروت المرض.

بدأت الأيام تمضي عليه مُتثاقلَة، كل يوم يسلّمُه لليوم التالي، وآفان تضاعِف عنايتها به، تهيّئ له كل طقوسه، تعينه ببطء شديد على النهوض يوماً إثر يوم، ثم يتكئ عليها ويمد خطواته ببطء، ثم يزيد قليلاً في المشي، يخفف من اتكائه عليها شيئاً فشيئاً لأن من شأن ذلك أن يسرّع في قيامه من الفراش، والجلوس في الغرفة كخطوة أولى من خطوات الخروج من البيت بمفرده بشكل متدرّج كما أوصاه الطبيب الذي جاء بعد أسبوع، وفك عنه لصقة العملية.

ألقى عليه السلام و قال له: لا شيء سوى أنها مرحلةٌ من مراحل العمر وتمضي.

هزّ رأسه متمتماً: تمضي يا دكتور كما يمضي غيرها.

ثم باشرَ على الفور في رفع اللصقة بسحبة واحدة سريعة مسبباً له بعض الألم.

هذا كل شيء الآن، إذا شعرت بأمر غير اعتيادي، لا تتردد من الاتصال بي مهما كان الوقت. قالها الطبيب وخرج متمنياً له الشفاء العاجل.

* * * *

هولير، يا سيدة أرض الرّب المباركة

هولير، يا أنيسةَ الدنيا في وحشة الزمن

إنها المرةُ الأولى التي يرتعشُ فيها القلبُ كعصفور وحيدٍ مُبَلل بقطرات الندى ساعة الفجر.

أين أنت الآن يا هولير؟

زاد الحنينُ إلى كل ذرة تراب من دروبك

طاف الشوق إلى كل حمامة ترفرف في طلاقة هوائك..

ليت قلبي حمامةٌ تفِرُّ من بين جوانحي للحظات، وتلقي نظرةَ توْقٍ إليك، تطوف فضاءاتِك فضاءً فضاءً، تجوب أحياءك حياً حياً، تتأمل أشجارك شجرة شجرة.

تنفذُ إلى مخدعك كما نفذت حمامة داوود.

أمستلقيةٌ أنت في هذه اللحظات؟

أم باركة تستأنين بلؤلؤ الفراغ؟

أم أنك تتوضئين برحيق ياسمين شجرتك المفضلة، وتصلّين خمسين ركعة شكر لربك المجيد؟

هـ

و

ل

ي

ر

ذات العلامات الذهبية الخمس في أبجدية الكورد.

أورقَت أناملـه وروداً وهـي تعـانق درّة القلـم لـتخطَّ أعـذب حـروف الهجـاء التـي أبـدعَتها البشرية.

تألق القلمُ عطراً وهو يتبرّك بتدوين لآلئ جوهر حرف القرآن المجيد.

كل حرفٍ يتلألأ ربيعاً أمام ناظرَيه

كل حرفٍ يغتني بخصوبة وقع عذوبة موسيقاه

حرف الهاء:

يا لهائها.. وهي تقفُ مقام القلب، تمدّ أخواتها بشهيق وزفير الحياة.

حرف الواو:

يا لواوها.. وهو يلي أخته بحياء شديد، يشدو بأرقِّ ما سمعتْه أذنٌ من إنشاد.

حرف اللام: يا للامها.. وهو يتوسّط بحكمة كجبل سحريّ يبعث شعاعَ دفءِ روحِ الحكمة يميناً وشمالاً، شرقاً وغرباً.
حرف الياء: يا ليائها... وهي مُتّزنة تمدّ بشريانها سائرَ البدن بكريّات دمٍ كوردي.
حرف الراء: يا لرائها.. وهو يتخذ منزلَ ضفة المساء، حيث تستأنس وتتسامرُ في أرجاء دوحتها حروف أبجدية الكور السرمدية في مساءاتِ النشوة.

* * * *

بعد قضاء عشرين يوماً، رأى بأنه يستطيع الخروجَ برفقة عائلته إلى أماكن قريبة، فطلب من آفان أن تهيّئ الأولاد كي يخرجوا. عندئذ تقافز الأولاد فرحين، ومعبرين عن مساحة شوقِهم إلى الحدائق القريبة، واللعب فيها مع أطفال الحي.
تذكرَ كل تلك الحدائق التي دخلَها حديقة حديقة ومارس فيها الرياضة، أخذَ أطفالَه إليها، حيث تكثر هولير بالحدائق التي عادة تكون مناصفةً بين الكبار، وبين الأطفال بحيث يجدُ الأطفال ألعابهم وأراجيحَهم، ويجد الكبار وسائل ممارسة رياضتهم.
قال لآفان: أتعلمين بأنني مثل الأطفال اشتقت لممارسة الطقوس في الحدائق؟
قالت: كل شيء يأتي في وقته المناسب، لكن عن جد، الأولاد غلبهم الشوق إلى اللعب في الحدائق مع الأطفال.
قال: طالما قلتُ لكِ ذلك وطلبتُ منكِ أن تأخذيهم على الأقل إلى أقرب حديقة إلينا.
قالت: ياه، بهذه البساطة الشّديدة تقولُها؟ سأتركك وحيداً وآخذ الأولادَ إلى الحدائق؟
لتعلمْ ألّا حدائقَ في الحدائق دون أن تكونَ معنا، كل مكان نتجه إليه معاً يكون حديقةً بالنسبة إلينا. عندما مدّ خطواتِه الأولى إلى الشّارع، بدأ يستنشق الهواءَ بعمق كما لو أنه كان غائباً عن هذه الأجواء سنةً. بات يمعِن النظرَ في كل شيء تقع عيناه عليه.
بساطةُ الناس وهم يرتدون ثيابَهم الهوليرية الفضفاضة، ويملؤون الطرقات، يجلسون أمامَ أبواب بيوتهم وهم يسبّحون بمسابحهم الطويلة، لفتت نظره المسابيح الطّويلة التي

عادة تكون بأيدي الهوليريين وهم يمشون في الشّوارع، يتجهون إلى المساجد. لذلك جعلوا لمفاخر أنواع المسابيح سوقاً عند جامع القلعة، يجتمعون، وينتقون أشكالَ وألوان ونفائس هذه المسابيح. ما أكثر المساجد في طرقات هولير! عندما يحين موعد الأذان، يبدو الوقت وكأنه وقفةُ العيد، حيث يتعالى التّكبيرُ، وتصدح حناجرُ المؤذنين وهي تنادي الناسَ إلى الصلاة.

جامعُ القلعة الكبير، جامع شيخاني، جامع السوق الكبير، جامع سوق النجارين، جامع المفتي، جامع قبلة خوار، جامع خانقاه الخالدية، جامع كورجي، جامع ديرة بروشة، جامع بستة بيازة، جامع آزادي، جامع المرادية، جامع أسعد أفندي، جامع آلتى برماغ، جامع ملا عابد، جامع باليساني.

إضافة إلى الجوامعِ الصغيرة المُنتشرَة بكثرة في الأحياء، والضواحي، والأرياف، وهي مساجد حديثة صغيرة الحجم، أنيقة البناء قام بإنشائها بعض الميسورين.

لمس أن طابع التديّن يغلبُ على أهالي هولير، أناس يركنون إلى سكينة الإيمان، يمارسُون طقوس عبادتهم دون أن يجنحوا شطر معرج من معارج الغُلوّ.

عندما يحل شهر رجب، فإنهم يبدؤون بصوم ما يستطيعون من أيامه كتهيئة لاستقبال شهر رمضان ويرددون:

هه ر أيلار رجب أولماز

أولور سا عجب أولماز

لوقمه وه حرام قه طمه

دوعاو مستجاب أولماز

وعندما يحل شهر شعبان، يعتقدون بأن صوم النبي زكريا كان أول يوم الأحد من الشهر، فوهبه الله ابنه يحيى، ولذلك يصوم مَن يرجو اللهَ أبناء، وعندما يهبه اللهُ رجاءه، فإنه يداوم على صيام هذا اليوم من السنة دوماً.

يتكوَّن الإفطارُ في صوم هذا اليوم من سبعةِ أنواع من الطعام، ويُصْنَع الخبز من الشعير، ويُجلَب ماء الشرب من البئر. أما في ليلة النصف من شعبان، يتجوّل الأطفالُ وهم ينشدُون الأغاني الدينية، ويتجه الرجال إلى المساجد، وكذلك تتجه النسوة.

وعندما يحل شهرُ رمضان يستقبله الهوليريون بالابتهاج وهم يرددون:

كه نه كالدي رمضان

اجيلدي قره قه زان

رمضان قره قه زان

مو للار ويرر أزان

كلُّ شيء يمضي في منهج المجتمع المحافِظ، عندما تتزوجُ الفتاة، تأخذ معها قرآناً إلى بيتها الجديد كي تستمرَّ حياتها مع القرآن، وكأنها وصية والديها حتى لا تنقطعَ عن القرآن بخروجها من البيت، وكذلك حتى تعلّمَ أولادَها قراءة القرآن في المستقبل.

ثم قبل خروجِها من بيت أهلها، تخلعُ مسماراً من أحد جدران البيت كعلامةٍ بعدم عودتها إلى البيت بشكل دائم سواء مطلقة، أو على زعل.

يترعرعُ الطفل الهوليري على هذه الطقوس، فمنذ اليوم الأول لولادته، يكون القرآنُ قريباً منه، بحيث يوضَع بجانب وسادته، أو يوضَع على أقرب حائط إليه.

وإذا رأت الأمُ أنه تأخّرَ في المشي، فيتم ربط قدميه بخيط رفيع، وعند صلاة يوم الجمعة يتم اصطحابه إلى الجامع، وعندما تنتهي الصلاة، يتقدّم إليه أول الخارجين من الجامع، ثم يقطع الخيط، وهو يمسك بيده ويخطو به خطوات أولى نحو المشي.

حتى الكتاباتُ التي تزدان بها الواجهات، فإنها تصرّ على الحرف القرآني، استطاعوا أن يأخذوا من الإسلام وسطيته، وقد قدّموا لأمة الإسلام رجل الفتوحات الإسلامية الهوليري صلاح الدين الأيوبي الذي انبثقَ من ظهرانيهم إلى رحابة العالم الإسلامي.

عندما يأتي شهرُ شعبان، يؤجلّون فيه ما أمكن الزواج، ويتجنّبون الزّواجَ في هذا الشهر، كما يمتنعون فيه من الختان، ويسعون كي لا يقيموا بيتاً جديداً، أو حتى ترميم بيت قديم، أو القيام بطلائه في شهرَي محرم وصفر، كما لا يستحِبّون الانتقالَ إلى بيت جديد في شهر صفر.

في اليوم العاشر من شهر محرّم، يقومون بتوزيع الهريسة. يمارسون طقوسهم الإسلامية على جناح المذهب الاعتداليّ دون أن يجنحوا شطر الغلو قيد أُنمُلة.

عندما يحين موعد الصلاة، يتجه الهوليريون من كل صوب وحدب إلى المساجد، يصلّون صلاة الجماعة، وترتفعُ أصوات الأئمة من المساجد يوم الجمعة وهم يخطبون في الناس باللغة الكوردية ذلك أن جانباً كبيراً وعلى الأخص الشبان لا يجيدون العربية، فيقرأ الإمام آيات قرآنية باللغة العربية، ثم يباشِر في ترجمتها وشرحها باللغة الكوردية.

باتوا يمثّلون وسطية الإسلام، لذلك لبثت هولير محافظة على عراقة تقاليدها وهي تشرعُ نوافذَها لرياح حداثة الدنيا، وليس بمقدور أي فقيه هوليري أن يقنع شاباً هولیرياً كي يجنح به شطر الغلو ليجعلَ من بدنه قنبلة موقوتة في أناس مهما كان انتماء هؤلاء الناس، لأن نظرة الإنسان بالنسبة إليه هي الغالبة، الإنسانُ أولاً، إن فكرة إلحاقِ أذى بالآخرين بالنسبة إليه هي فكرة مَقيتة، لذلك يرى أن السياراتِ عندما ترى شخصاً يود العبور مشياً على قدميه، تقف وتشير له بالعبور لأن الأولويّة للإنسان الذي يمضي على قدميه.

إنه ينعمُ بوسطية الإسلام، ووسطية الانفتاح على أرجاء العالم التي تحقق له بهجة الاستمتاع بممارسة ألقِ إنسانيته والارتقاء في مدارجها ولسان حاله يشدو:

أنا هوليري

أأبى أن أكذب أو يُكذب علي

أنا هوليري

أأبى أن أعتدي أو يُعتدى علي

أنا هوليري
أأبى أن أخدع أو يُخدع بي
أنا هوليري
أحلمُ أن أعيشَ حراً طليقاً دون قيود
أحلم أن يكون هذا الفضاءً لنا جميعاً كما لو أننا أسراب حمام
أنا هوليري
أتوسَّد وسادة السلام
وألتحف لحافَ التآخي

تجلو له عبقرية البساطة الهوليرية بأرقى معالمها في أواصر العلاقة الاجتماعية بين هذا المجتمع، ومفهومه لروح العلاقات الإنسانية.

عندما بلغَت بهم الشدائد ذروتها، لم يبق أمامهم سوى أن يتآزروا ويتحوّلوا إلى أسرةٍ واحدة تعيش في بيت كبير واحد، شأنُهم في ذلك شأن منطقةٍ تعرَّضَت لإعصار، فلم يبقَ أمامَ سكّانها سوى أن يتكاتفوا ويجتمعوا في كتلة بشرية واحدة ليشكّلوا قوةً = يستندون إليها. كلُّ واحد منهم أصبح عليماً بما وقع للآخر، وكل واحدٍ بات على دراية بما ألمّ بالآخر. لفت نظرَه بقوة أن الناس هنا يعيشون حالة تآخٍ حقيقيةً فيما بينهم، ولذلك يكثر تداولُ كلمة التآخي، ويتم إطلاق كلمة (برايتي) بكثرة على المحال والأماكن، وبعض التجمعات.

أوصلَتهم الكوارث الإنسانية المريعة التي بلغوها إلى قناعةٍ بأن أيّ عيب في فرد منهم هو عيب لهم جميعاً، وأي ضعف في أحدهم هو ضعف لهم جميعاً، وأي قوة في أحدهم هي قوة لهم جميعاً. استطاعت هذه المحنُ أن تجعلَهم في حالة تجاوزٍ لمركَّب الدونية، وعُقدة الفوقية، فغدا المجتمع في حالة نرجسية إيجابية عامّة كما لو أنه شخص واحد، وقد بلغوا يقيناً بأنه لا أحد منهم يمكن أن يكون في مَعزِلٍ عن الآخر، لذلك لاحظ أنهم لا يستهزئون ببعضهم البعض، ولا يقلّلون من شأن بعضهم البعض.

هذا بذاته حدٌّ من هيمنة السلطة عليهم، وحدٌّ من رضوخهم لهيمنة السلطة التي ينظرون إليها كوظيفة سياسيّة مثل أي وظيفة أخرى في المجتمع، فكانت فكرة تقاسم السلطة نتيجةَ هذه الخصوصية التي يتمتع بها هذا المجتمع، إذ لم تعد السلطة حكراً على حزب دون غيره، وباتت أشكالُ المعارضَة تمارس نقدَها اللّاذع وهي تستند إلى قوة المجتمع.

توقفت به قدماه عندما رأى عبوةً فارغة في منتصف الطريق، انتظر حتى خلا الطريق من السيارات، وراح يحملها، ويضعها في حاوية. حتى إن (سيروان) عندما أراد أن يبول، نهاه عن فعل ذلك في زقاق، وأخذه إلى مراحيض أحد الجوامع القريبة. حينها خطر له أنه لم ير أحداً يتبوّل في الأزقة، لم تقع عيناه على شخص قط يقف وهو يتبوّل على حائط في خلاء كما كان المنظر يتكرر أمام ناظرَيه في أماكنَ عديدة.

أدرك أن ذلك يمسّ وتراً من منظومة الحياء الاجتماعي العام لكينونة المجتمع، فباتوا يعدّون ذلك خدشاً لحياء الهوليريين العام تجاه أنفسهم، ثم تجاه بعضهم البعض، ثم تجاه ضيوف وزوّار هولير في حالة حياء وغيرةٍ على هيبة مدينتهم.

كما أن المرء لا يفعل ذلك على جدران بيته، ويتجه إلى بيت الخلاء، فإنه كذلك لا يفعلها على جدران مدينته ويتجه إلى مراحيضها.

لفتَ نظرُه أناقة المراحيض وتمتّعُها بكل التقنيات الحديثة، وأنه لم يجد أشخاصاً يقفون على أبواب هذه المراحيض لتحصيل أجرة الخلاء كما كان يرى في أماكن عديدة.

بحلولِ المساء يأتي عمّال النظافة الذين هم على الأغلب من سريلانكا، أو بنغلادش، ببشراتهم السمراء، وبزّاتهم البرتقالية، يقومون بتنظيف الأسواق والطرقات، ويحقّقون رواتب جيدة لعائلاتهم التي تأتي معهم للعيش حيث يعملون، فيرى النساء السّمراوات وهن يتجوّلن ويتسوّقن ويقمن في بيوت المدينة. عندما يحلّ المساء، ويفرَغ عمال النظافة من تنظيف المدينة، يخرج الهوليريون من بيوتهم إلى ساحات أحيائهم، حيث يشكّل كل حي إمارة مستقلّةً عن غيرها.

في شورش، حيث بهاء المطاعم المُمتدّة على طول الطريق الذي يصل إلى جسر شورش، يجلس الناسُ في جلسات سمرٍ وهم يتناولون (الشاورما) وأطباق الحلويات، والمثلجات، وأصناف ما طاب من طعام، وما لذّ من شراب، ويكتظ الطريق العام بمحلات بيع الخمور، فيقبل الناس من الأحياء لشراء ألوان وأصناف الخمور، يقبلون فرادى وجماعات، على أقدامهم، وبواسطة سيارات عامة وخاصة، تكتظُّ المحال بالناس الذين يتوافدون لشراء الخمور المستوردة من كل بقاع العالم وفق أسعار متدرّجة، ثم يقبلون على شراء علب الطون والسردين، واللحوم المثلجة، والمكسرات، والبطاطا المجففة، والمخللات، يحملونها في أكياس وينصرفون.

عندما رأى نفسه قريباً من سوق (لنكة) على شارع الأربعين، دخله من إحدى بواباتِه، وصار يتنقّلُ برفقة عائلته بين تفرّعات قيصرية هذا السوق الضخمة الذي يحتوي على مئات المحالّ المتخصصة بكل ما يمكن للمتسوّق أن يحتاجه، بما يخطر في باله أو لا يخطر في باله. إنه يشكّل مدينةً مُختصرة في قيصرية كبرى، حيث يمكن للدّاخلِ أن يعثر على ما يشاء وهو يمر بجانب محال الذهب، والألبسة، والأدوات المنزليّة، والإلكترونيات، والأغذية، في زحام لكافة فئات المجتمع الهوليري.

أحياناً كان يدخلُ من مداخل شارع المئة متر، فيخرجُ من أحد مداخل شارع الأربعين، أو من أحد الفروع الشمالية بين الشارعين لأن الجانبَ الجنوبي لهذا السوق مغلق.

ما يميز هذه الأسواق الهوليرية الضخمة، أنها لا تُشعِر الداخل إليها بتكرار الدخول حتى لو كان صاحباً لأحد محلاتها يداومُ على عمله بشكل يومي، فكل يوم يغتني بألوانٍ جديدة من الناس، والبضاعة، والإشراقة، وكأنها تُبعث على رأس إشراقة كل يوم من جديد. كلما يدخلها المرءُ يتذوّق نكهةَ أنه يدخلها للمرة الأولى، ويمكن له أن يرى شيئاً جديداً لم يره من قبل. لدى خروجِهم من السّوق ووصولِهم إلى شارع المائة متر، وقف على الطريق بانتظار سيارةٍ كي توصلهم إلى مجمّع (فاميلي مول)، وقال لزوجته بأنهم سيتناولون بهذه المناسبة الغداء هناك.

قالت له بأنها ترى أن يأخذوا دجاجة مشوية إلى البيت خير لهم من تكاليف تناول الغداء في هذا المجمع الذي سبق وأن تناولوا فيه غداء وعشاء مرتين، وكانت الأسعار باهظة لا تختلف كثيراً عن مطاعم الفنادق ذات النجوم الخمس. بيد أنه تمتم لها: ولا يهمك يا سيدتي، ليست مشكلةً إذا تناولنا وجبة طعام في مثل هكذا محل في الشهر، أو الشهرين مرة واحدة.

تفاجَأ بوقوف سيارة بجانبهم وفيها ركاب، وبعد قليل نزل منها شخص واتجه إليه. نظر إليه وقد عرفَه للتو، دنا إليه الرجل محتضِناً إياه، ثم ألقى السلامَ على آفان، وراح يقبّل الأطفال.

حينها سألته آفان: ما أحوال جين؟ قال: جيدة. قالت: ماذا تفعل هذه الأيام؟

ضحك الرجل وقال: حوّلت غرفةً من البيت الذي استأجرناه إلى دكّان للخياطة النسائية، لا يفضى البيت ليلاً نهاراً من النساء.

ضحك قائلاً: فرصة لك يا رجل، قد تجد لأبيها زوجة مناسبة من نساء كوردستان.

توقف قليلاً، وقد علت غصةٌ إلى حنجرته، فاعتذر قائلاً: منذ متى وأنت في هولير؟

قال: بقينا شهراً في مخيّم دوميز، ثم جئنا إلى هنا، تعرفتُ بصاحب هذا التكسي، ومن يومها أعمل عليه مناصفة.

ثم قال وهو يقدّم اعتذارَه للركاب: أرجوك انتظرني، المكانُ قريب، سأوصلهم وبعد عشر دقائق أكون عندك. وافق على ذلك، فانطلق (جنكدار) بشيء من السرعة.

قالت: يبدو أن أحواله تحسّنت، أظنه لم يكن ثملاً.

قال: أعانَه الله، كانت صدمةً قاسية بالنسبة إليه.

لم يتأخر الرجل، فقد عاد مسرعاً، وطلب منهم الصعود.

قال: شكراً يا جنكدار، أنا سعيدٌ برؤيتك، وبهذه المناسبة أدعوك مع جين كي تتناولا معنا طعام الغداء في (فاميلي مول).

قال: سأوصلكم من عيني، لكن اعذورنا من تناول الغداء.

قالت آفان: اشتقت لجين فعلاً، وأريد أن أراها.
قال: مادام الأمر كذلك، أمري لله يا أم لاوين.
عندما أوصلَهم، قال بأنه سيعود إلى البيت، ليحضر جين.
لدى نزولِهم من السيارة، ألقى نظرةً إلى البناء الضّخم، ثم اتجهوا جميعاً يصعدون الدرج نحو الباب.
بدا المكان كرنفالياً أمام ناظرَيه كما لو أنه في يوم افتتاح، تجوَّلوا الطوابقَ والأجنحة، ابتاعت آفان بعض اللوازم النسائية لها، ثم جلسوا في كافيتريا، تناولوا بعض العصائر والمثلجات، وانطلقوا إلى حيث وقع اختيارهم على مطعم من مطاعمه المتعددة.
عند جلوسهم، اتصل به جنكدار، فأرشده إلى موقع المطعم. بعد قليل دخلا، فألقت الفتاةُ بنفسها في حضن آفان وبدأت تبكي بحرقة، بادلتها البكاء، ثم تباوستا بحرارة، وبعد ذلك ألقت عليه السلام: كيف صحتك يا أبا لاوين؟، شكرها قائلاً: بخير.
قالت: تفاجات بأبي يعود إلى البيت في غير وقته، وأخبرني بأن هناك مفاجأة سارّة لي، وعلي بالاستعجال للخروج. كانت هناك ثلاث نسوة من أجل خياطة ثيابهن، قدّمت لهن اعتذاري وجئت مسرعة. ثم نظرت إلى أبيها وهي تقول: طوال الطريق ألححتُ عليه كي يخبرني عن المفاجأة، فلم يفعل حتى رأيتك، حقاً هي مفاجأة سعيدة لي.
قالت آفان: عندما رأيتُه، قلت في نفسي: هما التقيا ببعضهما، ولن أتركهما قبل أن نلتقيَ نحن أيضاً. عند تناول الطعامِ قال له: لكن ألم تجدْ صعوبة في نقل الرّكّاب وأنت غريب عن المدينة؟
قال: أمضى صاحب السيارة أسبوعاً معي حتى أرشدَني إلى الطرقات، لكن عموماً بعد أن حفظت مسارات الشوارع الرئيسية في هولير، شارع المائة متر، وشارع الستين متر، وشارع الأربعين متر، وشارع الثلاثين متر، تيسّرَت الأمورُ بالنسبة لي ما دمت قد حفظت مسارات ومدارات هذه الشوارع الرئيسية الطويلة التي تؤدي فيما بينها إلى

الأجزاء الرئيسية من المدينة. بعد ذلك بدأت طلباتُ الركابِ تتكرّر، نادراً ما أذهبُ الآن في طلب لم يسبق لي أن ذهبت إليه، أو إلى موضعٍ مجاورٍ منه.

بعد تفرغهم من الطعام، تناولوا الشايَ، ثم أعادهم جنكدار إلى البيت.

عندها دعاهما للدخول، فلبّيا الدعوة وجلسا نحو نصف ساعة تناولا فيها قهوة، ثم خرجا. مضى النهارُ حافلاً دون أن يشعر بمرور ساعاته، عندما انتبه إلى بوادر الإرهاق على الأولاد، قال: يبدو بأنهم يحتاجون إلى الراحة.

قالت آفان: ليس هناك أفضل من النوم الآن بالنسبة لنا جميعاً. عندئذ استرخى على إسفنجة، وأخذتْه غفوةٌ استمرّت حتى الثامنة مساء، حيث نهض الأطفال، ونهضت آفان. أشغلَ التلفاز، بينما راحت زوجته تعد له فنجان القهوة.

في المساءات تجذبُه هولير للمشي في طرقاتها وهو يحمل بيده جهازه الخلوي، يستمتع بسماع الأغنيات، أو بعض المقاطع الموسيقية، يمشي وهو يستمع حتى تفرغ البطارية من الشحن، أحياناً يجلس في بعض مواقف الكوسر، وأحياناً يجلس في بعض الحدائق.

وقتٌ يتمتع بمزاياه في مساءات هولير الحالمة، حتى سماعُ الأغنيات والموسيقى يغتني بمذاق خاص وهو يمضي وحيداً، وكأنه يكتشف ملامح الطرقات أول مرة. عندما يعود إلى البيت، يحمل معه للأطفال ما يسرّهم من طعام، حيث يهرعون إليه، وكأنه كان غائباً لمدة سنة، وهو كذلك يقبّلهم بشوق وكأنهم كانوا غائبين عنه سنةً. يعطيهم حصصَهم من المُغلّفات، ويجلس وهو يستمتعُ بالنظر إليهم وهم يحتفلون بفضِّ الأغلفة.

* * * *

فتحَ عينيه مع سماع رنينِ هاتفه الخلوي، ثم ألقى نظرةً إلى الساعة، فوجدها تشير إلى الثّانية والنصف بعد منتصف الليل، تسرّبَت منه نظرة إلى الاسم الذي ظهر على شاشة الجهاز وهو يهِمّ بفتح الخط، فتفاجأ باسم صديقه الدكتور (سليفان).

فتح الخطَّ على عجلٍ وقد استبدّ به قلقٌ، فترامى صوتُ صديقه إلى سمعه: أعرف بأنني أيقظتك من النوم، لكنني سأكون مع زوجتي وابني بعد نحو ساعتين ونصف في هولير، وقبل كل شيء سنأتي إليك كي أضعهما وأخرج لأنني في عجالة من أمري.

قال: ماذا حدث يا صديقي؟

قال: يبدو أن حادثَ سير قد وقع لعائلة، وأن وضعهم حرج للغاية فاتصلوا بي من المشفى هناك كي ألحق بهم.

عندما أغلقَ السماعة، اتجه إلى الغرفة الكبيرة، لكنه تردد من مناداة زوجته لأن الوقت مبكر، ويمكنها مواصلة النوم بعض الوقت. عادَت به أدراجُه إلى المطبخ، صنع كأساً من الشاي، وعاد إلى غرفته يجلس، وقد مدّ يده إلى كتاب وشرعَ في تصفحه.

بعد نحو ساعة ونصف، نهض مرة أخرى، ونادى زوجته، فتحت المرأة عينيها وألقت نظرةً إلى الساعة قائلة: الوقت مبكر، هل تحتاجُ شيئاً؟

قال: لا عزيزتي، لكن صديقنا الطبيب سليفان مع عائلته سيكونون بعد نحو ساعة عندنا. هبّت المرأةُ وقد استوَت جالسةً في الفراش: خير إن شاء الله.. في هذا الوقت المبكّر؟!

قال: هناك حادث سير وقع في منتصف الليل، وقد اتصلوا به من أحد المشافي هنا كي يأتي في حالة إسعاف لأن وضعهم حرجٌ، ويبدو أن أحد الأطباء نصح إدارة المشفى للاستعانة بخبرته. أعدّت آفان البيت لاستقبال ضيوفِها، وبعد قليل رنَّ جرس هاتفه، قال: يبدو بأنهم وصلوا.

فتح الخط قائلاً: أهلاً وسهلاً عزيزي، الحمد لله على سلامتكم.

قال سليفان: شكراً، وصلنا للتو، ونحن عند جسر عنكاوا، أين نتجه الآن؟

قال: على شارع الأربعين، بجانب سوق لنكة، سأكون واقفاً على الطريق.

أغلقَ الخطَّ، وخرج من البيت، وبعد نحو ربع ساعة رأى صديقه حيث تتقدم سيارة أجرة سيارته لإرشاده إلى العنوان.

صعد بجانبه، وقد ألقى السلامَ عليه، ثم التفت إلى زوجته قائلاً: الحمد لله على السلامة مدام روني.

قالت: الله يسلمك، كيف حال آفان؟

قال: مبسوطة. ثم قال: كيفك برهام؟

ابتسم الطفلُ قائلاً: تمام عمو.

قال الطبيب: لولا هذا السائقُ الذي أرشدَني من جسر عنكاوا لما وصلت هنا قبل ساعة، أنا في عجالة، لا بد أن ألحقَ المشفى، إنهم يتصلون بي كل ربع ساعة.

عندما وصلَت السيارة بجانب الباب، كانت آفان واقفةً بانتظارهم، قال سليفان: صباح الخير مدام، نأسف على الإزعاج في هذا الوقت.

قالت: نتشرّف بكم في أي وقت يا دكتور.

أنزلَهم أمامَ الباب، وأدارَ السيارة بسرعة صوب المشفى.

استقبلَت آفان المرأةَ بالقبلات، ودعتْها للدخول باحتفاءٍ حارٍّ قائلة: تفضلي حبيبتي، البيت بيتك. دخلَت مع ابنها قائلة بأنها محظوظةٌ بهذا اللقاء الثاني الذي يجمعهما.

قالت آفان مبتسمةً: أنا سعيدة بهذا اللقاء يا روني، لقد أحببتُك يا عزيزتي عندما رأيتك أول مرة في مخيم دوميز.

لبث الطبيب غائباً حتى بلغت الساعةُ الثالثة عصراً، حينها عادَ وقد بدت عليه آثار الإنهاك قائلاً بأنه وصل في الوقت المناسب، وأجرى على الفور عمليتين جراحيتين واحدة لصبية في السّادسة عشرة من عمرها، والثانية لطفل في الخامسة من عمره، أمّا ما تبقى من العائلة فلم تبلغ حالاتهم درجات الخطورة المتقدمة كهاتين الحالتين، حيث تم بتر ساق الأب، وبعض العلاج من قبل المشفى للأم.

ثم أردف يقول: كان الأب هو الذي يقود السيارة عائداً مع عائلته من سهرة عند أحد الأقرباء، وفي الطريق اصطدم بسيارة كانت واقفة في الطريق مما أدّى إلى قلبِ السيارة.

ارتاحَ الطبيب قليلاً في الغرفة التي خُصِّصَت لهم، ثم خرج، استحمّ وجاء ليتناولوا طعام الغداء الذي تأخّر.

قال: يبدو بأنني سأضطر للبقاء هنا يومين كي أشرف على وضعهما، وبعد ذلك سنعود.

قالت آفان: هذا من حظّنا كي تكونَ لي فرصة لأحتفي بصديقتي الغالية.

شكرتها المرأةُ قائلةً: هذه هي إحدى محاسن الأزمات، يتعرف الناس فيها على معادن بعضهم البعض بشكل جيد .

قال: ماذا حصل معك يا صديقي، هل تفرّغت للقراءة كما كنت تحلم؟

قال: يمكنني القولُ بأن جزءاً من حلمي تحقّق، لأنني تفرّغت جزئياً للقراءة، فتحت عيادةً استأجرتُها، أداوم فيها فقط في الفترة المسائية من الرابعة حتى الثامنة مساء، أمّا العملياتُ الجراحية فقد اقتصرت على إجراء عمليّة واحدة في الأسبوع، إلّا إذا حدث وضع استثنائي كهذا.

في صبيحةِ اليومِ الثالث الذي تهيؤوا فيه للعودة إلى دهوك بعد تناول طعام الإفطار، تلقّى الطبيبُ اتصالاً من أحد أقرباء المرضى، وبعد أن أغلق طلب من صديقه أن يصطحبَه إلى الموقع لأن بعض أهل المرضى يريدون زيارته في البيت بعد أن أصرّوا على ذلك.

خرج مع صديقه، وفي الطريق قال له: يبدو بأنهم يصرّون على إعطائي أجري دون أن يعلموا بأن ذلك يسبب لي حرجاً، ألا ترى ذلك معي يا صديقي؟

قال: مؤكد، لأنك ضيف، وكيف للضيف أن يأخذ أجر خدمة قدّمها لمستضيفه؟

قال: لقد حاولوا عن طريق مدير المشفى، فقلتُ له وجهةَ نظري التي اقتنعَ بها الرجلُ، وأبلغَها لهم، لكنهم عادوا وعرضوا عليّ ذلك في المشفى، فقلت لهم: حتى تقاليدنا الكوردية لا تسمح لنا بذلك، لو جئتم إلى عيادتي، لكان الأمر مختلفاً، لكنكم استنجدتم بي كي أقدّمَ لكم عوناً، وأحمد الله أن العمليتين تكلّلتا بالنجاح.

بعد قليل وقفت سيارةٌ وفيها ثلاثة أشخاص، ثم حضروا إلى البيت، وبعد جلوسهم قال أحدُهم بأنه شقيق صاحب العائلة التي وقع لها الحادث، ومدّ مغلفاً إلى الطبيب، فكرّر الطبيب رفضه القاطع قائلاً: بأن عليه أن يقبلَ ما قام به هديةً من أخ لأخيه، وعندما يصرّ على ذلك، فهذا يعني بأنه لا يقبله أخاً.

عندها فقط أعاد الرجل المظروف وهو يقول: لقد غلبتَني يا دكتور.

ثم خرجوا بعد أن تناولوا شاياً وقهوة.

بعد ذلك طلبَ من صديقه أن يأذنَ لهم بالعودة، فقال بأنه لا يأذن بها إلّا بعد برنامج وضعه، وهو أن يأخذهم في جولة ليروا مدينةَ هولير بشكل جيد، ثم يأخذهم إلى القلعة، وبعد ذلك يعودون إلى البيت، يتناولون الغداء، وحينها تكون لهم حرية المغادرة.

عندما نظرَ إلى زوجته، أشارت له بأن آفان أقنعتْها بالفكرة، وهي موافقةٌ لأنهم بالفعل أتوا إلى هولير دون أن يروا شيئاً من معالمها.

عندما شارفت الساعة على التاسعة والنصف، انطلقوا بسيارته يجوبون بعض الأماكن، ويأخذون بعض الصور التذكارية، ثم اتجهوا إلى القلعة.

قال: هولير مدينة هادئة، يمكن للمرء أن يقضي فيها وقتاً هادئاً، إنها تحفل بكل مقومات الراحة والإستقرار. قال الطبيب: لمستُ شيئاً من ذلك.

قال: إن سمعتَ كلامي، دعْك الليلة هنا، وسآخذك إلى مكان يستحق أن تبقى من أجله. قالت روني وقد لفتت انتباهه بأنها سمعته: كلامك يغرينا بالبقاء الليلةَ، معه حق يا سليفان، أنت متعبٌ، من الأفضل أن تأخذ شيئاً من الراحة قبل هذه العودة، لأنك تسوق السيارة بنفسك.

قال: والله معك حق عزيزتي، حتى من الناحية الصحية، هذا غير منصوح، ويُستحسَن أن أكون مرتاحاً بشكل جيد، حتى أستطيع أن أقود بشكل جيدَ، ثم أضاف ببسمة: وأستمتع بالقيادة أيضاً.

عندما بلغت الساعة الواحدة والنصف، عادوا، تناولوا الغداء، ثم استراحوا في قيلولة، وفي الثامنة مساء أخذهم إلى حديقة فاميلي مان.

دخلوا الحديقةَ وبدؤوا يتنقّلون في أرجائها من مكانٍ إلى آخر، فقال الطبيب: يبدو لي بأنني في مدينة أوربية. شيء رائعٌ، كلُّ ركن من أركان هذه الحديقة جاء بشكل متقن مدروس، بالفعل معك حق، أنا سعيد بالتَّعرّف إلى هذه الأجواء.

استغرقَ التَّجوال نحو ساعتين ونصف، ثم تناولوا العشاء في أحد مطاعم الحديقة، وعادوا.

في الصّباحِ، نهضُوا، وبعد تناول الإفطار، خرجوا، صافحَ صديقَه، كما بدأت الزوجتان في تبادل القبلات، وبدا برهام مودعاً الأطفال.

* * * *

هه و لير

باغته إحساسٌ في هُنيهةِ إدهاشٍ غامرةٍ أن قلبَه قفز من صدرِه شطرَ الباب لحظةَ دخول طلّتها بسحريَّة كما لو أنها حمامةٌ وقعت بغتة للتوّ من تنسيم جنانِ الخلد.

هه و لير

ترنّمَ كل حرفٍ من حروف الاسم المبارك وهو يعزِف على أرقّ أوتار قلبه حساسيَّة.

هه و لير..

هبَّ واقفاً على قدمَيه، وقد فاضت عيناه بطوفان دمعٍ، أشرق وجهه بمنارة رؤياها كما لم تدركه إشراقة كهذه من قبل.

ما أعظمَك يا هه و لير!

ثم في لحظات غافلة، لا يدري كيف رأى نفسه في جنّة حضنها.

غمرَه شعور بأنه يتنسّم أوج رائحة الفِردوس.

لم يسبقْ له أن لمسَ حضناً كحضنها

لم يسبقْ له أن استنشق رائحةً بعبق طيب عبيرِها
لم يسبق له أن تذوّقَ لذة عسلِ الشّموخ، كما يتذوّق نفيسَ لذته من شغافِ دفء حضنها.
ما أسماك يا عمري!
بات يتمسَّكُ بها بكل حواسّه، ومدركاته، وحجمِ العرق الذي يتفصّد من كل مسامات جسده، وطوفان الدّمع الذي يسيل من مقلتيه، ورعشات أنين صدى الحروف وهي تسري على رعشات أوتار قلبه.
باتَ كل وجلِه أن تدهمَه لحظةٌ مجنونة، فتتلاشى من بين يدَيه كما تتلاشى الثلوجُ من قممِ الجبال.
تتوارى عن ناظرَيه كما تتوارى أصعدةُ الدّخان من أحضانِ المحيطات.
قالت هامسةً بشدو وهي تضمه إلى حضنها وتدس أناملها بين ثنايا شعره: أريدك أن تكون قوياً حتى في الحبّ.
بدأت الكلماتُ تتدحرجُ على لسانه:

ياه، يا لعظمة لذّة الدموعِ وهي تنهمر من عينَي! لم يسبق لي أن استمتعت بذرف الدموع التي أخالُها تنهمر من عضلة قلبي كما أستمتع بها الآن.
دعيني أبكِ على كتفيك
دعيني أبكِ وأنا أشمّ عطرك
دعيني أتحوّلْ إلى أوهن مخلوقٍ في العالم وأنا أحبك..
دعيني أسمعْ سيمفونية نبراتِ صوتك
دعيني أحطّمْ كل القيود وأنا أحبّك
دعيني أسمعْ رنين صمتك
أقرأ سِفر نظراتك
ما أعظم الوهنَ تحت مصباحِ وجهك!

ما أعظمه وأنا أستمدُّ من مفاصلِه قوة العالم!

رفعَ رأسه ببطءٍ شديد، وبدا له أنه يهدي عينيه أعظمَ ما يمكن له أن يهديه لهما.

تأملَ لآلئ أنوار وجهها لؤلؤةً.. لؤلؤة.

للتو أدرك قيمةَ أن تسبح العينان في فلك الجمال، فتتمتمت الحروفُ على رعشاتِ لسانه:

أنتِ..

أغلى..

من..

عمري..

يا..

هه..

و..

لير..

دعاها إلى الجلوس، فشكرَته بلطفٍ، وبركت بتؤدة على طرفٍ من فراشه.

نظرتْ إليه، وقد استكان في الفراش قبالتها، هتفت كما لو أنها تهامسه:

هل تستمتع بمزايا نقاهةِ المرض؟

دندنَ: كل مَن في البيت يدلّلني أكثر مما كان

همسَت: وأنت أيضاً ألا تدلل نفسك أكثر ممّا كنت؟

أدرك أنها قصدت نزهته التي قام بها نهار البارحة مع عائلته إلى قلعة ديوين، هذه القلعة الغنية بالمساحات الخضراء، والأودية، والجبال، والمنعطفات.

كان ذلك عندما قرر مع زوجته قضاءَ يوم في الطّبيعة بعد مكوثه الطويلِ في البيت.

قالت: الأولاد أيضاً بحاجة إلى نزهة كهذه.

عندئذ أدرك حجمَ المعاناة التي وقعت على بيرهات، ولاوين نتيجة هذا الاقتلاع القسري من واقع ترعرعا فيه، وبغتة وجدا نفسيهما في واقع جديد بكل مقومات حياته.
أدرك حساسيةَ التعاملِ معهما من خلال دقة التّربية التي يحتاجانها، وربما لذلك ينشب خلاف يأخذُ شيئاً من التصعيد بينه وبين آفان في بعض المواقف، فيشرح لها بأن بيرهات في مرحلة بالغة الحساسيّة تتشكل فيها ملامح وعيها، وهي تى ترى أن الواقع الجديد أحدثَ شرخاً في النمط الذي نمَت عليه، ولذلك تحتاج إلى عناية إضافية تكون بمثابة تعويض عمّا فقدته، وعندما تشعرُ بنقص في هذه العناية، تريد أن تظفرَ بها بطرق غير مباشرة، فتتلكّأ في تناول الطعام، أو تتأخّر في غسل يديها حتى تأتي إلى المائدة، فتوبخها آفان على تصرفها، عندئذ قد تنهضُ وترفض المشاركةَ في تناول الطعام، ويكون ذلك في بعض المشاوير عندما تقوم بتصرف تطلب من خلاله أن يلتفتا إليها. حينها يخبَر زوجته بأنها تعاني من شعور بالحاجة إلى عناية أبويّة إضافية، وهي تطلب ذلك بأسلوبها غير المباشر هذا.
الأمر بالنسبة إلى لاوين مختلف، فهو في عامه الخامس، وكونه ولدٌ يريد أن يمارس بعض المسؤولية الذكورية وشيئاً من سلطتها في البيت، فيسمح له بذلك، ويرسله إلى بعض المحال القريبة ليشتريَ سلعاً منها، لأن أي قمع لمشاعره هذه قد يجنح به إلى شيء من حالة اللا انتماء الأسري، ثم تتطور حتى يفقد الإحساس بروح المسؤولية تجاه أسرته، ولذلك يلحّ على زوجته كي تكون مرنة معهما، وتستجيب لميولهما وطلباتهما.
في حين أن سيروان لا يحتاج إلى عناية كهذه بسبب عمره، فهو لا يدرك بأنه خرج من واقع إلى واقع آخر، وها هو منسجم بهذا الواقع ويترعرع فيه بشكل طبيعي.
قال: سأتفق مع سائق سيارة كي يأخذنا في يوم من أيام هذا الأسبوع إلى نزهة في طبيعة هولير.
في المساء خرجَ إلى الطريق، وبات يشير للسيارات حتى أبدى سائقٌ موافقته على أخذهم في نزهة كهذه.

قال: سننطلق من الساعةِ الثامنة صباحاً، ولن نتمكّن من العودة قبل العاشرة ليلاً لأننا سنمضي وفق برنامج يملأ اليوم كله.

الآن نحن في بدايات الصّيف، سنمضي في جولات بين الجبال، نقف في محطات استراحة، ندخل بعض القرى والأحياء، وفي المحطة الأخيرة، سنذهب إلى شقلاوة لأنها مدينة سياحيّةٌ بامتياز.

قال: موافق. قال: سآخذ منك أجري مائة وخمسين ألف دينار.

قال: تكرم عزيزي.

عندها قال بأنه ينصح بألّا يذهبوا في يوم جمعة، أو يوم عطلة رسمية لأن المسافة التي سيقطعونها في ساعة واحدة، ستحتاج إلى ساعتين إذا كان يوم جمعة، أو يوم عطلة رسمية بسبب ازدحام السيارات.

ثم اتفق معه كي يأتيه في الثامنة من صباح يوم النزهة، ليبدأ البرنامج، وتبادلا أرقام الهاتف تحسُّباً لأي طارئ. مضى السائق قائلاً: خوا حفيظ بافي لاوين.

أشار له بيده: بخير جي، سر جاو كاك رزكار.

أحسَّ بأنه أنجزَ خطوة هامة من خطوات النزهة التي ستكون بعد يومين حسبما اتفق مع السّائق، واستغل الوقت لشراء المستلزمات.

في السّابعة صباحاً نهضَت آفان وبدأت ترتّب للخروج، حيث قامت بتجهيز عدّة المشاوي، والسلطة، ثم أحضرت إفطاراً خفيفاً، وأيقظتهم.

عندما بلغت الساعة الثامنة، طرق رزكار الباب، فخرجوا جميعاً.

حينها بُهِت وهو يرى امرأة وطفلاً في السيارة.

قال رزكار: فكرتُ أن أخفف عليك الأجر، أحضرتُ زوجتي وابني كي نخرج نزهة عائلية مشتركة ونتقاسم كل شيء مناصفة، وإن لم تكن لديك رغبة، لا توجد مشكلة، سأعيدهما إلى البيت، وننطلق.

تنحّى بآفان جانباً وسألها عمّا ترى.

همسته: إذا أردتَ رأيي اتركْهما معنا، وبدل أن ندفعَ له الأجر مائة وخمسين ألف دينار، سندفع له النصفَ، وفي كلا الحالتين سيبقى الرجلُ لأنه دليلنا وسائقنا.

قال: هل تظنين بأنك ستنسجمين معها؟

قالت: إذا انسجم الرجل مع الرجل، سوف تنسجم المرأة مع المرأة.

عادا إلى السيارة وقال له: توكلنا على الله.

عندها نزل الرجل، ولحقته زوجته، بينما لبث الطفل في السيارة، تبادلت الزوجتان القبلات، ثم بدؤوا جميعاً في حمل الأغراض إلى السيارة، وعندما رأى رزكار عدّة المشاوي قال: لقد جلبناها معنا.

عندئذ صعدوا السيارة، فقال الرجلُ: برأيي يا أبا لاوين، ننطلقُ إلى مصيف صلاح الدين، ستكون فرصة لتشاهدوا جمالية الطبيعة.

قالت المرأة من جهتها: مناظر جميلة، وتوجد حدائق للأطفال في الطريق يمكن لهم أن يتسلّوا فيها. قال: كما تشاء كاك رزكار.

انطلقوا إلى طريق المصيف وبدأت جماليات الطبيعةِ تظهر مع مُضيّ السيارة، التفت إلى آفان، فرآها منسجمةً مع المرأة وهي تتحدث معها بحميمية. بعد نحو ساعة من التّجوُّل البطيء بين الجبال، وقفوا عند حديقة صغيرة تحتوي على بعض الألعاب للأطفال. جلسوا يتناولون الشاي على المقاعد التي بدت خشبية بكراسيها وموائدها إلّا أن رزكار قال: هذا ديكور يشبه الخشب، لكنها مصنوعة من الإسمنت.

جلسوا على الكراسي، واتجه الأطفال إلى اللعب، حينها قالت المرأة: أياز مبسوط مع الأولاد. قالت آفان: الأولاد أيضاً أحبوه يا دلسوز. بعد ذلك اتجهوا إلى قلعة ديوين.

مضَت السيارة بين السهول والجبال وهو يتأمل معالمَ وآثارَ هذه القلعة التي أبعدته نحو ٢٥ كم عن مدينة هولير، ومما يُروى أنه قد تم بناؤها في عهد شادي بن مروان، زعيم عشيرة الراوندييين، أجداد صلاح الدين الأيوبي، وبعد نشوبِ نزاعاتٍ بين الراوندييين والسلجوقيين، تم تدمير هذه القلعة.

تروي آثارُ هولير جزءاً من سيرتها، فهي الشاهدةُ على كل تلك الوقائع التي جرت: آثارُ جوار تاقان، تل قالنج آغا، تل كلك مشك، تل قصر، حصن بانمان، قلعة بوك، كهف شاندر، مصيف بيخال، مصيف جنديان، مصيف حاج عمران، مصيف كلي علي بك.

تجوَّلوا بين الجبال حتى اختارُوا موضعاً ليتناولوا فيه الغداء، عندها بدؤوا في تنزيل الأغراض، وكان رزكار أيضاً قد أحضرَ معه الطعام، فتولت المرأتان مهمة وضع الكباب، وشيش الطاووق في الأسياخ. وبدأ الرّجلان في إشعالِ الفحم.

بينما انطلقَ الأطفالُ لقطف الزهور، واللّعبِ بين الرمال.

عندما جلسُوا جميعاً يتناولون الطعام، أحس في تلك اللحظات وهو جالس بين الخضرة، تحيطُه الجبالُ التي تنسال منها عيون المياه، أن هوليرلا تفصح عن جمالها إلّا رويداً رويداً، وكلما أتى يومٌ جديد، أفصحَت له عن لمسةٍ جديدة.

تناولُوا الطعامَ، ثم شربوا الشاي، وانطلقوا إلى النهر الصّغير، حيث سبح الأولادُ في النهر. كانت لحظاتٍ ذهبيةً بالنسبة إليه وهو يرى أطفالَه يسبحون في مياه هولير، وكأن هولير تعمّدهم بيديها المباركتين في عذوبة مياهها.

عند ساعة العصر كان موعدُ الانطلاق للتجوال بين جبال ومنعطفات ومنحدرات ديوين، والتقاط بعض الصور حتى أدركَهم الغروبُ، عندها لاحظ جمالية عودة الماعز والأبقار إلى البيوت بكثافة.

قال رزكار: الآن سنذهب إلى شقلاوة، هل جئتها قبل الآن؟

قال: جئتُها مرةً واحدة، لم أتمكّن من رؤيتها بشكل جيد.

قال: تبعد عنها هولير نحو (٥١ كم)، وهي معتدلَة الطّقس لذلك تستقطب الناسَ ليقضوا أوقاتهم فيها خاصة في الصيف.

بدأ يقطع الطرقات، ويتعمّد الدخول في القرى حتى بلغ المدينة.

تركوا السيارة في ركن، وراحوا يمشون في طرقاتها المزدحمة بالناس، حينها قال رزكار: شقلاوة معروفة بحلوياتها الطيبة.

تناولوا السجق المَحشُوَّ بالجوز واللوز والبندق، وبعد نحو ساعة ونصف من التجوال، خرجوا من شقلاوة يمضون على مهل.

حينئذ رأوا أرتالاً من السيارات واقفة إلى جانب الطرقات الممتدّة، فقال رزكار: هذا هو الصيف في هولير، الناس يخرجون مساءً مع عائلاتهم ولا يعودون إلا بعد منتصف الليل، ومنهم مَنْ يستلذُّ البقاءَ وينام هنا حتى الصباح. وهي فرصة للبعض كي يتناولوا كؤوس الخمر في هذه الأجواء حيث يجتمع بعض الرجال ويمضوا وقتهم هنا مع الخمر والأجواء المنعشة. شقلاوة فيها خليط من المسيحيين، والمسلمين، ويتردّد إليها السياح من العراق، ومن كل بقاع العالم.

كان رزكار يمضي وهو يتحدّث له، بينما تتبادل آفان الحديث مع دلسوز، وقد غرق الأطفال جميعاً في النوم. عندما بلغت الساعة العاشرة والنصف ليلاً وصلوا البيت، تعاونوا في تنزيل الأغراض، وحمل الأطفال.

دعاهم إلى الجلوس، فشكره رزكار قائلاً بأنه سيدعُهم كي يرتاحوا.

بدَت آفان متعبة، فتمتمت وهي تنام: تصبح على خير.

تصبحين على خير. قالها وجاء إلى غرفته يستمتع بالاستلقاء في الفراش.

هَمْهَمَ: كانت رحلة جميلة، كل ما فيك جميل في جميل.

ثمّ أضاف: أنتِ أيضاً تدللينني أكثر مما كنتِ

رنَت نبراتُها إلى سمعه: المرض أيضاً يُدلِّلُكَ، ثم استأنفَت تقول بعد لحظة صمت: ها هو يتوّج دلاله لك بإكليل الشفاء.

ركنَت إلى محراب صمت، فسَادَ سكونٌ هوليري في أبهة حضرتها، فكانت فرصته الثمّينة أن يتأمل بهاء حضورِ مهد الكورد.

سيدةُ أمة الكورد الأولى ..

مدينةُ أبناء الجنّ الأزلية..

تناغمت حروف الكلمات على رخام صوته: هل مرضتِ يا هولير؟

هزّت رأسها هزّاتٍ إلى الأسفل وهي تقول: عندما يصيبني سقام، يأتي الربيع ذابلاً في تلك السّنة، يتوقف الحمامُ عن الهديل، تبدو الشوارع ساكنةً شاحبة، يكسو الحزن وجه الطرقات.

في صباحات سقامي، تحط أسراب البلابل والزرازير والحمام على نوافذي، وهي تملأ سماء القلعة. تنتحب تارة، وتارة تشدو بأعذب ما لديها من أغنيات، وهي تبتهلُ إلى ربها الكريم كي يشفيَني. تكسو الأشجارَ غمامةُ حزن، تقوم ملكات النحل بعيادتي.

عندما ينتزعُني الجبابرة بحدّ السيف من أيدي حفدتي، يلحقون بهم ويلات الهزيمة، يبدون خانعين، مستسلمين، مهزومين.

يقتلون رجالَهم، يستبيحون حرائرهم على مرآة مني.

حينذاك يستقوى عليّ المرضُ وأنا أرى الأباطرة يخلعون لساني من واجهات طرقاتي، من مداخل دروبي. يمزّقون ثوبي الأثيرَ الذي تتفتّح بعبق ألوانه بشرتي، ويرغمُون علي ارتداءَ ثوب غريب على بدني، فأبدو ذابلةً منكسرة بألوانه.

يحرمونني من أحب ألوان الدنيا إلى فؤادي:

الأحمر

وهو يوهِج شعلة الحياة في نفسي.

الأخضر

وهو يمدُّني بطاقة متجددة من لياقة الشباب.

الأبيض

يأتي زهوُ بياضه ليحقق في ذرّات روحي سكينة الاستقرار..

نعيم الهدوء..

أُنس الأمان.

الأصفر

وهو قبلتي

محج جبهتي.

عندما أقيمُ صلاتي في دجى الليل على بياض سجادتي، وأحج بجبهتي على رونق صفار فراشتها.

خيّم صمتٌ ليس بالطويل، فاستأنفت تقول بصوت شجي:

عندما أتأمّلُ الأحمر، أشعر بذرات الحياة وهي تتناغم بذراتي.

عندما أنظر إلى الأخضرِ، تنبعث إليّ كل روائح الربيعِ.

عندما أرنو إلى الأبيضِ، تنتابني هالةٌ من صفاء هدوء النفس.

عندما أحدِّق بالأصفر، تعتريني موجةٌ من الأنس.

ثم ركنَتْ إلى صمت كرّةً أخرى، فغدا يتأمل هالةَ جماليةِ ما تتأنّق به من تحفة الثوب.. بدا في حالة تناغمٍ مع كل لون على حِدَة، يتنقل من لون إلى لون، من مَعلَم إلى معلم، من إيحاء إلى إيحاء. ينظر إلى العلامة التي علّمتها الفراشة الصفراء على جبهتها من أثر السجود، وهي تداوم على الصلاة.

قالت وقد كسرت زجاج الصمت:

عندما أكون بعيدة عن رائحة أبنائي، أكون ذابلةً.

كلُّ ذرة فيّ تركن إلى جبل من وهن.

لا ليلي ليل..

لا نهاري نهار،

لا صيفي صيف،

لا شتائي شتاء،

لا خريفي خريف..

لا ربيعي ربيع.

عندما لا يكون أبنائي في محرابي، لا أطيق الحياةَ..

يفقدُ الوقت كل طعمٍ له دونَهم.

حينها أزداد يقيناً أن لا أحد لي غيرهم..
لا أحد لهم غيري،
أنا لهم، وهم لي..
وليس من سبيلٍ لأحدنا في معزل عن سبيل الآخر
قال: يا لعظمة تفاؤلك يا هولير!
قالت: تفاؤلي ينبع من قوة ما أؤمن به من سطوع الحقيقة.
كلما تكونُ قادراً على الحب، تكون قادراً على استيعاب كل ما يواجهك بهدوء وحكمة، لا شيء يستعصي حلُّه على الحبّ، بالحبّ فقط يمكنك أن تحيلَ خصماً إلى صديق، نجاحك في إيصال مشاعر حبك الصادقةِ إليه هو خير سبيل لتخفيف حالة الخصومةِ وزوالها لديه. كما أنك لا ترغبُ أن يستفزك أحد، عليك ألّا ترغبَ أيضاً أن تستفِزّ أحداً، كما أن الكلمة الطيبة يمكن لها أن تبعث نشوة إلى فؤادك، فإن ذات الكلمة التي تصدر منك ستبعث النشوة إلى فؤاد مَن يسمعها منك.
كما أنك تأبى أن تُوَجَّه إليك كلمة قاسية، فعليك أن تأبى توجيهها لأحد.
عندما يقسو عليك أحد بكلمة قاسية، عليك ألّا تبادِلَه قسوة الكلمة ذاتها حتى لا تقسو عليه كما قسا عليك، حتى تكون أكثر رقياً منه في نظره، ونظرك.
يحبك الناس على قدْر نجاحك في إشعارهم أنك جدير بمحبتهم لك.
عندما تكون قادراً على حبّ مَن لا يحبك، فتلك إشارة أولى من إشارات قيمة الإنسان لديك. هكذا تدرّج أجدادُك الكورد في قوة محبتهم للإنسان كقيمة، كمعنى، كسمو.
لذلك يشعر أي كوردي بفخر لأنه كوردي، يمشي في الطرقات مرفوعَ الرأس، يمشي بشموخ، يدبّ خطواتُه بثقة لأنه يقف على جذره الكوردي.
لقد أيقن أبنائي أن كل الكوردي على الكوردي حرام، ماله، وعرضه، ودمه.
أيقنوا أن الكوردي عندما يشرعُ في أي اعتداء على أخيه الكوردي، يكون قد خرج عن إنتمائه انتمائه إلى أمة الكورد.

كان من ثمرة هذا اليقين أنه أينع لديهم أن الكوردي عندما لا يعتدي على الكوردي، فإن ذلك يكون سبيله لعدم الاعتداءِ على غير الكوردي كذلك.

قال: هذه الخبرةُ الطويلة ماذا قدّمت لك؟

قالت: أن يبقى قلبي ينبض بالحبّ، أن يزدادَ رهافةً.

تعلّمت من حكمةُ الحكيم..

تعلمتُ من طيش الطائش،

تعلمت من السّنوات العاصفة،

تعلمت من السنوات الهادئةِ،

كيف يتحوّلُ الصبرُ إلى متعةٍ،

كيف يتحولُ كظمُ الغيظ إلى حالة نشوة

عندما تدرِّب نفسَك جيداً كي تتحصّن في مواجهة أعتى العواصف، في مواجهة طوارئَ لم تحسِبْ لها حساباً، تدرك ألّا بابَ يستعصي فتحُه بمفتاح الصبر، عندما تمتلك مفتاحَ الصبر، سيكون بمقدورك أن تفتح أبواباً كانت موصدة وقد أصابها الصدأ.

دوماً، للصبر ثمرةٌ يانعة لا ترتمي من شجرتها إلّا بيد ابن الصبر،

دوماً يحمل الصبرُ بشرى للصبور،

دوماً يحمل إليه قبس الفرج.

مهما بلغَت العاصفة من شدتها، فإنها تركن إلى هدوء.

الأصلُ في الحياة الهدوء، الشدّة طارئةٌ

الأصل في الحياة السّكونُ، الضّوضاء طارئة..

كلُّ أمر يركن إلى أصلِه.

ما يبلغه المرء بعد صبر هو خيرمما يبلغه قبل صبر.

تكون صبوراً، عندما تمارس مزايا الصّبر،

لا تكون صبوراً، عندما لا تمارس مزايا الصّبر.

عندما تصبرُ، يهديك الصبرُ هدوءاً عندما لا تصبر، يهديك اللا صبر اضطراباً.
تعلّمتُ من الملوك الذين مروا بي سواء مرور الكرام، أو مرور اللئام.
لم يثِر مخلوقٌ شفقتي قط قدر ما أثارها الملوكُ، كانوا أكثرَ الناس الذين عرفتهم ازدواجيةً حتى إنني كنت في كثير من المواقفِ أتحاشى النظر إلى ديكوراتهم المُقرفَة وهم يتسببون في إلحاق الهولِ بالناس.
لذلك تعلمتُ منهم أن السعادة تتحقق للكائن بقدر ما يقدّمها لغيره، وتتحقق له التعاسة بقدر ما يسببها لغيره. علمتْني التجارٓب أن وظيفة الحاكم هي أسوأ وظيفة يمكن للمرء أن يقوم بها، وأن نهاية هذه الوظيفة هي أرذل نهاية يمكن أن تُمنّى بها وظيفة.
الآن، عندما يحضرُ كل هؤلاء كأقزام شبحيّة إلى ذاكرتي، تحضر كل تلك التّركيبات المبهمة، كل تلك الأمراض المقيتة التي كانوا يُصابون بها عندما يتولّون زمام هذه الوظيفة، وحينها كم كنت أتمنى فيما لو لبثوا في مقاماتهم السّابقة، وحافظوا على ماء وجوههم. لم يسبقْ لي أن شهدتُ كائناً وقد امتلأت نفسه بالطغيان كما امتلأت نفوسُ الحكّام، ولم يسبق لي أن أخفيت مشاعري عنهم وأنا أقدّم لهم التنبيه تلو التنبيه، كانوا ينظرون لي نظراتِ ازدراءٍ، تلك النظرات التي كانت تحيلهم إلى أكثر كائناتِ الله كوميدية وأنا أرنو إليهم، أرنو إليهم وهم في ذروة انهماكهم في الحروبِ التي كانت تتصاعدُ وتشتدّ حتى تأكل الأخضرَ واليابس، تأكل الإنسان والحيوان والنبات والجماد.
بيد أنني أقفُ بإجلالٍ أمام ذكرى بعضهم، وقد ندروا، أقف بانتشاء أمام مواقف إنسانية عظمى بدرت منهم، مواقف كانت ترسّخهم بعمق في مشاعر انتمائهم الإنسانيّ النبيلِ.
العظماء يتكررون دوماً، بيد أنهم كالصدف النادرة التي تحظى بها حقب من الزمن، وتحظى بها مجتمعاتٌ من بني البشر.
كنتُ أساهرُ حاكماً، وأشاركه البكاءَ حينما كان يُبْكيه موقف إنساني، كنتُ أنظر إلى لآلئ الدموع تترقرق في عينيه كنفيس المرجان، وكنتُ أفخر بأنه حكمَني، واقترن اسمه باسمي رغم أنه احتلني ونزعني من أهلي، وقومي، وعشيرتي.

كنتُ أفخرُ لأنه كان يترك أثر الرحمة والتّآلف، كان يفجّر ينابيعَ قوة المشاعر الإنسانية في نفوس الناس.

أنا هولير، غنية، لا ينضُبُ غنايَ، غنية بكل هوليري، بكل زائر، بكل ضيفٍ.

بدأ ينظرُ إليها كما لو أنه ينظرُ إليها أول مرة، يكتشفُ بريقَ ملامح جمالها أول مرة.

يتذوّقُ مشاعر حبٍّ لم يسبق له أن أدركَها، يستمدّ منها حالةً من الارتقاء والسّمو في محراب جلالةِ بريق الجمال.

ترتسم بسمةٌ على ضفة ثغرها الوردي وتخرج الكلمات بترنيمة صوتها الشجي:

أرى بوابات الغدِ مشرعة بما لم تكن مشرعة من قبل، كما أنني أعيش الآن زهوَ قوة الحاضر، كما لم أعشْ من قبل.

لم يسبقْ لي أن كنت راضيةً عن أبنائي كما أنا راضية عنهم الآن، لم يسبقْ لي طوالَ كلِّ صفحاتِ ذاك التاريخ الغابر أن عقدتُ عليهم آمالاً كما عقدتُها عليهم اليومَ.

رفع نظرَه إليها وهو يتمتم: مباركةٌ أنت يا هولير، أنت عروسةُ الأمل.

* * * *

الجزء الثاني

سدرة العشق

مقام الهوى..

كلّما ينتهي شهرٌ مباركٌ من شهور عسلِ هولير الحافلة، تهِلُّ منارةُ شمسِ شهرِ عسلٍ جديدةٍ لم يسبقْ لها أن نثرَتْ بركات أنوارها على صعيدِ الدّنيا من قبل، تزدادُ هولير في ربوعه ألقاً، تتفتحُ براعم قرنفل صباها كما لم تتفتح في قمر شهر.

لا لمسةَ في عبق بهاء هولير تستنيخ لوهلة تكرار..

لا هنيهة في مَكْرمَات مقامها تخضع لرفّة جفنِ ضجرٍ،

كل لَبِنة من لبنات مسكِ صرحِها تستخرِج ومضَ تجدُّدها من ثنايا إطلالةِ هلالِ هنيهةٍ وليدة.

حتى الوجوهُ التي اعتادَت عيناه على رؤيتها في مدارِ كل يوم، تبدو وجوهاً مُتجدِّدةً في زهرةِ صبيحة كل يوم جديد، تفصحُ عن معالم سماتٍ جديدة لم تفصح عنها في يومٍ مضى.

هكذا يبدو الخبّازُ في مُستَهلِّ إشراقة صبحٍ هوليريّ جديد،

هكذا يحذو حذوَه السمّان،

هكذا بائعُ الحليب الذي يجلِبُ بضاعتَه صباحاً من عمق قريته إلى رُدْهات الأحياء المُستيقظَة للتو، فتجتمع عليه النّسوة الهوليريات حاملاتٍ بأكفهن الأواني ليملأنها حليباً طازجاً، تم حلبه عقب ركعتي صلاةِ الفجر.

هكذا بائع الجرائد اليوميّة الذي يفرشها على مسطبة أمام كشكه وهي ما تزال تحمل رائحةَ المطابع.

هكذا بائع الدجاج الذي يتجوّل في الطّرقات وهو يصيح بأعلى صوته: يالله مريشّك.. يالله مريشّك.

هكذا بائع إسطوانات الغاز الذي ينشر موسيقى بضاعته بين البيوت، هكذا إمامُ المسجد الذي تغمره هالةٌ من حياء.هكذا النسوةُ الهوليريات وهن يخرجْن باكراً من أبواب بيوتهن، يحملن بأيديهن حقائبَ صغيرةً محشوّة بنقود ورقية، يبتعن حاجات يومهنّ من حوانيت مجاورة. هكذا يدِبّ إيقاعُ الحياة، لحظةَ تشرق شمس صبيحة جديدة على بهاء قوامها، لحظة يخرج الهوليريون من بيوتهم ليصنعوا دعائم حياة يوم جديد.هكذا يستفتحُ مصباحُ وجه هولير صبحَه النّدي برهفات بسمةٍ وليدة لم يتلألأ بهمستها بهاءُ ثغرها في كرنفال يوم أفَلَ.

تمتلك أميرةُ أبناء الجن الأولى مقدرةً نافذة تهيمن بها على شغاف فؤاد كل ساكن في مساكنها، تدبغ أثر لمساتها على سماتهم، على نبرات أصواتهم،

على بناهم ليَتحدّوا مجتمعين في مزايا هوليريتهم، تجلو على هيآتهم نفحاتٌ هوليرية رقراقة، يفوح من أسمالهم شذى عبير الأم الجليلة.

لا يزهو ابنُ هولير بخصلةٍ قدْرَ زهوه بأنه هوليري ولِد من رحم هولير، رضع حليباً هولير ياً من حلمتَي ثديَين هوليريين رشفة رشفة.

ترعرع الهوليريُ منذ أزله على رضاعة حليب هولير يوماً إثر يوم، حتى إذا عمّر قرناً من الدهر، لبث طفلاً رضيعاً دون الفطام على صدر هولير، عندما يفتح عينيه صباحاً، يلوذ بحلمة ثدي الأم الرحيمة ليرتشفَ رشفةً من طيب حليبها تبثُّ في بدنه طاقة كافية لبذل جهد عمل يوم جديد، وعندما يخيّم سكون الليل، يضع رأسه على وسادته مسترخياً، وقد رشف من ثديها رشفة أخرى هيَّأت له الاستغراق في لفائف نوم عميق بعد عناء مشقّة يوم طويل.

استطاعت هولير أن تبسطَ نفحات حفرياتها على خلايا سكَنَتِها ليمسوا هوليريين بها، حيثما وطِئت قدما الهوليري في أي بقعة من سعة أرض الرب، ستجلو عليه آثار حفرياتها، يفوح من حواسّه عبيرُ هولير، كل لمسة فيه تبوح بشواهد هوليريته، حتى طريقته المميزة في احتساء كأسٍ من شاي.

هكذا تمتلك ربةُ مدن الكرد مُفاعِل فتنة مدهشَة يتهولر بظلال سحريتها كل بشرٍ يتنسّم ذراتِ نسيمها ما يزيد عن أربعين يوماً، حتى يلفاه يترنَّح هولرةً بثملِ بديعِ خمرها.

تقوم الربّةُ الجليلةُ بتعميده شعرة شعرة، ذرة ذرة بيديها الكريمتين، ثم تنشّفه بنفخة هوليرية مباركة في طشت ربيعها، بعدئذ تسقيه شربة من خمرة حبها، فلا يملك المقيم المعمّد بنقاء مياهها، المُنشَّف بختم نفخها إلا أن يلفاه مستنجداً تحت وطأة عتق روحانية خمرها الذي يجوب كل ذرة من ذرات بدنه الآفل.

يلقى نفسَه غداةَ عشيّة وضحاها وقد أمسى هولیریاً، تترطّب مدركاتُه بشذى صِلات رحِمية:

مع كل حمامة من رفائف حمامها،

مع كل نافورة من نوافير مروجها،

مع كل مقعدٍ من مقاعد حدائقها،

مع كل مدخل من مداخل أسواقِها،

مع كل مئذنة من قباب مساجدها،

مع كل حبَّة من عسجد ترابها،

مع كل لفظةٍ من إيقاع لهجتها.

حينئذ، لن يكون بمقدوره أن يسلاها رفّة جفن لو نزحت بينها وبينه هضاب العالم، وفي ذروة إدراكه بهول تلك المساحة الشاسعة التي تنزحه عن أثيرة عشق حواسه، لا يملك ذاك الشقي في أوج شقائه، أن يكبحَ جماح حنينه الهائج إلى كل ساعة من ساعات عمره الذهبية في فردوسها، ويلبث كيَتيمِ الدّهر الأعزل في غمرة توْق أبدية، لعل الله يجود عليه بمنحة نفيسة كرّة أخرى.

هولير جُنينةُ طمأنينةِ الرّوح السرمدية، تخبَر بأي زيزفونة تُنقّي أرواح سكنتها، مثلما يُنقَّى ثوب أبيض من دنس، بأي أرجوانة تبسط ظلالَ هوليريتها على ندى حواسهم.

علّمتْه هولير دروس الحب درساً درساً

درّبَته على ألفاظ العشق لفظاً لفظاً
أذاقته رحيقَ قطرات الغرام قطرة قطرة
مشّته على دروب الهيام خطوة خطوة
أسمعته لحنَ الوجد نغمة نغمة
حفّظته نشيدَ الهوى ثيمة ثيمة

علّمته أن الإنسان يرتقي في خصال إنسانيته قدْرَ ما يسلك نهج الحب، ويتهاوى من مجد إنسانيته قدرَ ما يسلك درب الضّغينة. علّمته أن كلّ نتاجات الإنسان العظيمة، أوقدَت شرارةَ إبداعها حالاتُ حبٍّ عظمى، وكلُّ نتاجاتِه المشينة، أوقدتْ شرارة إنتاجها حالاتُ بغض عظمى.حينما دنا أوانُ بزوغ الضوء، نهضت ملِكةُ الروحِ إلى جناح إيابٍ تاركةً وصيَّتها في مسمعه:

طهّرْ نفسَك بمسك طهرانيّة حسن ظنٍّ
رطّب لسانَك بترنيمةِ حسن ظن
أنعِشْ شمّك بلوتس حسن ظن
استمدَّ توازنَك بفضيلة حسن ظن
رجّح فكرك بحكمة حسن ظن
جدّد مخيّلتك برحابة حسن ظن
متّع ناظرَيك بأيقونة حسن ظن
نقِّ خلاياك بسكينة حسن ظن.

غمرتْهما نسائمُ ليلك صمت وَدَاعيٍّ استغرق زهاء عشر دقائق، ثم ما توانت أن انبعثت نبرات خزامى صوتها في مَعْمعة مسمعه:

ليس لقلبك رشيدٌ سوى رشيدِ مشكاةِ حسن الظن

ساعة تبدر بادرة حسن ظن بكائن ضمر لك غلاً، ثم يلقاك تجدِّد مليحةَ حسن ظنك بصنيعه كلّما عاود غلّه، فإنك تضع قدمَه ليمدّ خطوة أولى في درب تعديل صنيعه مهتدياً بما نفح عليه تكرار حسن ظنك من هدى.

شبك أناملَ كفيه بأنامل كفيها، ثم رفع بصره صابّاً جامَ ارتباكه في حدقتَي مقلتيها، وقد أشهر الفراقُ مُديته للفصل بينهما، فغدت نظراته تبتهل لنظراتها بكل ما ملكت من أسرار لغة النظر، وارتجاف حمّى الابتهال أن تتأنى ما أمكنها، وهو يتجرّع على مضض مرارةَ علقم الفراق الرّهيبة.

عند ذاك انبجسَت دموع رقراقة من رهفات فؤادها، وغدت تغالِب نُوَب بلعِ ريقها المثقل بغصةِ خطواتِ المغادرة قائمة على خلجات تأهبِ استعدادات الفراق الأخيرة.

تمتمت بغصّة حارقة على مقربة من مسمعه والدموع تنبجس من حدقتيها: إن لم يعدِّل من صنيعه، إياك أن تركن إلى ومضة ضجر، فإن استمرارَ حسن ظنك به إذ ذاك يمسي وبالاً عليه حتى يبيت في مدرج يتلقى فيه ناتج سوئه من ثنايا ديمومة حسن ظنك التي ما تتوانى أن تستمدّ خلايا تجددها.كلّما أحسنتَ الظن بأولئك الذين يكيدون لك كيداً حصّنت ذاتك من وقوع أذاهم عليك.

مسّدَت على شعره برفق وأردفت: إذ تدرّب نفسَك على سلوك حسن الظن، فإنك تلبث قائماً على مسار حسن ظنك حتى بالنسبة لأولئك الذين يقذعونك بأشواك الأذى وأنت تراهم رأيَ العين. وإذ تدرّب نفسك على سلوك سوء الظن، فإنك تلبث قائماً على مسار سوء ظنك حتى بالنسبة لأولئك الذين يقدّمون إليك الزهورَ وأنت تنظر إليهم نظر العين. ثم استرسلَت بُعيدَ وهَنات سكون:

مؤاخذةٌ تنالها عن ناتج حسن ظن، هي خير من مؤاخذةٌ تصيبك عن ناتج سوء ظن.دوامك على قبساتِ بادرة حسن الظن، يروي ظمأ زهرة الظن الحسن في تربة روحك، دوامك على ظلمات بادرة سوء الظن، يروي ظمأ شوكة سوء الظن السيئ في تربة روحك.

هكذا كل يوم.. كل يوم، تُدرّسه هولير صفحةً جديدة من درس أبجدية الوصب، وهي تمتلك قوامة مقدرَةٍ صبوةٍ متجذّرةٍ في عمق منارة جبل من شغف تتوّجَت أميرةٌ على قمته.

تخبَر كيف تكظِم غيظها، ولا تأذن لقلبها أن يجنحَ عن طوعها شطر ومضة غلٍّ واحدة تجاه نفس.

كل تلك الأحقاب الزّاخرة بتقويم أحداث عاشتها حدثاً تلو حدث، واقعة إثر صنوتها، رسّخت في عمقها يقينَ أن الإنسانَ يمكن له أن يحقّق معجزته الذاتية، ويرتقي إلى درجات سمو الفضيلة إذا استعان بطاقات الاستكانة في كوامنه، بيد أنه سيواجه إعصاراً من زيغٍ في تحقيق كينونته دون تفعيل رعشات الحب في حناياه.

لا تتوانى البتة من توصيةِ أبنائها بأن العمل الذي ينبثقُ من خصوبة أرضية الحب، يمكن أن تزدهر ذروةُ نتاجه بشجرة ورد عامرة، والعمل الذي ينبثق من جفاف أرضية الحقد، يمكن أن تزدهر ذروة نتاجه بشجرة شوك عامرة.

* * * *

شجرة الجبل..

ها هو عبقُ الصّيف المجيد، ينثر لقاح نفحاته في رحم نسائم جنبات هولير،
ها هي هولير تبسط أذرعَها بغنج للتناغم مع قوامة فصل جديد، كما لو أنه يمدّ رحاله إليها أول مرة، ها هي هولير ترتدي قميصَ الصيف المزركش، وتصرّ أن تبقى مشعشعة بأفق مروجها، بسعة حدائقِها العامّة المزدانة بنوافير المياه، بسجادة الخضرة المفروشة في ربوعها، فلا يجدُ الفصلُ الممتاز بحرارته مناصاً سوى أن يُخفّف ما أمكنه من وقع أنفاس حرارة شمسه في هذا المحجّ.
قفز إلى مخيلته ما همسته له هولير:

إن لم تشمس عليك شمس الصيف، لن يورقَ عليك ورق الخريف.
إن لم يورقْ عليك ورق الخريف، لن يمطر عليك مطر الشتاء.
إن لم يمطر عليك مطر الشتاء، لن تهلّ عليك دوحةُ الرّبيع.

لا يكون صيفكَ صيفاً، إلّا وخلاياك تتجدّد بشمسه
لا يكون خريفك خريفاً، إلّا وأنظارك ترنو إلى حكمة أوراقه
لا يكون شتاؤك شتاءً، إلّا ونفسك تغتسل بمطره
لا يكون ربيعك ربيعاً، إلّا ووردة نفسك تتفتح في دوحته

استند صوتُها إلى جديلة صمت، ثم ما برِح أن ترامى:
إن لم يكن لك خصوم، تلبث وحيداً بلا أصدقاء
إن لم يكن لك بغضاء، تمكث مترهّلاً بلا أحباء
ألف ضريبة نجاحٍ تقدّمها، خير لك من أن تُمنى بضريبة إخفاق واحدة.

هزّ رأسه وهو ينظر إلى الأرض، فأردفت بدفء نبراتها الهادئة:

عندما تُسدّد ضربة نجاح، فإنك تُسدّدها بلذةِ ظافر،

وعندما تُسدّد ضربة إخفاق، فإنك تُسدّدها بخذل مهزوم.

من أزكى فضائلِ النجاح عليك، أنه يفصِح عن الوجه الحقيقي لمبغضيك،

ومن أزكى فضائل الإخفاق عليك، أنه يفصح عن الوجه الحقيقي لمحبيك.

أن تكونَ ناجحاً يقذفك الفاشلون بحجارة فشلهم، ألف خيرٍ لك من أن تكون فاشلاً تقذف الناجحين بحجارة فشلك.

إن هذه الورود المزدهرة، تفتّحت إلى جوار هذه الأشواك،

إن هذه الأشواك الواخِزة، تشابكت إلى جوارَ هذه الورود.

مثلما الشوكةُ تؤدّي مُهمّةَ تحصين الوردة، يؤدّي الخصم وظيفة تحصين النجاح، ما يهَبُه لك الخصم من تحفيزٍ على آفاق النجاح، قد لا يهبه لك خلٌّ وفي.

النجاح الذي لا يتكلّل بخصوم، لا يتجاوز أن يكون سرابَ نجاح، كلما مددتَ أناملك إلى غمامِه، تلاشى بين فراغاتٍ، حتى يستكين فيك يقين أنك كنت مُتلبسّاً بحمّى تكهّن.

لولا تلك العاصفة الهوجاء، لما كان هذا النسيم العليل.. لولا هذا النسيم العليل، لما كانت تلك العاصفة الهوجاء.من أولى علاماتِ النّجاح الكبرى، ظهورُ ملامح خصومٍ لك من حيث تدري، ومن حيث لا تدري، وكلما تألق النجاحَ، أفصح عن ملامحِ خصوم. عندما تحيا في قلب واقع لا يجافيك فيه أحدٌ قط، فذلك برهان بأنك لا تملكُ مُقوّمَ نجاح طفيف يجدرُ أن يتكلل بخصم واحد.

تبتغي أن تكون ناجحاً، تجني نضيجَ ثمار نجاحِك دون أن يظهر لك خصوم، تبتغي أن تكون مثل شجرة، تريد أن تعتمر بالورود، دون أن تظهر عليها أشواك.

خيّم صمتٌ عليها، ثم ما توانت أن أردفت:

جميل الفوز، ما انبثق من رحم مشقةِ شجرةِ الصبر، أورقت زهرة الظفر.
الانفعال، علامةٌ أولى من علامات وقوفك خارج مملكة الصبر..
ما تحقّقه وأنت في محراب مملكة الصبر، يكون بعيداً عن متناولك وأنت في الخارج.
استمدَّ أجدادك صبرَهم من صبر الجبال على تقلّبات الفصول.

رفع نظرَه إليها إذ ذاك وقال: ما حكاية الكردي مع الجبال؟

نظرتْ إليه مليّاً وطفقت تقول: تزوّج الكردي الجبل، فأنجبَ جنةَ عدن على سعة أرض الرب. اكتنفَها سكون، وغدَت كأنها شردَت، انهمرت دموعٌ رقراقة من عينيها، وشرعت تقول بغصة:

جبل الكردي هو منزله الأول، جبل الكردي هو ستره.
كل أحقاب العجاف تلك، كل فصول الزهو الخوالي، برهَنَت للكردي الطريد أن جبلَه هو قريته المعطاءة، جبله هو عاصمته المضاءة، جبله هو دولته العصماء.

اكتنفَتْها هنيهات سكون، قطرتْ على إثرها حبقات دموع رقراقة إلى أرنبة أنفها، وشرعت تقول:

لا كردستان في كردستان إذا خلَت من أنس جبالها، إنها تستمد حيويتها على قدر ما تغتني بالجبال.
زينة كردستان، لآلئ جبالها. حلّة كردستان، منارة جبالها.
إن خلت كردستان من بهاء جبالها، جُرِّدَتْ من ألق كردستانيتها.
إذا ضحكت جبال كردستان، ضحكت لها جبال الكون.. إذا دمعَت جبال كردستان، دمعت لها جبال الدنيا.
كردستان خالدة، ما بقيتْ جبالُها قائمةً
لا قوة للكردي دون جبله..
لا سند للكردي دون جبله،

لا ظهر للكردي دون جبله،
لا شمس تشرق على الكردي، في منأى عن جبله.

حينها ومضتْ في مخيلته فكرة الانطلاقة إلى رحابة الجبال، يسامر حوافَها، يداعب حصاها، يرتوي من عذوبة عيونها، يتسلّق تعرجات مرتفعاتها، يتلمّس نبض طقس الحياة في بيئة الجبل، وهو الذي عاش في قاع المدينة الملتهب، ترعرع على إيقاع صخب الحياة في ردهاتها.
إنها فرصة العمر الذهبية نحو التوغل في هضبة ميراث الكرد.
عند منحدرِ برودةٍ عصرَ يوم من الشهر التالي، لمّا ترامت إلى مسمعه طرطرة درّاجةِ جاره (دلزار) النارية ذات العجلتين، هبّت به قدماه إثر فكرة خطرت له، هرول إلى باب الحوش، فرأى جارَه يوقف الدراجة على وقافتها: باشي كاك دلزار.
التفتَ إليه دلزار مجيباً: زور باشم.
قال: تلزمُني دراجة لعدّة ساعات.
أجاب بوجهه البشوش وهو يمدّ إليه المفتاح: دراجتي تحت أمرك.
شكرَه قائلاً: ليس الآن /به ياني/ صباح الغد.
هزّ رأسه وقال: على عيني عزيزي.
ممنون، قالها وعاد ببهجة إلى البيت يخبر آفان بأنه سيخرج صباح الغد لقضاء يوم بين جبال هولير بواسطة الدراجة.
شجّعته على الفكرة قائلة: حسناً صنعت، ستغيّر الجو قليلاً، لكن رجاءً قُد على مهلك حرصاً على العملية، الجرح يبقى جرحاً مهما التئمَ.
في السادسة صباحاً، طرق عليه جاره الباب وقال:/ به ياني باش/ صباح الخير، الدراجة جاهزة. أبدى له امتنانَه الجمَّ وهو يتناول من يده المفتاح، ثم ما لبث أن خرج بعد نحو نصف ساعة.

اتجه إلى أول /بنزينخانة/ كازية وصلها، وعندما فتح قارورة الخزّان ليملأ وقوداً، رآه ممتلئاً حتى الكظة، اعتذرَ من عامل الكازية قائلاً: /به بورا كاكا/. ثم اتجه بها صوبَ الجبال. دهمَته نسائمُ نشوةٍ غامرة، وهو يستمتعُ بقيادة الدراجة منشرِحَ النفس متجهاً إلى ربوع جبال هولير. بدتْ كرةُ الشمس الأيلولية أقلَّ سطوة وهي ترتفع وترسِل حرارتها النّافذة إلى شريان صبح هوليري جديد، يمضي بالدراجة منطلقاً كما لو أنه ملك، يدنو من شهقات الجبال وهو يدندن:

أيتها الجبال الشمّاءُ،
جبال آل الكرد الأزلية..
أيتها الجبال الثائرة
منك استمدّ الكرد ثوراتِهم
أيتها الجبال المباركة
فيك ينابيع الحبُّ.. ينابيع الحياة.

راودَه حينئذ شعورٌ بأن علاقة الكردي بالجبل، هي كعلاقة الوليد برائحة أمه، عندما ولجَ إلى منحدرات طرق مفروشة بالحصى، أخذ يخفّف من سرعة الدراجة متأملاً هيبة انتصاب الجبال، يتوقف قليلاً، يُخرِج جهازه الخلوي، ويلتقط صوراً، ثم ما يلبث أن يكملَ المسير ببطءٍ في وعورة الطرق الملتوية. حينئذ استغرقَ في تأملٍ عن مدى حاجة الأرض إلى سلاسل الجبال التي تنتصب على سطحها بكل ما أوتيت من ثقلٍ، وهي تمدّ جذورها إلى أعماق الأرض لتتشابك بها وتجعلها أكثر ثباتاً، فينصّب الجبلُ نفسه مَلَكاً بسطوة نافذة على الأرض دون أن يجاريه في ملكه أحد قيد أنملة.

أوقف الدراجة، وبدأ يرفع ناظريه إلى السفوح: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}[١]

---

[١] سورة ق، الآية ١

ردّد الآية وهو يتخيّل كيف أن جبلاً تبوَّأ مرتبة حمل سورة من القرآن، الجبل الذي يصفه النبي بأنه /يتكوّنُ من ياقوتٍ أحمر وفضة بيضاء وزجة في زمردة خضراء له ثلاثة ذوائب واحدةٌ في المشرِق وأخرى في المغرب، وأوسطهم في السماء/.

الجبلُ ذاته الذي لفت نظرَ ذي القرنين من قبل عندما مضى بجانبه ورأى حوله جبالاً صغاراً، فناداه: يا قاف، ما هذه الجبال من حولك؟

قال: هذه عروقي، ليس في الدنيا مدينة إلّا، وفيها عرق منها، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً، أمرني، فحرّكت ذلك العرقَ، فتزلزل تلك الأرض.

استغرق في التأمل وهو يسيرعلى قدميه متسلقاً ظهر جبل: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } [٢]

ثم تخيّلَ أن هذا الجبل رغم جبروته، يذرف الدموع، تذكّر قول علي بن أبي طالب: /مررتُ أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بجبلٍ، فإذا الدموع تخرج من بعضه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك يا جبل؟

فقال: يا رسول الله كان عيسى مرّ بي وهو يخوِّف الناس بنارٍ وقودها الناس والحجارة، فأنا أخاف أن أكون من تلك الحجارة.

قال له: لا تخف، تلك الحجارة الكبريت، فهدئ فهدأ الجبل وسكن/.

ثم أخذ يردد:

{وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً} [٣]

بدأت الجبال تفصِح له عن معالم كنوزها، وبدا كما لو أنه منقّب آثار ينبش في عمق المكنونات ليشعر برابطةِ قرب بينه وبين الجبال، تدهشه لمعات مُكْتشفَاته التأملية.

---

[٢] سورة الحشر، الآية ٢١

[٣] سورة الأعراف، الآية ٧٤

توقفت به قدماه في قمة جبل، وغدا يجوب بنظراته أعالي الجبال الكثيفة التي تحيط به، فتتحوّل في لحظات أمام عينيه إلى نجوم الأرض، تمّد الإنسان بمقوّمات الحياة، فلا يرى نفسه إلا وهو يلوذ بها ليستجلب منها دعائم عمارة الأرض، ويستخرج من بواطنها ثرواتٍ من نحاس، وحديد، وقصدير.

حينئذ أراد الإنسان أن يتعرف على مزايا الجبل أكثر، تلافياً لأي لبْس بينه وبين مرتفعات قرينة؛ وفي غمرة ديمومة تشاغلِه أفصح له الجبل عن مزاياه التي لا تقل ارتفاعا عن ألف قدم، فكان على الإنسان أمام هذه المعرفة أن يفرز المرتفعات الشبيهة، ليتحوّل ارتفاع ٥٠٠ قدم إلى سهل، وما يعلو ذلك إلى ٩٩٩ قدم يكون تلّاً.

هذا الفرز الذي استطاع أن يرسّخ التركيز على مقومات الجبل ليصبح جبل /إفلاست/ أعلى جبل على سطح الأرض لا ينازعه في علوه جبلٌ قط، وهو ينتصب على ارتفاع ٨٨٤٨ متراً، ثم تتميّز القارة الآسيوية بأنها تتمتع بأكبر مساحات جبلية على الأرض، وهي تضم في مساحتها نسبة ٦٤ بالمائة جبلية، ويتبيّنُ أن قارة أفريقيا هي الأقل جبالاً بما تضم من مساحة ثلاثة بالمئة فقط جبلية.

بين الرقمين الأعلى، والأدنى، تأتي نسبةُ الوسطية لتتمتع قارةُ أوربة بنسبة ٢٥ بالمائة جبلية، و٢٢ بالمائة لأمريكا الجنوبية، و١٧ بالمائة لأستراليا.

مع مرور الزمن، تحولت الجبال إلى ثروة اقتصادية يستخرج منها الإنسان: النحاس، والحديد، والقصدير.

استغرق به التأمل وهو يتخيّلُ غنى أشكال هذه الجبال التي تختلفُ بمزاياها من نسق إلى نسق، فلا المنطويةُ تتطابق مع المُتصدِّعة، ولا المتصدّعة تتطابق مع البركانية، ولا البركانية تتطابق مع المُقَبّبة، وهي تشكّل مساحة ٢٤ بالمائة من الأرض، تمدّ نصف سكان العالم بالمياه، وتوفر المأوى لنسبة ١٠ بالمائة من البشر.

عندما بلغت الساعة الثانية، أحس بشيء من الجوع، فتوقف بدراجته تحت ظل شجرة سرو، تحيطه الخضرة.

مدّ يده إلى خرج الدراجة، وسحب كيساً شفافاً، تذكّر أن آفان دسّته في الخرج وهي تقول: علّك تحتاجه.

فتح عُقدتَي الكيس فرأى تفاحةً، وعبوة رائب، وصندويشتين من صدر الدجاج.

خمّن أنها شوت شرائح اللحم على الغاز بواسطة شوّاية الماريا في وقت متأخر من الليل، وأعدتْ الوجبة كي تكون جاهزة في الصباح.

في تلك اللحظات، خطر له كيف أن المرأة تشكّل دعامة أساسية في حياة الرجل، وأن حاجته إليها تفوق حاجته إلى أي مقوّم آخر في الحياة.

تصوّر عمّا كان سيحل به وبالأولاد لولا وجودها إلى جانبهم، هذه المرأة التي آثرته على كل ما يعنيها في الحياة، وها هي تبذل كل ما بوسعها كي تخفّف عنه من وطأةِ مسؤوليات المعيشة اليومية في رحلة اللجوء؛ تتجاوز مسؤولياتِها في كثير من المواقف لتقومَ بما هو واجب عليه أيضاً حتى توفّر له أكبر مساحة من الهدوء.

يشرد بكل هذه المهمات التي تقوم بها المرأة بهمّة وجدّية، يُدرك بأنها عمودة البيت، عمودة العائلة؛ عمودة العلاقات الاجتماعية، عمودة صلاتِ القربى، وليس بوسع الرجل أن يلمس ذلك في منأى عنها.

خطر له آنئذ أن الرجل يشكّل عبئاً على المرأة في مختلف مراحل حياتها، بيد أنها لا تجد مناصاً سوى أن تحتمل بكظم غيظ رغمَ ما يُسبب لها من أعباء، لأنها لا ترى غير ذلك كي تحافظ على العائلة التي كوّنَتها.

راق له أن يتأمل حال البنت عندما تولد، ولا تحظى بما يحظى به الولد من الابتهاج بقدومه، وعندما يتشكّل وعيها، ترى نفسها مرغمة على تحمّل ضريبةِ أنها أنثى، ثم تنمو سنة تلو سنة على تحمّل ما تلقاه من الرجل الذي يتمادى ليبسط سلطته على أدق تفاصيل حياتها الخاصة؛ تلبث قائمةً على حالة التحمّل، ويلبث قائماً على التدخل في مقومات حريتها الإنسانية، ترضخ له حتى وهو يفرض عليها ما ترتدي من ثياب، وهي

توقن بأنها لم تكن لتقبل ذلك لو لم تكن أنثى، ولم تكن لترضخ لو لم يكن صاحب الأمر ذكراً.

عند ذاك تشتعل في مخيّلتها فكرة تكوين بيت خاص بها تكون سيدته، وتتخلص من سلطة الأب والأخوة وبعض الأقارب، لكنها ما إن تقترن بشريك العمر حتى تُلفِيَ نفسها أمام قيود جديدة، تنبثق من وقع حياة زوجية.

تستعين بخبرتها المتراكمة مع الرجل في مشقة مقدرة التحمّل لاستيعاب تدخلات هذا الرجل الجديد السافرة، وتحمّل كل ما يبدر منه، فتحتمله ساعة غناه، تحتمله ساعة فقره، تحتمله ساعة عافيته، تحتمله ساعة مرضه، تحتمله ساعة فرحه، تحتمله ساعة ترحِه، تحتمله في حله، تحتمله في ترحاله.

افترَّ ثغره عن بسمة ثم أخذ يتمتم ويهز رأسَه دهشة لجلَدِها على طاقة التحمّل:

حتى في فراش النوم، فإن المغلوبة على أمرها لا تملك سوى أن ترضخَ لحمله.

ثم راح يتخيّل عالم الحيوان، حيث لا ترى الأنثى بدّاً مهما هربت بأنوثتها سوى أن ترضخَ للذكر، وهو يطاردها برعونته كي يستوي عليها، ترى نفسها في النهاية تستكين لحمله كي يدعها في حال سبيلها.

تخيّل أن النعجة الوديعة، تحتمل جلافة الكبش وهو يقوم عليها، رعونة الحصان وهو ينال من أنثاه، خيلاء الديك وهو يقع على الدجاجة. تبيّنَ له أن بعض هذه العمليات لا تتوانى أن تكون حالاتِ اغتصاب، بيد أنها تستمدّ شرعيتها من مؤسسة الزواج، فيتم ذلك بالرّضى من قبل المرأة على مضض مكرهة كي تجنّب نفسها لعنة الملائكة عليها حتى تصبح إذا أمسكت نفسها عن بعلها، وبات قامعاً رغبته بها.

ثم تخيّل علامات الخشونة على الرجل مهما اتّسم بالوسامة، علامات النعومة على المرأة مهما اتّسمت بالخشونة. تخيّل ذلك حتى في عالم الحيوان حيث يمتازُ الذكر بالرعونة، بينما تمتاز الأنثى بالشفافية، ولا يختلف الأمر سواء بالنسبة للحيوانات الأليفة، أو الحيوانات الشرسة.

عندما يقدم الابن على فعلٍ حسن، يغبط أبوه وهو يقول بزهو: عفارم عليك يابني، ابن أبيك. وعندما يقدم على فعل مشين، يوبّخ زوجته قائلاً باستياء: هذه نتيجة تربيتك لابنك. تصغي إليه، ولا تملك سوى أن تجعل من ذلك حملاً آخراً تضيفه إلى جملة ما تحمله من الرجل.

ينظرُ إليها، فيزدادُ شكراً لله الذي أكرمه بامرأة طيبة كهذه، يدرك بأنه لم يكن ليحظى بزوجة تتمتّع بهذه المساحة من فورة النقاء لولا عظيمُ فضل الله عليه، حتى بات أحياناً يقدّم شكره لله من خلال تكريمه لها، فيوازي مقدار تكريمه لها بمقدار شكره لله، ومقدار جحوده لجميل الله، بمقدار ما يسبّب لها من لحظات استياء، عندما ينظر إليها، يذكر فضل الله عليه، ويمتلئ شعوراً برهبة المسؤولية تجاهها. دوماً تذكّره بأنه طفلها الأثير، عندما تمضي معه في الطرقات، ويريد أن يعبر طريقاً، فإنها تمسك بيده جيداً وتعبر به الطريق.

عنايتُها الفائقة رسّخَت لديه حالةً من الطفولة، فبات يعتمدُ عليها في احتياجاته كما لو أنه طفل، يعتمد عليها حتى في احتياجات البيت والأولاد والعلاقات الاجتماعية.

يشعر بأمان عندما يغفو على ترنيمة صوتها، وعندما يفتح عينيه، أو يجفل في دجى الليل، يشعر بطمأنينة وهو ينظر إلى عينيها المغلقتين، وكلما ينظر إليها نظرة، يكتشف شيئاً من سر الله في المرأة.

بدأ يتناول الطعام، وهو يتأملُ صفحةَ الطبيعة من حوله، يستمتع باكتشاف لمساتها الجمالية؛ يتخيل: كم من أناس مروا من هنا، كم من أناس عاشوا هنا، وبقيت هولير شاهدة على كل شيء،

تفوح رائحتها من كل جبل،

من كل تلّ، من كل منخفض،

من كل شجرة.

أدرك في تلك اللحظات وقد استلقى على ظهره إثر التّفرُّغ من تناول الطعام، أنه في قلب هذا المكان، يكتشف جانباً من بريق أسرار هولير، يتلمّس ما لم يتلمسه في نبض المدينة.. أدرك أنه هنا غدا أكثر قرباً من مكنونات هولير، أكثر معرفة بملكة الكرد الأزلية.

راودتْه رغبةٌ بأخذ قسط من راحة وهو يسبِلُ جفنيه مستسلماً لرغوة غفوة.

لا يدري كم من الوقت مضى على غفوته عندما استيقظ إثرَ شعوره بقرصة نملةٍ على كتفه، مدّ أناملَه إليها وقذفها، ثم ما لبث أن هب واقفاً على قدميه، وأخذ يستكملُ قيادةَ الدّراجة متأمّلاً ملامح الجبال التي يمضي بجانبها وهي تتحوّل أمام ناظرَيه إلى امتدادات متداخلة مع بعضها البعض على مساحة ٥٠٠ ٠٠٠ كم مربع من أراضي دولة الكرد القويمة، تزيّنُ صدرَها سلسلةُ جبال زاكروس الذهبية، ثم تأتي جبال أرارات لتتلألأ على كتفيها كما لو أنها كواكبُ مضيئة، ويلف خصرَها الميّاد حزامُ جبال طوروس المزركش، وعلى تفاحتَي الخدين تتورّد إشراقة جبلَي قنديل، هوار، تحاذيهما شامةُ جبل ليون، ثم ينتصب جبل عفرين بشموخه ناثراً مسكه في الأرجاء.

{ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } [٤]

قفزتْ الآيةُ بغتة إلى مخيلته، فبات يردّدها كلمة، كلمة وهو يتخيّل منظر الطوفان الأكبر الذي تعرّض له الإنسان، الطّوفان المِفصليّ الذي محَقَ كل شكل من أشكال الحياة ليؤسس جبل كردستان المبارك (الجودي) لمقومات حياة بشرية جديدة، وهو يستقبل سفينةَ النجاة الوحيدة، ثم ينطلق الإنسانُ من جديد، في عمارة الأرض، ويعيد

[٤] سورة هود، الآية ٤٤

بناءَ ما دمّره الطوفان من أركان الحياة، ليعبقَ كل إنسان بعد ذلك برائحةٍ من عطر الجودي، ويدرك بأنه مدين بنفحات من فضل الجودي عليه.

بيد أن الكردي أبى الخروجَ عن جباله متنازلاً عن السّعي لإقامة أركان دولته في بقعة أخرى من بقاع الأرض، عندما انتشر الناس في أخاديد المناكب، ورسمُوا لأنفسهم حدودَ دول خاصة بهم، وهم يتقاسمون الأرض.

عندئذ رسمَ الكردي حدود دولته في الجبال التي يقْطُنُها، وهو يعلن قيام دولة أمة الكرد، كردستان إلى جانب بقة أمم الأرض.

بدأت الخارطةُ تجلو أمامَه وهو يتخيّل أطماعَ الدّول المجاوِرة التي بسطت نفوذ سلطتها إلى المساحات التي تمكّنت منها وشيئاً فشيئاً أخذت تضمّها إلى حدودها، وحتى تضمحلَ القومية الكردية وتنصهر، بدأت المحاولاتُ لمنع الكردي الحديث بلغته، وحظر أي ممارسةٍ من شأنها أن تشيرَ سواء من قريب، أو من بعيد إلى هذه القومية المحظورة المحصورة بين دول أربع، حيث استولَت بلاد عثمان على أكبر مساحة من الغنيمة، ثم تلتْها بلاد فارس، ثم تلاها العراق، ثم سورية، لأن بقاء أي بقعة مجاورة لدولة دون بسط سيطرتها، تكون بمثابة نقطة انطلاقة للكرد من أجل استعادة بقية البقاع. لفتَ نظرَه أن مساحة بلاد الكرد الغنيّة بالثّروات كانت خلف كل تلك الأطماع التي اشتركَت فيها دول الجهات الأربع، ولو كانت عبارة عن جبال جرداء، وصحراء خالية لما دنا منها أحد. أخذ يواصِلُ سيره بتمهّل في منعرجات الطرق وهو يتأمّل اغتناءَ أراضي الكرد بمصادر المياه الوفيرة التي تنعش فيها مقوماتٍ لثروات طبيعية، حيث يمتدّ نهر آراس، وهو يجري الهوينى من إقليم بينجو على طول ٩٢٠ كم ليتكلل في مصب بحر قزوين.

من جانبه يشمَخُ نهر دجلة بعراقته، وهو ينبع من بحيرة جولجوك، التي تستريحُ في ضفة طوروس تحت إطلالةِ المنحى الشمالي لديار بكر، ليواصلَ مجراه حتى يستقبلَه مصبُّ خليج بلاد العرب.

وتجد ديارُ الكرد حصّةً ثمينة لها في عذوبة نهر الفرات، فينبع فرعُه (قراصو) في دوملوتبة على شرفة شمال أرجروم، إلى جانب نبع فرعه (نهر مراد) من ألاداغ المسترخية بين بحيرة (أوان) وخصوبة جبال آغري، ثم يتعانقُ الفرعان بشوق شمال مدينة (ألازيغ) ليشكّلا نهر الفرات، الذي ما يتوانى أن يخترق المساحات العراقية السورية حتى يجد له في خليج العرب صبابة.

إلى جانب ذلك يطل نهر قيزيل أوزان الجميلُ نابعاً من دوحة جنوب غرب مدينة ديوان درة في أيلن، ويضخ مياهه إلى إقليمَي زبخان، وميانة، ومن هناك إلى جنوب مدينة رشت ليصب في بحر قزوين.

ثم يأتي الزاب الكبير، إلى جانب أخيه الزاب الصغير، ليصبّا معاً في نهر دجلة.

مياه عزيرة،

جبال عالية،

خضرة وفيرة.

أحسَّ بنشوةِ انشراحِ الصّدر وهو يتخيّل كيف أن الكردي يستفيق في الصباح الباكر ليبذل قصارى جهده وهو يقوم بفلاحة وزراعة جباله، ويملؤها خضرة حتى لا يقول قائل: جاعَت دابّةٌ، أو جاع طير في كردستان.

في غمرة هذه التّأملات التي اجتاحَتْه، وهو لم يزل يمضي الهوينى على ظهر درّاجته، قفزت إلى ذاكرته وقائعُ تلك الزيارة التي قام بها إلى مستوطنة (نيفالي تشوري) ورؤيته لتلك المكتشفات الأثرية من الملاعق، والإبر، والمِدقّات التي تُستخدَم في دق الحبوب وطحنها، وأقراص المغازل الصوفية التي توضح طريقتهم في حياكة الألبسة، وأحجار الرّحى، والمساحيق، والمناجل ذات المقابض الكبيرة، والمبذار، والمحراث.

وهي تشير إلى رقي أجداده في نمط معيشتهم، ثم ما لبثت أن تداخلت وقائعُ زيارته مع تلك الآثار والكهوف التي قام بها، ورأى فيها إيقاعات الحياة، تذكّر:

كهف كونه شمشم بمساحته ٧٠ متراً في دربنديخان.

كهف سيدر بمساحته ٦٠ متراً بالقرب من بركلو.
كهف كونه كه فتيار بمساحته ٤٠٣٠ متراً بالقرب من مملحة في منطقة سنكاو.
كهف ترشاوطه بمساحته ١٠٧ متراً في جامر بز بجبال آشداح في منطقة سنكاو.
كهف بير بابكر الذي يمتدّ إلى طول ٢٦ متراً في ملومه.
كهف كونه با الذي يمتدّ إلى طول ٦٣٠ مترا في جبال كولان بدربنديحان.
كهف سحرا الذي يمتدّ إلى طول ١٠٥٠ مترا في منطقة نهر زبزان.
كهف هزار ميرد الذي له ١١ مدخلاً في سهل برانان.

عندما تباطَأت به عجلتا الدّراجةِ حتى ألفاها توقفت، وانطفَأ محرّكها، بدا كما لو أنه كان في حلم طويل يجوب أعماق التّاريخ، وبغتةً استفاقَ من حلمه.

أراد أن يدير المحرّك مراتٍ عديدة، إلّا أنه أبى الاستجابةَ، عندئذ أمسك المِقوَد بكفّيه، وبدأ يدفع الدراجة راكضاً بها لعلها تستجيب، أعاد الكرةَ مرّاتٍ عديدةً حتى نال منه اللّهاث دون أن يفلح في مراده. عندما توقف بها، امتدّت كفُّه بآليَّة إلى غطاء الخزان، حرّكه عدة حركاتٍ بشدة، ليتبيّن له نفاذ نفاد الوقود.

تعجّبَ للأمر وهو يدرك أن الوقود قبل أن ينفد، يتحوّل إلى الاحتياط، فمدّ يده إلى عيار الخزان ليراه معطلاً.

عندئذ وقف في حيرة وهو يشعرُ بنوبة هلع تدهمه، مدّ يده إلى جهاز هاتفه كي يجري اتصالاً بزوجته، وبعد عدّة رنات ترامَى إلى سمعه صوتها الذي جعله يشعر بنسمة طمأنينة، بيد أنه في ذات اللحظة فوجئ بانقطاع الصوت.

وعندما أراد أن يعيدَ الاتصال، رأى نفادَ الشحن، أدرك أن ذلك حدث بسبب كثرة الصور التي التقطها، إلى جانب مقاطع الفيديو لأماكنَ لفتت نظره.

صوّب عدّة رمقاتٍ إلى جهاز الهاتف الصامت في راحة كفه، ولا يدري لماذا قفزت في تلك اللحظات إلى مخيلته مقارنة بين الجهاز، وبين الانسان.

أخذ يقلّبُه في يده، وقد خلا من أي شكل من أشكال الحياة، انطفأت فيه قبْسَة الحياة التي كانت تجعله متألقاً ينبض حيوية، أمّا الآن، ها هو صامت، منطفئ لم يعد يمتلك أن يَسمع، أو يُسمع، يَرسل، أو يُرسل إليه.

حتى ذاكرته تعرّضت للجمود بحيث لم يعد بإمكان أي معلومةٍ مُخزّنة فيها أن تبدي حركة. استدار بنظراته إلى الدّراجة أيضاً وهمهم: ها أنت يا دراجتي لا تختلفين شيئاً عن هذا الجهاز، وقد خيّمتْ عليكما انطفاءةُ مشكاةِ الحياة.

ثم راح يجوب بنظراته في الأفق، عندها أدرك للتو أنه فقدَ معرفة الوقت أيضاً، وقد استدرك بأن الجهاز كان المصدرَ الوحيد الذي يحدّد له الميقات.

رمق جهازَ الهاتف الصغير في كفه، وكأنه للتو استدرك بأنه كان الوسيلة الوحيدة لتواصلِه مع الآخرين، والمصدر الذي يحدّد له الميقات.

أبقى الدراجة على وقّافتها، ومضى مهرولاً تحت سطوة الهلع في عمق طبيعة مشرعةٍ على كل احتمال، دون أن يحدّد لخطواته اتجاهاً بعينه، وهو يوزّع نظراته في كل الجهات لعلها تقع على أي شيء يتحرّك يمكن له أن يقدّم إليه نجدةً، بيد أن اليأس غدا يغزوه رويداً رويداً وهو يبلغ حدّ الإنهاك هرولةً، فجلس في أرضه، وهو يرمق علامات الغروب تزحف، وأجنحةَ الظلمة تتسرّب لحظة تلو لحظة لتخيّم على الطبيعة، الأمر الذي بثَّ مزيداً من الذعر في أوصاله، لكنه في ذات اللحظة امتلأ يقيناً بأنه يعجز عن القيام بأي فعل ينجده من براثن ما وقع فيه.

بدأ يرقب الليل وهو يهبَط بحلكته التي تداخلت في ثناياها أصواتُ حيوانات مختلفة من كل حدب وصوب، وهي تنتشر وتتعالى كما لو أنها كانت متلازمة لسواد الليل. عندئذ انتفضَ بكل ما استوطنه من فزع، وهو يتلمّس وقع أقدامِ حيوانات تدنو إليه، جرى إلى شجرةِ توتٍ قريبة على مقربة منه، وأخذ يتسلّق حتى وقف على غصن وهو يرقب حركات الحيوانات التي بدأت تتحلّق حول الشجرة، وتصدِر أصواتاً مرتفعة تارة، وتارة تتعارك بضرَاوةٍ.

حينها أدرك أنها تتعارك فيما بينها في سبيل من يظفر بنهش الغنيمة المنتصبة على الشجرة. إثر حدّة عراكٍ استغرق نحو ساعة، انصرفت الحيوانات المجتمعة حول الشجرة جميعاً، حينئذ بدأ ذئب يصدر عواءً كما لو أنه هدير طائرة، وهو يتسلّق جذع الشجرة.

انفجرت منه صرخة مدوّية، وبدأ يستنجد بالأغصان وهو يرتفع ويهزّ الجذوع بقوة؛ في لحظة أحس أن صوته بدأ يتحاورُ مع عواء الذئب الذي بات على مقربة منه، فكلّما يطلقُ صرخةَ ذعر، يستجيب الذئب بنبرة عواء جديدة، وكلما يصدر الذئب عواء، يطلق صرخة ذعر جديدة. أدرك آنئذ أن الذئبَ تعارك مع كل تلك الحيوانات حتى ينفردَ به، وأنه لن يتنازل عن غنيمته مهما كلّفه ذلك من مشقة، وما وجد إلى ذلك سبيلاً.

في تلك اللحظات الأكثر ذعراً في حياته، بدأ يتخيّل كيف أن الذئبَ ينقضُّ عليه، ويبدأ في نهش لحمه دون أن يجسُرَ على أي ممانعةٍ، أدرك معها كم أن الإنسان مخلوقٌ متناقض، فهو الذي يملك أن يقتلَ ملايين البشر، يسحق طبيعةً بما فيها من أشكال الحياة الإنسانية، والحيوانية، والنباتية.

بذات اللحظة ها هو يقف عاجزاً عن مواجهة حيوان يصغرُه حجماً، وقد ملأ أوصالَه بالهلع، ها هو يتخيّلُ كيف أنه يستسلم بوهن لفكّي هذا الحيوان كي ينقضَّ عليه دون أن يبدي أي مقاومة.عندئذ بدأت تتّضح أمامَه معالم القوة الحقيقية، ومعالم القوة الجبانة، فها هو الذئبُ الأعزل، وهولا يملك سلاحاً سوى أسنانه، وذاك العواء الذي يبث الذعر، وهو يقوى أن يأكل هذا الإنسان، وقد أسلمَه لمصير فكّيه دون أن يتزوّد بأي سلاح عمّا يحمله هذا الإنسان، أو يتمتع بقوة تفوق ما يتمتع به.

بعد محاولات عدّة، وقضاء ما قُدِّرَ بساعة من الوقت، توقف الذئب عن المحاولة واقفاً تحت الشجرة.

بغتةً وهو يترقّبُ بحذر، تعرّضت الشجرة لرجّةٍ قوية بكامل أغصانها، فانتبه بأن قوائم الذئب قد خذلته في الصعود مما أدّى إلى تزحلُقِه بين الأغصان نحو الأسفل.

كان ذلك بمثابة تنفّسٍ له، و تسلّقَ حتى بلغ قمة الشجرة، من جانبه أعاد الذئبُ الكرّة، بيد أن الأغصان أخذت تحول بينه وبين مزيد من التسلق حتى غدا فاقداً الأمل بعد محاولات متكررة.

عند ذاك لمح جسد الذئب ينحدر عن الغصون، ويبرحُ الشجرة، لكن ذلك لم يبثَّ إليه الأمن، لأنه تكهّن بأن الذئب قد يكون متوارياً تحت جنح الظلمة بالقرب من الشجرة في حالة ترقّبٍ لنزوله.

حينئذ ما توانى أن جلس على غصن يقِظَاً كنسر دون أن يغفل له جفن وهو يرى الحيوانات الشرسة تمضي في الأسفل وتُصدر أصواتاً قوية حتى خال له أن الموضع الذي هو فيه أمسى ساحةً لهذه الحيوانات لاستعراض نغماتِ أصواتها حيث غطّت هذه الأصوات على كل شيء وكأن لا شيء غيرها في المكان.

تداخلَ زئير الأسد، بقهقاع الدب، وضباح الثعلب، بنزيب الظبي، وبدا له أنه يستمع إلى فحيح الثعبان، وزمجرة الضبع، قعقعة الصّقر، نقيق الضفادع.

في لحظةٍ خطر له أن يسعى إلى محاولةٍ للانسجام مع هذه الأصوات، كي يقيَ نفسه الرّعبَ الذي يستبدّ به، ويهدَأ روعُه، فتخيل بأنه في حفل غريب من نوعه، وأن هذا الحفل يتطلّب من الحضور الجلوس على أغصان الأشجار في ساحة أُعدّت لذلك؛ ثم تبدأ الحيوانات التّغني بأصواتها المختلفة بعد أن أُطلِقَت من أقفاصها في تلك الساحة المُسوّرة، بحيث كل صوت يتمتّع بإيقاع مختلف، يستمرّ ذلك حتى طلوع الضوء، فتستسلم تلك الحيوانات لحالة من الخدرِ تحت تأثير الحقن حُقِنَت بها قبل إطلاقها من الأقفاص، والتي تبدأ مفعولها في تلك الساعة.

تخيّل نفسه في هذا الحفل، وبدأ يستمع إلى الأصوات كما لو أنها سيمفونية يستمتع بعذوبة أنغامها.

مدَّ يدَه إلى حبّات توتٍ ناضجة، وأخذ يتلذّذ بتناولها على أنغامِ ما يتناهى إلى سمعه من أصوات متناغمة وهو يدرك مدى المشاهدات الحياتية التي تفوت الإنسان دون أن يكتشفها.

كل ذرة من ذرات جسده بدتْ مسترخية ومنتشية، بيد أن انبلاجَ الضّوء جعلَه يخرجُ لحظةً تلوَ أخرى من عالمه مع تخافُتِ الأصوات من حوله، حتى ألفى نفسه منتصباً على الشجرة، وقد امتدّت خيوطُ الشمس إليه، ولم يعد يرى أثراً لكل تلك الحيوانات الضارية التي ملأت سكون الليل بأصواتها.

عندئذٍ أخذ يهبِط بتؤدة من بين تشابك الأغصان كما لو أنه كان على متن طائرة، حتى استوى على الأرض ملتفتاً حوله، رمق درّاجته الواقفةَ على البعد منه، ثم أولاها قفاه مادّاً خطواتَه في ردهات الجبال، وقد ارتسمَت بسمة على ثغره، تلك العادة التي اكتسبَها من أزمات سابقة، وهو يواجهها بالبسمة، فما دام قادراً على البسمة، فإن ذلك يبثُّ إليه إشارةً بأنه أقوى من الأزمة، ويستطيع التغلّبَ عليها، لكنه إن عجز عن البسمة، فإن ذلك يعني أنه استسلمَ لجبروتها، فتنجح الأزمة إذ ذاك أن تجعل محيّاه يقطرُ احتقاناً، وبدنَه يرتعد توتراً، ودمَه يغلي في عروقه تحت سطوة جبروتها، لكنه يتسلّح في مجابهتها بنفوذ البسمة التي تكونُ له حصانةً، فتجعل من وجهه بشوشاً، ومن أعضائه مسترخية، ومن أعصابه مستكينة.

قفزَت إلى ذاكرته حالات الاستفزاز التي تعرّض لها، وتمكّنَ من مواجهتها، والتغلبِ عليها متسلّحاً بالبسمة، حتى إنه بات يعتقد أن أفضل ما يمكن للإنسان أن يقدّمه للإنسان هو أن يجعلَ بسمة ترتسم على فَيه، ولن يكون بوسعه النجاح في ذلك دون أن يبتسم هو أولاً.

مضى بين الجبال وهو يتخيّل أن البسمة هي مقدّمة للضحك، كما أن بزوغَ الضوء هو مقدّمة لنهار جديد، وإن لم يبتسم المرء أولاً، لن يكون بوسعه أن يضحك، إن لم يبزغ الضوء، لن يكون بوسع نهار جديد أن يُطِلّ.

أخذ يمدّ أنظاره وهو يمضي تحت أشعة الشمس حتى لاح له من بعيد ما يشبه البناءَ، سرت في أوصاله نشوةُ أمل، وهو يسارعُ الخطا مصوِّباً نظراتِه إلى البناء الطّيني الذي بات يفصِح عن معلمه مع تسارع الخطوات.

عندما غدا على مشارفه، رأى نفسه إزاء بيت طينيّ شبيه بالكوخ، التفتَ حولَه عسى أن يرى بناءً في القرب، لبث مُسمَّراً على مسافة نحو عشر خطوات من الكوخ الغارق في الصمت، وهو يخمّن ما الذي يمكن أن يخرج منه، أو أنه فارغ، لكنه في ذات الوقت بدا أمام عينيه كما لو أنه سفينة نجاةٍ في هذا التيه.

دنا بخطوتين وقد سبقه صوته: هل من أحد هنا؟

مسح بنظراته على هيئة البناء المتصدّع الذي بدا مهجوراً، إذ لا شيء يشير إلى مقوّمات السكن فيه.

بعد ترقّبٍ زُهاءَ ربع ساعة، تناهت إلى مسمعه حركةٌ من الداخل، زحف على إثرها وجلٌ مباغت إليه، آبت به قدماه عدّة خطوات حذرة، وقد تجحظتْ حدقتا عينيه وتحجرتا في شكل الكوخ.

– ماذا تريد؟

أجفلَه الصوتُ الذي انطلق كرصاصة من الداخل، لكنه بذات الوقت وقف حائراً أمام إجابة سؤال كهذا، فلو قال الصوت: مَن أنت؟

لربما استطاع الإجابة السريعة.

بعد قليل أجاب دون تركيز: أريد مَن يرشدني إلى قرية قريبةٍ.

اندفع الصوت: لماذا؟

قال على الفور: حتى أستعيرَ منها وقوداً لدراجتي كي أعود إلى هولير.

لبث ينتظر الردَّ دون أن يسمع إجابة، مضى بين الأشجار نحوَ ساعة، ثم ما لبث أن عاد إلى الكوخ قائلاً: هل يمكنك إرشادي مام؟

بعد قليل تراءى رجلٌ عجوز ببنية قوية يرتدي ثياباً رثّة واسعة الرّدن، بدت آثار السنوات محفورة على سحنته.

طلب إليه أن يتراجع قليلاً، فامتثل لذلك، قال الرجل إذ ذاك: هل تحمل سلاحاً؟

قال: لا. قال: ولا حتى سكيناً؟

أجاب بالنفي، عندئذ غدا يتفحصه بعينين ثاقبتين، وبعد لحظات قال: لا يمكنك ذلك إلّا إذا مرّ أحدٌ مصادفة بالقرب من هذا المكان، توجد قرية بعيدة، لكنها تحتاج إلى مَن يخبر المكان حتى لا يضيع بين الجبال.

دنا إليه عدّة خطوات، فتفاجأ بأن الرجل بدأ يتراجع بشيء من الذعر، عندئذ اضطر للوقوف. طلب إليه الرجل أن يتجه إلى الأشجار ليقطفَ ما يشاء ويتناول الإفطارَ ريثما يظهر مَن يمكن له أن يقدّم له مساعدة، ثم دخل كوخَه طالباً إليه ألّا يدنوَ منه مهما كان السبب.

قطفَ لنفسه تفاحةً كبيرة، وحبّة دراق، وبعض المشمش، ثم راح يغسلها في النبع الجاري من أسفل الجبل، ثم قعد تحت شجرةِ حور يتناول الفاكهة، وبعد أن فرغ، لبث قاعداً وهو يمدّ بصره لعله يقع على أي شيء يتحرك يمكن له أن ينجده.

مضى الوقتُ دون أن يدري به حتى سمع وقع خطوات الرجل العجوز، فنهض وهو ينظر إليه متقدّماً إلى النبع، شمّر عن ساعدّيه وراح يتوضّأ، ثم تقدّم إلى بقعة خضراء وصلى الظهر. عندئذ راح هو الآخر إلى ذات النبع، وتوضَّأ، ثم أتى إلى مكان مجاور للرجل، وصلى. اتجه الرجلُ إلى مأواه مرةً أخرى دون أن يحدِّثه بكلمة واحدة، وبعد نحو ساعة خرج متجهاً إلى الأشجار وهو يطلب منه أن يأتي ليقطف لنفسه بعضَ الفاكهة كي يتغدّى. أحسَّ بأن الرجلَ لم يبتعدْ عنه كما كان، فاستغلَّ هدوءه ودنا إليه أكثر حتى وقف إلى جانبه، عندئذ قال له: هل أنت وحدك هنا مام؟

بدا الرجلُ كما لو أن السؤال أجْفَله، فرمقه بنظرات ثاقبة دامت نحو دقيقتين، دون أن يجيب، مضى بعد ذلك صوب النبع حاملاً الفاكهة، فتبعَه حاملاً فاكهته، بعد تناول وجبة الغداء على حافة النبع، وجّه أدراجَه صوب البيت مشيراً إليه أن يمضي معه.

تقدّم معه إلى البيت الغارق في الصّمت، دلف بتردد وهو يلتفّت حولَه وقد نسي ما هو فيه، وبات يشرد بما يتجسّدُ أمامه، وبين لحظة وأخرى يتلمّس جسدَه كي يزيح أي شعورٍ بأنه في حلم، ويتأكّد أنه بالفعل بات ليلته يقظاً كنسر على الشجرة، والدراجة نافدة الوقود.

أغمض عينيه وراح يتذكّر كيف أنه خرج بالفعل من سورية، تعرّفَ على هولير التي زارتْه في البيت وقد تجسدتْ بهيئة صبية بالغة الحسن، وأن بيرهات تدرس في مدرسة كردية. بعد لحظاتٍ فتح عينيه، وصار يرمق الرّجلَ العجوز مجدداً، وصار ينتبه إلى حجم الشّعر الكثيف الذي يكسو رأسه ووجهه، وإلى حجم الغبار المتراكم على ثيابه، عندئذ تسرّبَ إليه يقين بأنه إزاء حقيقة ملموسة، وأنه يتقلّب في منعطفات الحياة.

مسحَ بنظرات سريعة تصدّعَ الجدران المطلية قديماً ربما لمرة واحدة بالكلس، عندئذ بادره الرجل بالسؤال: أين أمضيت ليلتك؟

قال: أمضيتها على شجرة. قال: يبدو من لهجتك البادينانية بأنك غريب.

قال: أنا سوري، جئت إلى الإقليم لاجئاً حتى يجعل الله لنا مخرجاً.

قال: ماذا حلّ بأكراد روزآفا حتى لاذوا بالإقليم؟

نظر إليه بدهشة ثم قال: ألم تسمع بالحرب التي وقعت في البلاد منذ نحو سنتين ونصف؟! أجاب الرجل: منذ ذاك اليوم الأسود، لم يعد يهمني أي شيء يجري في العالم، لأن كل شيء بات متوقعاً من الإنسان، انقطعتُ عن كل شيء، وانقطع كلُ شيء عني.

قال وعلاماتُ الاستغراب بدت على صوته: ماذا حدث في ذاك اليوم الأسود مام ريودار؟

انتبه الرجلُ إلى مباشرية السؤال، وكأنه كان في غفوة حينما تحدّث، وفي محاولة لتجنّب الإجابة، قال: لا توجد حرب في تاريخ الإنسان إلّا وأشعل فتيلها الحكّام، إنهم لا يفلحون في شيء سوى حياكةِ المؤامرات، وغرس النزعات العدوانية بين الناس.

بغتة انبجسَت دموعٌ غزيرة من مقلتيه كأنها كانت حبيسة، وأخذ يتمتم بحرقة: إنهم لا يعرفون أي وجه للرحمة، كأنهم فقدوا أي انتماء للروح الإنسانية كاكا.

خيّمَ عليه صمت، ثم أخذ يمسح دموعه الغزيرة بيدَيه الخشنتين وطفق يقول: الحياة هنا تتسم بالهدوء، لا أحد يعكّر عليّ صفوي، الطبيعةُ هادئة، الجبال أنيسة، الحيوانات المسالمة تسرّ النظر إليها؛ حتى الحيوانات المفترسة لها أوقات محدّدةٌ تظهر فيها، كل شيء يمضي في نسقٍ متوافق، ومنسجم، ومتكامل، الإنسان هو الذي يأتي ليفسدَ كل منظومة للحياة؛ لا أحد يفوق الإنسانَ خطورةً على طبيعة الحيوان، والنبات، والجماد، إنه الكائنُ الأكثر عنفواناً الذي يشكّل تهديداً لكل كائنات الطبيعة، الحيوانات المسالمة لا تملك سوى أن تستسلمَ لعنفوانه، لكنّ الحيوانات الشرسةَ القوية عندما تنفرد به وتتمكّن منه، فإنها تنقضّ عليه، تفتك به بكل ما ملكت من انتقام، حتى الحيوانات الصغيرة الواهِنة، فإنها عندما تتمكّن منه، لا تدع فرصة سانحةً لها للانقضاض عليه، مثل الذباب، والبعوض، والدبابير، والعقارب، والأفاعي، والكلاب، حتى الفيضانات والعواصف تشتدّ عليه حتى تردعه. بتُّ أخاف الإنسانَ بعد الذي وقع معي، أتوقع منه أي غدر في أي لحظة، أناس كثر لم أدعهم يقتربوا من بيتي.

اكتنفَه صامت لم يدُم طويلاً، حتى فاضت عيناه بدموع غِزار، واستأنف يقول بحرقة شديدة: ذات يوم من أيام انتفاضة سنة ١٩٩١ زحفت الدبابات إلى قريتنا وبدأت بالقصف، حينها لم يبقَ أمام الناس غير أن يخرجوا من بيوتهم ويتجهوا صوب حدود إيران، إذ ذاك لا أعرف ما الذي حصل مع سماعي لدوي قذيفة حتى صحوت بعد عدّة أيام في مركز طبي مُعَدّ للاجئين في إيران، فعلمتُ بأن زوجتي وأبنائي قضوا بتلك القذيفة، وقيل لي بأن ثمة شظية في رأسي يصعب إخراجُها بعملية جراحية.

عندما عدنا إلى قريتنا بعد أن هدأت الأمورُ، رأيتُ نفسي وحيداً بلا أحد، كنا نقطن تلك القرية التي أشرتُ لك إليها، وكان هذا البيت بمثابة استراحةٍ نقضي فيه بعض أوقاتنا لأننا نملك بعض المساحات من هذه الأرض المزروعة بالأشجار.

بقيتُ عشرة أيام في القرية، فأدركتُ بأنني لا أستطيع مُواصلةَ العيش هناك، يومها اتخذتُ قرارَ العزلة واللجوء إلى هذا الجبل بعيداً عن الناس؛ أحسستُ بأن الاضطراب نال مني، ولم أعد قادراً على الحياة في القرية، وفقط في فسحة خالية من ضجيج الناس يمكنني أن أعيش.

منذ ذاك اليوم قطعتُ كل علاقة لي بالوقت وبالناس، لا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك، وكم من السنوات مضتْ؛ كنتُ إذ ذاك في الخامسة والخمسين، ولم تعد تهمني السنوات، حتى عندما كان يأتي أحد لزيارتي، أو يأتي مصادفة، لم أدعه يقترب مني، لا أريدُ أن أعود إلى الماضي لأنه لا يحمل لي غير وخزاتِ الاضطراب، لا أريد أن أعرف شيئاً عمّا يحدث في العالم، لأن معرفة ما يجري الآن، سوف تعيدني إلى معرفة الماضي، إلى أولادي الذين فقدتُهم، إلى زوجتي الطيبة، إلى كل الذين قضوا تحت القصف.

صمتَ الرجل تاركاً نشيجَه المُتقطِّع يعلو وهو يمسح عينيه من الدموع، ثم استأنف حديثَه بذات الغصة: هنا أحاكي الجبل، أسامرُ الأشجار، أستأنسُ بسماع أصوات الحيوانات، الحياة في هذه الربوع هادئة، وأنا لا أحتاج شيئاً قدر حاجتي إلى الهدوء، والابتعاد عن الناس، هنا اكتشفتُ وجهاً جديداً للحياة، ويبدو لي أنني انسجمتُ مع ذلك. لا أعرفُ سبب هذه العدوانية التي يمارسها الإنسان بحقّ الإنسان دون أي مبرر، لقد عشتُ قبل ذلك هول الأنفال، مئات الآلاف منّا قضوا في عمليات إبادة جماعيةٍ خلال أيام معدودة، كان الأمر بالنسبة لنا أشبه بالطوفان، مئات الألوف من الناس اعتقِلُوا واختفوا من الحياة دون أن يعرف أحد عنهم شيئاً، حتى الذين نجوا من االمداهمات، أو من القصف، أصبحوا في حالة هوسٍ مُتوقّعين قصفهم بأسلحة دمار

شاملة في أي لحظة، لقد عشتُ ذاك الرعب الجماعي الذي استبدّ بنا ساعة إثر ساعة، فلم يبقَ أمامنا سوى أن نترك بيوتنا وجبالنا ونتجه إلى الأراضي الإيرانية هرباً من هول الرعب، والقصف، والحصار، والمداهمات المفاجئة.

كل الحيواناتِ الفتاكة التي أعيش بينها الآن لم تسبب لي الرعبَ الذي سببه لي الإنسان، لم تلحقْ بي الأذى الذي ألحقه بي الإنسان لأنها في ذروة درجات شراستها، لا تلحق بي الهول الذي ألحقه بي الإنسان.

كأن الناسَ لم يعد لديهم عمل سوى أن يخططوا لقتل بعضهم بعضاً، يحيكوا المؤامرات والدسائس ضد بعضهم بعضاً، كأن كل واحدٍ بات يستلذُّ بمقدار ما يسبّب الاستفزازَ للآخر، إنهم –كاكا– يمضون في دروبٍ قاتمة يزدادون في منعرجاتها عدوانيّةً، وفي النهاية يكتشفون بأنهم لم يحققوا شيئاً، وقد خسروا كل شيء في اللحظة التي خسروا فيها الإنسان. كل واحد من هؤلاء الحكّام يقف على تاريخٍ من الخِزي، الظروف التي تنشأ فيها مجتمعاتنا، لا تكون مُهيَّأة لإنتاج شخصياتٍ قيادية، لذلك تُؤخَذ القيادة بالقوة، لا بالحكمة، تؤخذ بالسطوة، لا بالتأهل.

إذا نظرْنا إلى منجزات هؤلاء، لا نرى سوى أنهم استفحلوا حالاتِ العدوانية بين الناس، أثاروا النعراتِ بين قوميات الناس وشعوبهم وطوائفهم السمحة، الناس الذين بطبيعة فطريتهم يميلون إلى التحابب فيما بينهم، لا يوجد رجل هنا يبغض رجلاً هناك، ولا توجد امرأة هناك تبغض امرأة هنا، ولا يوجد طفل في موضعٍ يبغِض طفلا في موضع آخر، إلّا إذا استند هؤلاء جميعاً إلى تلك المنجزات السوداء التي حقّقَها لهم الحكّام.

بدأ الغروب يسدِلُ ستارَه على المكان، فأدرك بأنه سيمضي الليلة الثانية أيضاً بعيداً عن عائلته، أحسَّ بثقل غصّة تعلو حنجرته؛ وما لبثت أن ترقرقت دموع من عينيه وهو يتخيّل وجوده مع عائلته، ولأول مرة دهمه إحساسٌ مرير بعدم قدرته التحرّك من المكان، كما لو أنه رهين سجنٍ، أدرك للتو كم أن العائلة تضفي غنىً على الحياة، تضفي بهجة على إيقاعها اليومي.

عندما بدأت أصواتُ الحيوانات تعلو، نهض مام ريودار، وبدأ يغلق الباب الحديديَّ بشكل جيّد قائلاً: إنها حيوانات مفترسة، تخترق أي مكان يمكنها أن تنفذ إليه.

رغم أنه لم ينم ليلة أمس، أحسَّ برغبة في السهر مع حديث الرجل العجوز، وبدا الرجل كذلك يقظِاً ومستمتعاً بالسهر مع هذا الضيف الطارئ.

قال: في الحروب يتحولُ الناس إلى وحوش كاسِرة تفتك بعضها بعضاً، تختفي القيم الإنسانية النبيلة، يقف الرجل أمام الرجل، فيُرْديه قتيلاً، وليس أكثر توحشاً من ذاك الذي يتحوّل إلى قنّاص، فيطلق الرصاصَ على الناس كما لو أنه في حالة صيد، وهو يقعد على أسوأ مرحلة انحطاط يمكن أن تبلغ بإنسان، إذ ذاك يتجرّدُ من انتمائه الإنساني لأن أي مشاعر إنسانية مهما كانت متدنية، لوقفت حاجباً بينه وبين ممارسته لذاك اللون المخزي من تفاقم الوحشية.

هزّ مام ريودار رأسه، فأردف يقول: لم يبقَ أمام الناس العُزَّل سوى أن يهجروا كل شيء، ويطلبوا الاستغاثة واللجوء من ديارهم وأهلهم الذين أشعلوا النيران في بعضهم البعض، ليصبح قتال الأخوة في دائرة الحرب أكثر فتكاً من أي قتال، بدأ الناس –مام ريودار– يقتلون بعضهم بعضاً في سر، وفي علن، في الطرقات، وفي البيوت، تحوّلَت البلادُ برمتها إلى حرب طاحنة، ومَن لم يتمكّن من اللجوء إلى الجوار، لاذ بعياله للعيش في كهوف حتى تخلو الساحات لأسوأ أشكال القتال والدمار بين هؤلاء. لبثَا ساهرين حتى أدركهما الصّباحُ، بعد أن تناولا بعض الفاكهة، أخذ مام ريودار يمضي به في الأرض المفروشة بالخضار ويتحدّث له كيف أنه بات على صداقة مع الأشجار، والأعشاب، والحجارة، والأرانب البرية.

كيف اعتادَ سمعُه على عندلَة العندليب، خترشة الجراد، هديل الحمام، هدهدة الهدهد، لقلقة اللقالق. تقدّما إلى بركةِ ماء فيها أسماكٌ وضفادع، جلسا بجانبها فيما تمضي فوقَهما أسراب البط والإوز، بعد زهاء ساعتين لاحت لهما سيارة من بعيد تمضي في وعورة الطرقات، قال مام ريودار: يبدو بأن الفرج جاء، انتظرَا حتى تقدَّمت السيارة

إليهما، إلّا أنها وقبل أن تبلغهما، مالت في طريق آخر، وسرعان ما توارت عن أنظارهما. لبثا في الخارج حتى ساعة العصر، حينها تناهى إليهما صوت دراجة، عندئذ استأذنه منطلقاً إليها حتى استطاع أن يجعل السائق يتجه إليه، فطلب منه بعض الوقود.

قال الشاب العشريني: لدي وقود كافٍ، سوف أزوّد دراجتَك حتى نصل القرية، وهناك سأملأ الخزان كي تعود بها إلى البيت.

أصعدَه خلفه على الدراجة، واتجها إلى حيث الدراجة الواقفة، سحب خرطوماً من الخرْج، ثم بدأ يضخّ الوقود بواسطتها إلى خزان دراجته.. أحس بنشوة عندما أشغل الدراجة قائلاً: شكراً لك كاك بلباس.

ثم طلب إليه أن ينتظره حتى يعود إلى الرجل العجوز، ويودّعه.

عند ذاك قال له الشاب بأن مام ريودار لا يريد أن يرى أحداً بسبب ما أصابه، فأخبره بأنه أمضى يوماً معه، حينها دُهش بلباس وهو ينظر إليه ماضياً صوب بيت مام ريودار، فلم يملك نفسه إذ ذاك، وقاد دراجتَه متجهاً إليهما، عندما رآه الرجل العجوز يقف على بعد خطوات، دعاه قائلاً: تعال يا بني، تعال، هذا ضيفي، أوصيك به. أطفأ الشابُ درّاجته غير مصدّقٍ ما سمع، وهب قادماً إليه وهو يقبّل يدَيه، ثم يحتضنه ويبكي قائلاً بأنه من سكّان قريته السابقة. حين رأى بلباس حميمية لحظات الوداع بينهما قال: مام ريودار، سأغيب نحو ساعة وأعود كي أصطحبَ ضيفك إلى القرية.

تنفس الرجل العجوز الصعداء، وبدا سعيداً بما سمع، ثم ما لبث أن أخذ يتحدّث معه كما لو أنه على معرفة وطيدة به، وسوف يغادره. في تلك اللحظات رأى الدموع تترقرق في عينيه وهو يقول: كانت أول ليلة خلال كل تلك السنوات نام فيها شخص في بيتي. عندما تقدمَت دراجة الشاب يسبقها صوتها المرتفع، احتضنَا بحرارة، ثم صعد الدراجةَ بينما لبث الرجل واقفاً يلوّح له بكفه وهو يستدير ليردّ على تلويحته حتى توارى عنه.

قال له بلباس عندما بلغا مشارف القرية: سنذهب إلى بيت –كاك قباد– كي يزوّدك ببعض الوقود من سيارته الشاحنة. مضى خلفَه بالدراجة في طرقات القرية حتى توقف أمام بيت، ثم نادى: كاك قباد.. كاك قباد.

بعد قليل تراءت امرأة بدا بأنها تخبِز في التنور خلف البيت. نظرتْ إليهما، ثم دعتهما للدخول ريثما ترسل أحداً كي ينادي قباد الموجود في بيت قريب.

دخلا البيت، وبعد قليل جاء قباد مرتدياً ثيابه الفضفاضة، ومعتمراً محرمة على رأسه، ولافّاً لفحةً حول خصره، فقال له بلباس: هل لديك وقود كي تملأ خزان هذه الدراجة كاك قباد؟ أجاب: على رأسي وعينَي الاثنتين كاك بلباس.

ودّعه الشاب عائداً إلى البيت بعد أن تعهّد به قبادُ الذي شاركَه الجلوسَ حتى قدّم له الغداء، ثم ملأ له الخزّان مودعاً إياه.

* * * *

نبتة العشق..

أمسيةَ الحدثِ السحري، أحسَّ الخدم بإشراقة غير مألوفة في سيدتهم، راودهم إحساسٌ بالقلق مرة أخرى، وقد أدركوا أنها منذ ساعة الصباح تقوم باستعدادات الخروج.

تشع إشراقةُ نورٍ حتى من حركاتها، من نبرات صوتها، إذ ذاك قالت خادمة لأخرى: أنا قلقةٌ عليها، مضت آلاف السنين وأنا في خدمتها، لم يسبق لأي حدث أن جعلها تترك القلعةَ وتخرج، ياه يا صديقتي، كم تبدو القلعة موحِشة لا تُطاق عندما تغادرها سيدتنا، ينتابني دوّار، وأشعر كما لو أن حبلاً يلتف حول عنقي.

ابتسمت الثانية بسمةً خافتة وقالت: أنا كذلك في دهشة من أمري، تبدو سيدتنا بأنها تضيء كلما خرجت منذ أن فاجأتنا بهذا الخروج بين حين وحين.

ثم أردفَت تقول بشيء من الهمس: أخال سيدتنا عاشقةً، أكاد ألمح على سحنتها بريق حالة عشق. قالت الأولى وقد افترّ ثغرها عن بسمة: وما علامات ما تخالين يا صاحبتي؟ أجابتْها: علاماتُ العشق لا تخفى علي، إنها تكشف نفسَها بنفسها، انظري إلى بشرتها كيف تتفتح في الليلة التي تستعدّ للخروج في منتصفها، ولا تعود إلّا عندما تزحف خيوطُ الضوء إلى كبد السماء.

في هذه الليلة تستحمُّ برحيق الزهور، تتنشّف بأوراق الورود، تدندن بأغنيات عذبة بشدو رخام صوتها. عندئذ ألفَتَا سيدتَهما قادمةً، قالت الثانية: ها هي، سوف أجري اختباراً لحدسي. قالت الأولى: كيف؟

أجابت: سأسألُها سؤالاً عن العشق.

همست وقد ركبتْها دهشة: كيف تتجرّئين بحديث كهذا في حضرة هيبة مولاتنا؟!

مع تبادلِ أطراف الحديث بين الخادمتين، بلغتْهما هولير بخطواتها كما لو أنها شجرة ياسمين في يوم رأس سنة كردية جديدة.

انحنَتا لبهاء دنوّها إليهما فقالت: أنا خارجة الليلة، لي شأن خارج القلعة سوف أقضيه وأعود. قالت ذات الخادمة: مولاتي، لدي سؤال يؤرقني، هل تأذنين لي به؟

قالت هولير وقد تمهّلت بها قدماها: سلي ما تشائين، أنا الليلةَ على جناح بهجة.

قالت بشيء من شجاعة: كنتُ أتحادث مع صاحبتي إن كان قلبُ مولاتنا قد ذاق لوعة الغرام؟ ابتسمت هولير وقالت: قلب مولاتك مثل نبتة كردستان العاشقة /هلّگوكِ/

قالتا معاً بصوت واحد: ما حكاية هذه النبتة يا سيدتي؟

لبثَت هولير في صمتٍ، فأردفتا بذات الصوت المُوحَدّ: بنا طمع أن نعلم حكاية نبتة كردستاننا هذه، وقد تشوّقنا إلى ذلك.

قالت: لا تنبتُ نبتتنا الأزلية هذه إلّا في أماكن شديدة القسوة من جبال كردستان، عندما يتكاثف هطول الثلج، تظهر تلك النبتةُ المميزة بجمالها ورقتها ورهافتها إلى الطبيعة من قسوة الجبل، ومن صقيع الثلج.

تنظر حولَها، فلا تلمحُ شيئاً سوى بياضِ الثلج الذي يكسو كلّ شيء من الطبيعة حولها، تولد بكل رهافتها في قلب طبيعة ناصعة البياض، ولا ترى غير نصوع بياض في بياض.

هزّت الخادمتان رأسيهما، فأردفَت: عندما يلمحُها الثلجُ لأول نظرة، ينتابه شعور غريب بجاذبيّةٍ نحوها، فلا يملك أن يتجاهلَ شعوره رغم كل ما يتمتع به من سطوة وجبروت على الطبيعة التي لا ينازعه في سيادته لها منازعٌ.

يتأمل بديعَ ما أوتيتْ من جمال، ثم ما يلبث أن يتمتم لها وهو يلامسها برقة وحنو: لم أكن أعلم أن لي قلباً إلّا عندما وقع نظري عليكِ.

تشعر النبتةُ بكثير من الخجل من إطرائه، وتقول بصوت خافت يسمعه الثلج بالكاد:

كم أنتِ محظوظة يا /هلّكوكِ/ وأنتِ تلفتين نظرَ سيّد طبيعة كردستان الذهبية.

يهمس: الآن فقط، اكتشفتُ قيمةً ومعنىً لوجودي.

تجيب بحياء جم: لقد غمرتَني بلطفك يا سيّد الطبيعة.

ثم تضيف: كأنك لسانُ حالي، تنطق بما يعتريني من مشاعرَ نحوك.

يمتدُّ بينهما الغزلُ ثلاثة أيام وثلاث ليال، عندئذ يقول لها الثلج: ألتمسُ منك يا نبتة كردستان المباركة أن تقبليني زوجاً لك.

– يا لتواضعِك، ويا لرقّتك يا سيدي! لي الرفعة أن أتشرف بهذا القران منك، لكن ..

تصمتُ النبتةُ تاركةً دموعَها تنهمر، فما يلبث الثلجُ أن يمسح لها الدموع الرّقراقة وهو يقول: ما أبكاكِ يا سيدة فؤادي؟

تقول: ما أزل صغيرةَ العهد على الزواج، وإني لأرجو يا سيدي أن تمهلني بعض وقت حتى يكبر حجمي قليلاً، ويشتدّ عودي، ما أزال في أيام ولادتي الأولى، وأنت في ذروة لياقتك وقوتك.

يكمل الثلجُ مسحَه لدموعها وهو يداعبها ويقول: أعتذر كل الاعتذارِ لأن جمالك لم يدع لي لحظة كي أنتبه إلى هذا، لك ما تشائين، سوف أنتظر حتى تخبريني بأنك غدوتي مهيَّأة للزواج.

مضتْ هولير بخطوات بطيئة، تتبعها خادمتاها، فاستأنفت تقول:

لبث الثلجُ في حالة انتظارٍ حتى جاء الرّبيع، وبدأت الشمس تذيبُه من أعالي الجبال، ثم أخذ بياضُه يخفت ويذوب من غصون الأشجار، ومن الطبيعة.

عند ذاك، أحسَّت حبيبته أنها غدتْ مهيَّأة للزواج، فلم تتردد من مناداته قائلة: الآن يا سيدي يمكننا أن نحقق حلمنا، هلّم واتخذني زوجة لك.

يصمت الثلج دون أن يردَّ، وعندما تنظرُ إليه مليّاً، تراه شاحباً، وقد نال منه الوهن، فتصدر منه نبرات خافتة: لقد خارت قواي، لم أعد قادراً على الزواج يا جميلتي.

تنتحب النبتةُ قائلة: لكن لا عليك، أعاهدك بأنني لن أكون حليلة لغيرك، لن أدع أحداً غيرك يمسني يا سيدي.

يبتسم الثلج بسمةً شاحبة، ثم ما يلبث أن يتوارى، ثم تذبل النبتة حزناً على حبيبها.

عندما تهلُّ إطلالة شتاء جديد على جبال كردستان، ينبعث أمل جديد عند الثلج حين يرى حبيبته، وتنبعث لديها إشراقة أمل وهي ترى الثلجَ يمدّ سطوته إلى سفوح الجبال.

حين بلغَت بخطواتها بابَ الخروج، فوجِئت بكل مَن في القلعة لخدمتها يقفون انحناء لها وهم يجهشون بكاءً ويقولون بأنهم لا يتخيلون بقاءهم في القلعة دونها، لم يخطر ببالهم ذاتَ يوم أنها ستغادر المكان وتتركهم في وحشة.

وقفت للحظاتٍ وهي تمسح قاماتِهم بنظراتها، ثم ابتسمت هازّة رأسها ومُلوحَة لهم يدها ألّا يخرجوا إلى باب القلعة لوداعها.

مدّت خطواتِها الأولى إلى الخارج ترتعد كما لو أن عاصفة شديدة هبّت عليها وهي واقفة في صحراء. انبجسَت دموع من عينيها والخطوات تجرجر جسدها، وقد أخذَت تقاوم غصة ثقيلة استقرّت في حنجرتها.

بعد عدّة خطوات أبعدَتها عن صرحها، توقفت قليلاً، ثم التفتت تنظر إلى مظهرِ القلعة المهيبة التي يلفّها صمتٌ مطبق وقد بلغ سكونُ الليل منتصفَه.

بدأ الضوءُ ينبلجُ كما ألفتْه في المرات السّابقة، ينبلجُ على الطريق الذي تمضي فيه، وما إن تتجاوزَه حتى ينتقل إلى الطريق الجديد الذي تلجه في سيرها إليه.

تمضي في كبد الطريق مادّة خطواتِها بثقة كما لو أنها في وضح النهار.

عند ذاك لمح أحدُ الحرّاس بأن ذات الأمر قد تكرّر، فأنبه زميله وأجريا اتصالات ببقية الحرّاس كي يحضروا ويشهدوا هذه الظاهرة الغريبةَ، حيث يُضاء طريق إضاءة طبيعية كما لو أنه ضوء النهار، وهو يتنقّل بين الطرق الفرعية.

اجتمعَ الأسايش في لحظات وهم يتأملون المشهد ويمضون معه دون أن يجسرَ أحد على الدخول إلى مساحة الضوء الذي يمضي في الطريق، عادَت ذاتُ الرائحة السحرية

العَطِرة تنعش خياشيمَهم، وهولير لمّا تزلْ تمضي وهي تذرِف الدموع مدراراً، وكلما تتساقط دمعة إلى الأرض تتحولُ إلى جوهرة نفيسة يلتقطها أحد الأسايش.

الطريقُ إليه، طريقٌ إلى رحابةِ الحياة، كل خطوة روح تخطوها إليه، تلمؤها بقوة عذوبة الحياة. تمضي وهي تسكب الدموعَ وتتخيل كيف أنها عاشت كل تلك السنوات دون أن تكتشفَ هذا الجانب المُبهج من الحياة، دون أن تحظى باكتشاف مزايا الهيام، مزايا أن تخرج كمعتوهة في منتصف الليل من قلعتها الشامخة وتمضي بهدي خفقات قلبها، تتذوّق لوعة العشق، وتصبح أسيرة للهوى، تقودُها أمواجُ العاطفة الملتهبة في مدّها وجزرها.

لم تكن تعلم أن حياً دون غيره من أحيائها سوف يمتاز بكل تلك الجاذبية، ويُخرجها عنوةً من أبهة مملكتها لتجري إليه تاركة كل شيء.

عندما ولجَت إليه، ألقت بنفسها في حضنه كما لو أنها كانت غارقة في يمّ، وقد ألفت سفينةَ نجاة، بدأت تنتحبُ على كتفه وقد غمرَها شعور أنها لا تساوي شيئاً مُجدياً دونَه، امتلأت إحساساً بأن مدن الأرض برمّتها لا تساوي شيئاً مجدياً إذا خلت من رائحة الإنسان، وأنها لا تتفتحُ، ولا تزدهر إلا بمقدار ما تتفوّح بعطر الإنسان.

شكلٌ جديد من أشكال العشق،

عبقٌ جديد من عبيرِ العشق،

نسمات جديدة من ربيعِ العشق.

بدت وكأنها تكتشف كنوزَ العشق المخبَّأة، يخفق قلبها خفقات لم يخفقها من قبل، تتذوّقُ لذةَ عسل العشق وهي تشم رائحته، تَستطلِع منابعَ سحريةِ حالة العشق، هكذا عندما تحبُّ للحب فقط، يخفقُ قلبها للحب فقط بمجرّد أنها تتخيّل أي لمسة ممّن يحب، تستشعرُ لذةَ أن يسريَ العشق في عروقها.

كلّ شيء في ناظرَيها بدا جديداً، وبدتْ كما لو أنها في سرمدية عرسٍ كرنفالي.

هكذا مجرّدُ أن الذي تحبه هو كائن بالقرب منها يمكن في أي لحظة متوقَعة أو غير متوقعة أن تلتقيه، يلبث الأملُ مشرعاً، تنفتح أمامَ روحها كلُّ أبواب الحياة، تشعر بعذوبة هيجان العاطفة.

تخيّلَت وهي في حضنه كيف بمقدور الحب أن ينبثقَ بغتة من تحت جنح المجهول ويحمل معه معالمَ حياة كاملة، لكن هذا هو الحب، كأن حلوه لا يكتملُ إلّا بمرّه، كأن زهورَه لا تكتمل إلّا بأشواكه.

* * * *

مظفر الدين كوكبري..

طالَ شوقُه إلى هولير العظيمة، داهمَه أحياناً شعورٌ مرير بأنها سلته، طافَ شوارعَها، وقفَ أمام القلعة على جبال من الشوق الفائض علّها تطلُّ برأسها من نافذة وتناديه، ثم يعود إلى البيت متلهفاً لرؤيتها كما خرج. بدأ ينظر إليها ذرة ذرة، ينظر والدموع تنهمر من عينيه. مدّت أناملَها وأخذت تمسح الدموع التي تسيل على خدّيه.

طبع قبلةً على ظاهر كفها متمتماً: إنها دموعُ الشوق، أشعر بأنها تريحني، تخفّف عني قليلاً من لهب التوق. قالت: يبدو أنني تأخرتُ عليك.

رفع عينيه الممتلئتين بالدموع ينظر إلى مصحف وجهها: تأخرتِ كثيرا يا حياتي.. توقعتُ أنك ستأتين في عيد الفطر.

– كيف أمضيت رمضانك الأول هنا؟ كان أكثرَ رمضانٍ رمضاناً، كان يا هولير أكثر رمضان غنىً وروحانيّة، أكثر بركة من كل تلك الرمضانات التي شهدتها.

اكتشفتُ هنا كيف يمكن للمرء أن يحتفيَ بهذا الشهر، كيف يمكن له أن يوقِّر منزلته.

– أفتخرُ بين سائر مدن الأرضِ بأن أهلي من أكثر الناس احتفاءً برمضان، كما أنهم من أكثر الناس توقيراً للنبي.

– لمستُ ذلك في يوم مولده، ولمستُه في العيدين الأولين هنا، عندما يتبادل الناس تهاني العيد قائلين: اللهم صلي على سيدنا محمد.. جشنتان بيروزبت. وليس أجملَ من لحظات الإفطار، عندما كنت أذهبُ إلى المسجد لصلاة المغرب، فيعدُّون لنا الإفطار فيه، نفطر، ثم نصلي ونعود إلى بيوتنا لإكمال برنامج الإفطار.

عندما يجتمعُ الناس جميعاً في المسجد ويستفتحون الإفطارَ معاً، ينتابهم شعور بأنهم جميعاً عائلة واحدة، اكتشفَت هنا بأن المسجد أيضاً يؤدي هذا الدورَ الاجتماعي في تقْوية الصلات الاجتماعية بين الناس.

– كان مظفر الدين كوكبري يقيم احتفالاً كبيراً بمناسبة مولد النبي، ولا يبقى أحدٌ في ربوعي إلّا ويسمع بهذا الاحتفال. ذاك الرجل كان جواداً، لم يكن يهمه في هذه المناسبة سوى أن يكون أكثرَ سخاءً، وأن تصيبَ منافعُ الاحتفالِ كلَّ شرائح الناس في أرجائي.

ذاتَ يومٍ وهو يفكّر بحجم محبته لشخصية النّبي، أرادَ أن يعبر عن ذلك بعملٍ ما يمكن أن يفعله، هذا العمل الذي لم يسبقه إليه أحد، ثم يتبعه الناس من بعده، فخطرَت له فكرة أن يؤسس مناسبة الاحتفال بيوم مولد النبي، ثم على الفور شرع في تنفيذ الفكرة مع قدوم ذكرى يوم المولد.

بعد ذلك بدأ يتوسّعُ في هذا الاحتفال ليتحوّلَ إلى احتفالٍ عامٍّ يُدعى إليه ضيوف من نصيبين، وبلاد فارس، وجزيرة ابن عمر، وبغداد، والموصل.

قبل شهرين من قدوم هذه المناسبة، كان يبدأ في الاستعداداتِ لها، وكان يشارك بنفسه في نصب القباب الخشبية التي تمتد من بابِي الرئيسي إلى ساحة الميدان.

كان يدعو بنفسه المنشدين، والفقهاء، والوعاظ، والقراء، والشعراء، والصّوفية، كذلك يحضِر أهل النكتة، وألوان الفنون، وبهذه المناسبة شهدتُ لأول مرة فرق القراكوز.

كان الناس يعدّون ذلك بمثابة عطلة لهم، فيتوقّفون عن أعمالهم مع بداية شهر صفر عندما كان يتم الإعلان عن بدء الاحتفال، يرتدون ثياباً جديدة، ويخرجون من بيوتهم على شكل جماعاتٍ حتى تكتظَّ ساحة الاحتفال بهم، يتحلّقون بأعداد كبيرة، وهم يبتهجون، ويشاهدون هذه الفعاليات.

كان مظفّر يقيم في قلعتي، ويقسّم وقته في هذه المناسبة، فكان يصلي الفجر، وفي الصباح يذهب إلى الصّيد، يبقى حتى قبل صلاة الظهر، ويعود، يصلي، ثم يتناول الغداء، ويستريح حتى ينهض ليصلي صلاة العصر، ثم يخرج إلى السّاحة ليشاركَ الناس متعة التفرّج على هذه الألعاب المسلية، والمشاهد البهلوانية، والاستماع إلى الفرق

الموسيقية، وعندما يحلُّ الليل، كان يتجه إلى الخانقاه حتى يشارك الناس الاستماع إلى المنقبة النبوية.

كان يستمرُّ على هذا المنوال طوال شهر صفر، حتى صبيحة يوم المولد في الثاني عشر من ربيع الأول، حيث يبلغ الاحتفال أوجَه، حينها كان الصوفيةُ يتوافدون إلى القلعة على شكل أفواج وهم يحملون الهدايا الوفيرةَ التي جلبها مظفر إلى القلعة، كانوا يحملون الخلعَ المشدودة في بقج، ويتجهون بها بانتظامٍ إلى الخانقاه التي يجتمع فيها بياضُ الناس من رؤساء وأعيان، بينما يجلس مظفر في برج خشبي أنيق ذو شبابيك، وهو يشرِف على العرض العسكري الذي كان ينظمه في نهارالمولد.

إثر ذلك يتجه الناس جميعاً إلى تناول الطّعام، كانت تُذبح الغنم، والبقر، والإبل بسخاء، ويتابع الأميرُ بنفسه عمليةَ إحضار ألوان وأشكال الطعام والشراب.

كان الصوفيةُ يفرِشون مائة فرس قشلمش، وخمسة آلاف رأس شوي، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف صينية، وثلاثين ألف صحن من أصناف الحلوى. كان يعدّ لذلك سماطين، سماط في الميدان لعامة الناس يمتلئ بما طابَ من طعام وما لذّ من شراب، والآخر في الخانقاه للضيوف والأعوان.بعد تناولِ الطعام، كان مظفرّ يعود إلى القلعة، يستريحُ حتى يحل وقت صلاة المغرِب، فينهض، يصلي ويخرج متجهاً إلى الخانقاه. يمضي في موكبه المهيب وقد أشعلَ شموع المولد بكثرة، حيث تحمل الحاشيةُ هذه الشموعَ، إضافة إلى شمعتين ضخمتين، كل واحدة مثبتة على ظهر بغل، يقوم رجلٌ بسندها. عندما يصلُ مظفّر، ويجالسُ ضيوفَه، يبدأ السّماع الكبير للسيرة النبوية، وقراءة قصة المعراج، يستمرُ السماع حتى فجر اليوم التالي، وفي نهاية الاحتفال يقوم بتكريم الفقهاء، والمنشدين، والشعراء، والوعاظ، والقرّاء، وسائر المشاركين، فيجزل لهم العطاء، ويقدم لهم الخلع والهدايا الثمينة.

خيّمَ صمت دام زهاء عشر دقائق، فأردفت تقول: ذاك الرجل تعلّقَ بي كثيراً، لأنه طُرِدَ مني قبل ذلك عندما اعتقله مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الزيني، وأخرجَه بالقوة

مني، عندها رأيتُ الدموعَ تترقرق في عينيه، والغصةَ تعلو حنجرته، وهو يُطرَد من ربوعي بعد أن تولّى حكمي لأيام قليلة. كان ذلك عندما ماتَ أبوه زين الدين علي، وترك ثلاثةَ أولادٍ أكبرهم مظفر، ثم زين الدين يوسف، وآق بوري.

كان قايماز مقرّباً من أبيهم حتى إنه أعتقه، وجعله أتابك يقوم بتربية أبنائه الثلاثة، ومع تَوَطّدِ العلاقة استطاعَ قايماز أن يحظى بمنزلةٍ أكثر قرباً من زين الدين علي حتى جعله نائباً له في حكمي، وعند موته أصبحَ مظفر بحكم الوراثة حاكماً علي، وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره.

كان مظفر الدين صبياً مقبِلاً على الحياة في إدارة حكمي، ولم يكن ذلك يُرْضي قايماز الذي رأى ذلك بمثابةِ إبعادٍ له عن المشاركة في إدارة الحكم، فأدّى ذلك إلى نشوب صراعٍ بينهما، لكن قايماز لجأ إلى حِنكته حتى نجحَ في إقناع زين الدين يوسف ينالكتين بأنه الأجدر بحكمي من أخيه مظفر الذي يبدو عليه الطّيشُ، ثم استطاعَ أن يكسب رجالَ الإدارة ويقنعَهم بهذه الفكرة حتى بدا الصراع بين مظفر الدين وبين سائر رجال الحكم، أتاح ذلك لـ قايماز الحصول على أمر باعتقاله وطردِه من ربوعي، وتنصيب زين الدين أميراً عليّ نيابةً عن أخيه رغم أنه أصغر منه سناً، وكان ذلك من حيث الظاهر، لأن قايماز نفسه هو الذي تولّى حكمي من خلال هذا الأمير الذي كان يمتثل لتوجيهه، وهو يدرك جيداً بأنه هو الذي أنصبه في هذا الموقع.

بقي مظفرُ مطروداً يتجرّعُ مرارةَ فراقي، والطردَ مني بالقوة حتى مات أخوه، فعاد ثانيةً بحكم الوراثة هذه المرة بدعمٍ ومؤازرة من نسيبه صلاحِ الدّين الأيوبي الذي زوّجه من أخته ربيعة خاتون، التي كانت سابقاً زوجة الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين، وكان صلاح الدين قد تزوّج عصمت خاتون أخت سعد الدين.

يومَها أصدرَ صلاحُ الدين الأيوبي بنفسه بياناً قال فيه: (لاشك أن إحاطة العلم بانتقال زين الدين يوسف إلى جوار الله تعالى ومقر رحمته مجاهداً في سبيله، شاكراً لنعمته، وهو من السّعداء الذين أنزل اللهُ فيهم (وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ

يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ(فما أوجعَ القلوبَ بمصابِه وما أنكى في النفوس أفول شبابِه، ولقد كانت الهمةُ متوفّرَة على تربيته وإعلاء درجته، لكن اللهَ استأثرَ به قبل ظهورِ حسن الأثار في إيثاره، وبلى بدره التمّ بسراره في ضمير البلى من أسراره، وهذه أربل أنعام البيت الأتابكي على البيت الزّيني منذ سبعين عاماً، لم يحلّوا لعقد أنعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا إحكاماً وإبراماً، وما رأى أنه يخرج هذا الموضع منهم، وأن يصدق به عنهم، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه، والمقدم في الولاية، بمقتضى وصاية أبيه، وقد أُنهِضَ ليسدَّ مسد أخيه).

عاش مظفر الدين خمسين سنة طً مع ربيعة خاتون أنجبت فيها ابنتيه، زوجهما لولدَي أتابك الموصل نور الدين أرسلان شاه، الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني، أتابك الموصل، وأخيه عماد الدين زنكي الثالث، صاحب بلاد العقر وشوش، ثم شهرزور.

كان مظفر الدّين يميلُ إلى الزّهد بالنسبة لحياته اليومية على قدر ما يميل إلى السّخاء بالنسبة لفعل الخير والصدقات، فكان يرتدي ثياباً زهيدةَ الثمن، وذات مرةٍ عندما طلبت منه ربيعة خاتون أن يرتدي ثياباً ثمينة، قال لها بثقة: أيّهما أصلحُ وأكثر أجراً، أن ألبس ثوباً بعشرة دراهم، أو ألبس ثوباً بخمسة دراهم وأتصدّق بالخمسة الباقية على فقير أو مسكين؟

كان يخصّص بنفسه حاجةَ الفقراء من الخبز كل يوم حتى يأتوا ويأخذوا خبزَ يومهم من كل الأرجاء، ثم كان يعطيهم ما يحتاجون من ملابس في الصيف والشتاء، وكان يعطي للمسافرِ المُحتاج نفقات الطريق، وكل سنة في موسم الحجّ كان يقيم سبيلاً للحجّاج، يزوّده بكل ما يحتاج إليه.

صمتت مرة أخرى، فلبث في حالة إصغاء وهو ينظرُ إليها تسترجِع له وقائع ما شهدَتْه، بعد قليل استأنفت تقول: في عيد القربان يتّبع أبنائي وصيتي بألّا يبقى أحدٌ في ربوعِي دون أن يشبعَ لحماً ثلاثة أيام متواصِلة.

قال: هذه هي الليلة الرّابعة من العيد، وأظن بأن ما في البرّاد من لحم يكفي شهراً.

لم يكنْ يتخيّلُ بأن الناسَ يقبِلُون على الأضاحي بهذا الكمِّ الهائل، وأن البيوت كلها تمتلِئ بهذه الكمّيات الكبيرة من اللحوم، تخيّل آنذاك أنه لم يبقَ بيت في كردستان إلّا وامتلأ لحماً، حتى قالت آفان: إنهم يطرقون كل الأبواب، ومن العيبِ أن أقول بأننا اكتفينا، لكن لم يعدْ في البرّاد موضع من كثر اللحم.

يقبِلُ الناس من كلّ الأماكن وهم يطرقون الأبوابَ ويقدّمون اللحم، إضافةً إلى الجوار الذين يتبادلون لحومَ الأضاحي فيما بينهم، كذلك المؤسسات الخيرية التي تجوب بين الأحياء وتوزِّع أكياسَ اللّحم بعد أن قامت بتوزيعه على مخيمات اللاجئين.

في صبيحة العيدِ يخرجُ الهوليريون من بيوتِهم باكراً لصلاة الفجر، ثم صلاة العيد في المساجد، بعدئذ يؤوبون إلى بيوتهم كي يتناولُوا طعامَ إفطار العيد المميز عن سائر الأيام الذي يتكوّن غالباً من التمن، أو اللحم مع المرق، والبرغل، أو الرز، ذلك أن لديهم اعتقادٌ أن تناول اللحم في وجبة إفطار صبيحة العيد، يجلب البركة.

إثر ذاك يدورُ الناس على البيوت من أجل تبادل تهاني العيد، ولا يتركون اثنين على خصام دون أن يصلِحُوا بينهما في هذه المناسبة.

قالت: هذه من تقاليدي التي دأبَ عليها أهلي، أينما وطئت بهم أقدامهم، فإنهم يشعرون بحياءٍ جم مني، علّمتهم بأن الإنسان كائنٌ مجبول من عجينة مسك الأدب، عندما يجنح به المدار عن شطر عجينته، يجنح به عن مزايا كينونته.

إن قعد الهوليري، قعدَ في مقعد أدبٍ،
إن مشى، مدَّ خطواتِه في ممشى أدب،
إن تحدّثَ، قال كلمةَ أدب،
إن صمتَ، ركنَ إلى صمت أدب،
إن عاتبَ، عاتب بلباقةِ أدب،
إن أثْنى، أثْنى بلفظِ أدب..
إن أكل، تناولَ اللقمةَ بأدب،

إن شرب، تناول الشّربة بأدب،
إن عاهدَ، أوفى بأدب،
إن اؤتمن الهوليري، أدّى بأدب،
إن عملَ، مهرَ بأدب،
إن نامَ، استلقى في فراش أدب،
إن استيقظ، نهضَ من فراشِه بأدب،
إن عاشر، تغطى بلحاف خلوة أدب،
إن مازحَ، بدر منه المزاح على كفّة ميزان أدب..
إن ارتدى ثوباً، زرّه بأزرارِ أدب..
إن سُرّ، وقفَ على سروره وقوفَ أدب،
إن حزن، قام على حزنه مقامَ أدب.

علّمتهم أن ابنَ الأدب يبلغُ مرتبةً يشعر فيها الجماد بهيبة حياء من أدبه،
يشعرُ فيها الحيوان بلمسة حياءٍ من أدبه.
عندما ينظرُ ناظرٌ إليه، يلمح في سحنته خامةَ حياء الأدب،
عندما يدنو منه، يشمّ من هيئته عطر الأدب
حينها يتسرّب إلى دواخله إحساسٌ مبهم بأنه إزاء بركاتِ إنسان يمكن أن يخفض جناحيه لمكرمات أدبه.
قال: إنهم لا يخرجون عن طوعك، تبدين مؤثّرة عليهم.
قالت: لا أتشدّد عليهم، أتركُ لهم كل الأبواب مشرعة حتى يكتشفوا كلَّ شي، ثم يركنوا إلي، إنهم يعتبرونني ملكتهم ومرجعيَّتهم، لذلك يبذلون كل ما بوسعهم من أجلي.
في تلك اللحظات قفزَت إليه الحادثة التي وقعتْ لها منذ عدّة أيام، رأى كيف أن الناس هرعُوا من بيوتهم إليها، يقبّلون يديها وقدميها، وقد أبوا أن يعودوا إلى بيوتهم تاركينها في تلك الوعكةِ التي تعرّضت لها.

قدِم أبناؤها من كل حدب وصوب وأحيوا الليلَ في طرقاتها، التفّوا حولها وهم يعاهدونها بأنهم سيمكثون بجانب رأسها حتى الصباح يؤازرونها حتى لا تتسرب إليها لحظة وحشة.

لم ينمْ أحد تلك الليلةَ في بيته، الجميع لبثوا ساهرين بجانب رأسِ هولير، وجانب قدميها، ينهالون بالقبلات على جبهتها، ويديها، وقدميها، عزَّ عليهم أن يتركوها وحيدةً تلك الليلة.

عندما رأته شارداً، ارتسمَت بسمة متلألئة على فمها الورديِّ وقالت: لا تشردْ في الأمر كثيراً، إنها ليست أكثرَ من نزلة زكام.

كنتُ منهمكة في تلك الظّهيرة في توزيع الورود على ضيوفي، وكلُّ ما حدثَ أن أحدهم رماني على غفلة بشوكة. عندما أدركني الصباحُ، أحسستُ بطاقة حيويَّة جديدة، ثم ما لبث أن انهالَ إلي الضيوف من كل حدب وصوب، وما لبثت أن شرعت أوزّع عليهم الحلوى. صمتَت قليلاً، ثم انهمرَت دموع من عينيها: لا أحدَ يكون أكثر حزناً مني عندما أرى أبنائي يقضون من أجلي.

قال: هناك حديثٌ يقول: (عينان لا تمسُّهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين سهرت تحرس في سبيل الله).

قالت هؤلاء ملائكةُ الأرض، يلبثون ساهرين كي يحرسوا الناس، ليس بوسع أحدٍ أن يفيهم حقهم، أو يقدّم لهم شيئاً يرتقي إلى نبل عطائهم، إنهم حرّاسُ بلاد الله وعباده، يسهرون عندما ينام الناس، ولا ينامون عندما يستيقظ الناس.

بعد قليلٍ من الصمتِ، رفع نظرَه إليها، فألفاها تنظر إليه، قال في قرارة نفسه: لم أكن أعلم لذةَ نظرات العشق الطّاهرة التي تصدر من عينين عاشقتين.

هكذا غمرَه شعورٌ سحريٌّ وهو ينظرُ إلى نظراتها إليه، كما لو أنه ظفِر بكنز ثمين.

تمتمَ في سره وهو لمّا يزل ينظر إليها صامتة: هكذا تبدو الحياةُ جميلةً وبهيّةً ومكتملة الأركان في كل جوانبها حتى ونحن في ذروة الألم والمعاناة. تبدو مُدهشَة ونحن نحبُّها

كل الحب، نتفتح على إشراقتها الصباحيّة كما لو أننا زهور، ونمتلك كل تلك المقومات التي تمكّننا أن نُكِنَّ لها كل ذاك الحب، ونكتشف أيضاً الأشخاص العظماء الذين هم بمثابة مسكٍ حقيقي للحياة.

هكذا نمتلكُ طاقةً أبدية على حبّ أبدي مفتوحٍ لا نهائي تجاه الحياة بوصفها حياتنا، وتجاه العالم بوصفه عائلتنا الإنسانية الكبيرة، وتجاه كوكبِ الأرض بوصفه بيتنا الكبير.

هكذا هي هولير، كما لو أنها ملكة الروح، ساحرةُ الأفئدة
وردةٌ أزلية متجدّدة التألق،
لا يعرف الذبولُ درباً إلى صعيدها
تبعث أريجَ عطرِها الفوّاح لكل مَن يدنو إليها بخطوة.

* * * *

الزيارة..

عندما بلغَت الساعةُ التاسعة ليلاً، تلقّت آفان اتصالاً على هاتفها، وعندما فرغَت من الحديث، أخبرنه بأنها عندما قامت بتسجيل لاوين في المدرسة، تعرّفت على امرأة اسمها كلنار، أحست نحوها بودّ.

حينها تأمّلَ كيف أنها تقوم نيابة عنه بمهمات تقعُ على عاتقه، فعندما بدأ تسجيل الطلاب في المدارس لسنة دراسية جديدة، قالت له: دع الأمر عليّ، سأقوم بترتيب كل شيء. قال: تسجيل طالب في المدرسة ليس سهلاً، وأنت غريبة لا تعرفين شيئاً هنا.

قالت: لا عليك، سأتدبّرُ أمري، كما فعلت بالنسبة لـ بيرهات، سوف يدرس في ذات المدرسة.

في الصباح الباكر حملَت معها بعض الثّبوتيات الشخصية، وخرجت ماسكةً بيد لاوين، لبثتْ حتى العصر، وعادت منهكَة وهي تخبره بأنها أنهت جزءاً من عملية التسجيل، وهو أسهل مما كانت بيرهات التي كانت قد باشرت الصف الأول في سورية، فكان عليها أن تقدّم إثباتاً بأن بيرهات قد درست بالفعل الصفَ الأول في سورية حتى يتم تسجيلها تُسَجَّلَ بموجب ذلك في الصف الثاني، وعندما قدّمت ما لديها من ثبوتياتٍ، طُلب منها أن تحصل على وثيقة من كاتب العدل، ثم موافقة من مديريّة الامتحانات.

قالت بأن الأمر معه أيسر لأنه يدرس الصف الأول، وغداً ستذهب إلى مديرية التربية كي يُفرَزَ إلى ذات المدرسة الكردية التي تدرس فيها أخته التي غدت في الصف الثالث.

في الصباح، خرجت من البيت، وعند الثانية عشرة ظهراً عادت مسرورةً تقول بأن المديرية طلبت أن تأتي بعد يومين كي تأخذ إشعار الفرزِ إلى المدرسة.

عندئذ حصلت على الإشعار وجلبته إلى المدرسة التي فُرِزَت إليها،

عندما بدأت بيرهات تداوم في صفها الثاني، حينها قالت بأنها لا تطمئنّ إن لم تأخذها كل يوم إلى المدرسة وتعيدها، رغم أن المدرسة تقعُ جوار البيت، فغدت تستفيق باكراً في الأيام الثلاثة التي يكون فيها الدوامُ صباحاً من الأسبوع، وتهيِّئها، ثم تأخذها، وبعد ذلك تعرج على المخبز، تبتاع حاجةَ البيت من الخبز وتعود لتقوم بإحضار طعام الفطور.

أما في الأيام الثلاثة التي يكونُ فيها الدوام ظهراً، تتفرّغ لتهيئتها قبل ساعة، ثم تأخذها إلى باب المدرسة، بعد ذلك تبتاع ما يحتاجه البيت وتعود.

بعد شهرٍ من ذلك رآها تكفّ عن الذهاب برفقتها قائلة بأنها باتت قادرةً على الذهاب والإياب بمفردها.

أما الآن، فرأت أنها لا تحتاج كي تصطحب لاوين، لأن أخته معه؟

قالت مبتسمةً: يومها عرضَت هذه المرأة الرائعة خدماتها علي، فقلت أن عملي هنا لا يستوجب أي خدمة، بعض التواقيع الروتينية التي تخصّ تسجيل ابني في الصف الابتدائي، وقد باتت لدي خبرة لأنني سابقاً سجلتُ ابنتي.

لبثت المرأةُ معي حتى أنهيت تلك المعاملة في دائرة الامتحانات، ثم أصرّت أن توصلني بسيارتها إلى مديرية التربية رغم أنها أنهْت ما كانت قد حضرَت من أجله، وأن زوجها أجرى اتصالاً معها كي تعود فور انتهائها من ذلك بسبب حضور بعض الضيوف من إيران إلى البيت بشكل مفاجئ.

ثم أردفَت تقول: بعد أن ودّعتني، طلبت رقم هاتفي وقالت بأنها ستقوم بزيارةٍ مع زوجها آوات إلينا كي يستمعا إلى بيرهات وهي تعزف على آلة الكمان.

هزّت رأسها وهي تقول: لا أعرف كيف نسيتُ ذلك تماماً، لكن ها هي ستأتي مساء الغد، وقد رحّبتُ بها. قال: خيراً فعلتِ عزيزتي.

في المساء، اتصلت بها صديقتُها وقالت بأنها باتت قريبةً من الموقع الذي أشارت إليه. طلبت آفان منها أن تبقى في المكان ريثما يأتي زوجها.

عندئذ خرجَ ليرى السيارةَ واقفةً في مدخل الشارع العام، وكانت المرأة هي التي تجلس خلف المقود، ويجلس زوجها إلى جوارها. رحّبَ بهما دون أن يدعهما ينزلان، فتح الباب الخلفي وصعد، ثم تقدمَت السيارة حتى وقفت أمام باب البيت. كانت آفان إذ ذاك واقفةً في استقبالهما، وما إن نزلت صديقتها، حتى رحّبت بها بحفاوة وغدت تتبادل معها القبلات.

من جهته بدأ يبدي مشاعرَ الاحتفاء بقدوم الرجل الذي أحسّ نحوه بمشاعر محبة فور رؤيته. شكره الرجلُ على الاستقبالِ اللّطيف، ثم تتبعا المرأتين نحو الداخل.

عندما وقعت عينا المرأةِ على بيرهات، انحنت تقبّلُها قائلة: أهلاً يا روحي، جئنا لنسمعك تعزفين على الكمان.

بدوره تقدّم الرجل، وطبع قبلة على خدها، ثم بدأا يقبّلان لاوين، وسيروان أيضاً.

بعد قليل من جلوسهما، أخرجَت المرأةُ من حقيبتها قطعاً من الشوكولاه وبدأت تعطي الأطفالَ الذين أحسوا بودٍّ نحوها، فغدوا يبركون إلى جوارها مع أمهم، في حين انخرطَ يتبادل مع الرجل أطراف الحديث.

مدّت كلنار كفَّها تداعبُ بها شعر بيرهات قائلةً: ما أخبار دراستها وهي تداوم أول مرةً في مدرسة كردية؟

أجابتْها آفان: لم نكن نتوقّع أنها ستستجيب للدروس بهذه السرعة، أخبرتْنا إدارة المدرسة بأنها ممتازة، ويبدو أن لاوين أيضاً يحذو حذوَها لأن إدارة المدرسة منحته مع أخته بطاقة التّفوّقِ ليعلّقاها على صدريهما.

ثم قالت: وأنا أسجلّهما يا باجي كلنار، لفت نظري هذا الانفتاح على اللغة العربية، إزاء كل ذاك الانغلاق على مقومات ثقافة الشعب الكردي.

في دول مجاورة، لا توجد مدرسة كردية، بل يكون محظوراً نشرُ مطبوعات كردية بما يمكن أن يمسّ الخطوطَ الحمراء التي قد توصِل الذي يقدم عليها إلى السجن المؤبّد بتهمة الخيانة العظمى، لكن الملفت هنا هو فتح الإقليم لمدارسَ عربية، ليس لأبنائه

لأن غالبية الأجيال الكردية الجديدة التي تدرس لا تجيد اللغة العربية، ولكن الإقليم احتراماً لهؤلاء الذين يعيشون في ظهرانيهم مقيمين أو عاملين، لم يكن لديه مانعٌ من فتح مدارسَ بلغة الذين يعيشون في ظهرانيه مقيمين، أو لاجئين دون أن ينظر إلى الأمر بالمثل.

عندما أنهت آفان حديثَها ونهضت لتحضر الشاي، قال: الأمر الآخر الذي يلفِت النظر في الحالة الثقافية المُنفتحة على اللغة العربية التي يعيشها الإقليم، هو تخصيص دروسٍ عربية في مناهج المدارس الكردية. ثم أردف يقول:في الجانب الثقافي الموازي لهذه الملاحظات، نرى أن المطبوعاتِ الكردية تُمنَعُ في تلك الدول فقط لأنها تشير إلى القومية الكردية التي تستفزُّ بعض أولئك، هنا رأيتُ كتباً تُطبع باللغة العربية في الإقليم ليس للكرد، ولكنها للأقلية العربية التي تعيش هنا، وكحالةِ احترام جم لهؤلاء، ومن الجانب الآخر لفتت نظري مجلاتٌ كردية تصدُر باللغة العربية، وهذا يأتي إلى بث أغنيات عربية في قنوات فضائية كردية، دون أن يكونَ ذلك بالنسبة لغالبية القنوات العربية.

ثم ابتسمَ قائلاً: كنتُ أحياناً أزور بعض الأصدقاءِ الكرد في أعمالهم، فكان يقول لي الصديق: رجاء لا تتحدث معي باللغة الكردية، لأن الكردية محظورة كما تعلم، والحديث بها لا يؤدّي إلى فصلي فقط وقطع مصدر معيشة عائلتي، بل إلى سجني كذلك. هكذا عندما يتحدّث الكردي مع الكردي بلغته، يكون قد ارتكب جناية يستحق عليها العقاب، لكن هنا ليس فقط يُتاح للناس أن يتحدثوا بلغاتهم، بل يتحدث الكردي مع العربي بلغته بمحبّة ومودّة.

قال آوات: ليس بوسع أحدٍ أن يعيش سعيداً وهو في قطيعة عن الآخرين، ولا يكون الجارُ غنياً إلّا بقوة علاقاتِه مع جواره، لذلك ترانا فتحْنا أسواقنا أمام بضاعات كل دول الجوار، وانفتحنا على لغاتِهم، الناس يقبِلون على محبة بعضهم البعض، لكن السياساتِ المقيتةَ تتسبّب لهم بكل ألوان القطيعة، فلا يملكون من أمرهم شيئاً أمام جبروت تلك

السياسات. إنهم دوماً يعبّرون عن استيائهم عندما تتفاقم العلاقات بينهم وبين جوارهم، ويعبّرون عن مشاعر الارتياح عندما تزدهر بهم تلك العلاقات، ها نحن نرى بأن الأوضاعَ الأمنية تشتدّ في الأنبار، وسائر مدن العراق، فيلوذُ الناس بالإقليم الذي يستقبلهم لاجئين بكل حفاوة، ولسان حال الكرد يقول: الناس للناس، ولا خير في أناس يكونون للناس.

دخلت آفان حاملة الشاي، فقالت كلنار: إنكم تذكّروننا بالمرحلة الأولى التي تزوجنا فيها في إيران، كان ذلك منذ خمس وعشرين سنة مضت، أجل أذكر ذلك التاريخ جيداً، كنتُ نازحةً مع أهلي من مدينة حلبجة، كنتُ أرى كيف أن الطيور تتساقط من السماء، تنتفض للحظاتٍ، ثم تموت نتيجة استنشاقها للغازات السامة، أرى الكلابَ، والحمير، والأبقار، والجواميس ميتة، أرى قطيعَ الأغنام والماعز منتفخة إلى جانب جثث الناس.

كان آوات نازحاً من دهوك، هناك في ذروة المعاناة، اكتشفنا بأن المعاناة العظمى يمكن لها أن تفجّر حالاتِ حب عظمى أيضاً، هكذا انبثقت قوة علاقتنا الزوجية والرّوحية من قوة المعاناة التي شهدناها يوماً بيوم، وتجرّعنا مرارتها لحظةً بلحظة.

اكتشفْنا أن كل لحظةِ ألمٍ كانت تمرّ بنا كانت تزيد رابطةَ علاقتنا متانةً حتى ألفيناها كالجبل الذي يبقى شامخاً يتصدى لكل ما يمكن أن يتعرّضَ له من عواصف.

لبثت المرأةُ تتحدّث بعذوبة كما لو أنها تشدو بنشيد وطني، هو النّشيد العائلي الذي سوف تتأسّس عليه أركانُ عائلة كاملة تتألّف من ابنة، وابنين على وشك التخرج من دراساتهم الجامعية. بدأ يستمع إليها وهو يشعرُ بأنها بطلةٌ حقيقية، استطاعت أن تفعلَ شيئاً مجدياً في حياتها، كذلك نظر إلى الرجل الذي هنَّأه على ذهنيته المنفتحة التي كانت سبباً في بناء هذه العائلة التي كان يمكن لها ألّا تكون، وألّا يُتاح لها أن تنبثق من ثنايا تلك الأحداث المُروِّعة، كما أن الطبيعة تقدم بصمودها ومقاومتها ربيعاً مكتملاً بعد شهور القحطُ والعواصف والصّقيع.

تستأنف المرأةُ نشيدَها، وهو يتخيل كيف أن المرأة تكتمل بالرجل، وأن الرجل يكتمل بالمرأة، تستمدّ المرأة قوتَها من الرجل، ويستمدّ الرجل قوته من المرأة، وفي هذه المعادلة التي تخيلها، بدا له أن الرجلَ ليس بوسعه أن يتمتّع بلياقة قوته في معزلٍ عن المرأة، مهما تبدّت له معالم هذه القوة، وأن المرأةَ ليس بوسعها أن تتمتع بمزايا قوتها في معزل عن الرجل، مهما تبدّت لها معالم هذه القوة.

خطرَ له في تلك اللحظة وهو يشعر بحالة احترامٍ نحو قوة احترام هذا الرجل لزوجته أن الرجل إذا احترمَ زوجته، فليس بعيداً أن يكون محترما فيما سوى ذلك، وإن لم يكن محترماً مع زوجته، فليس بعيداً ألا يكون محترماً فيما عدا ذلك. إذا احترمَ الرجلُ زوجته، فإنها تحترم احترامَها له، وإذا لم يحترم الرجل زوجته، فإنها تقف دون احترام لا احترامه لها.

تخيّلَ أن أقوى كفٍّ يمكن أن تتشابك مع كفّ الرجل، هي كف المرأة، وأن أقوى كفّ يمكن أن تتشابك مع كف المرأة هي كف الرجل، حينها لن يكون بوسع قوة بشرية أن تزحزحَ قيد أنملة ما بينهما، وفقط عند تلك الحدود المباركة يلتمسُ الإنسان إشراقةَ إنسانيته كما لو أنه يفتح عينيه عليها أولَ مرة، عند تلك الحدود، يبدأ تعلّقُه الحقيقي الفعّال بالحياة، ويشعر بمسؤوليته تجاهها وهو يقف على رأس عائلة مكوّنة من أبناء وبنات، وسمو علاقات اجتماعية، وصلات قُربى لم يكن يتحقق من ذلك شيء لولا تشابك تلك الكفّ بتلك.

بدا تكاملُ علاقتهما الزوجية يتشكّل أمامه مع حديثها، فسألها: ما الذي يجعل المرأة تشعر بعاطفة حبٍّ عفيفة تجاه رجل وتؤثره على بقية الرجال كي تظفر به زوجاً؟، أحسّت بشيء من الخجل الذي ظهر على محيّاها، ثم قالت وهي تنظر إلى زوجها نظراتٍ محمّلة بالفخر والاعتزاز: ثقة الرجل بنفسه، لأنه إن لم يقعد على ثقة بنفسه، لن يكون بوسعه أن يبدر أي ثقة لا إلى زوجته، ولا إلى أولاده، ولا إلى أي شخص آخر.

ما لفت نظري في آوات بقوة، ذهنيتُه المنفتحة التي بدأت تكتمل مع تنوع قراءاته، هذه القراءات التي كللت تلك الذهنيةَ بنزعةٍ إنسانية حتى صار يفسّر أي ظاهرة يشهدها و لو كانت سلبية، تفسيرا إنسانياً، يقدّم تحليله لما يبدر من الآخرين تجاهنا تحليلاً إنسانياً، وهذا جنّبه كثيراً عوامل التعرض لحالات الاستفزاز، وردّات الفعل. لبثت تنظرُ إليه وتقول: أنا مدينة لهذا الرجل الذي تَتلمذتُ على يديه كما لو أنني طالبة ابتدائية، هكذا عرفتُ أن بوسع الرجل أن يرتقي بالمرأةِ كما بوسعه أن ينحدر بها.

* * * *

مهاجرون وأنصار..

يتجاوز الزمنُ عامَه الثالث والنصف من هَول المأساة التي لم تدع شيئاً من إنسان ونبات وجماد، إلّا طالته. للتو أدركَ الناسُ بأن الأمر ليس كما توقّعوا، وأنهم ضحيةُ حساباتٍ سياسية، وقد تحوّلوا إلى أوراق مساومَةٍ بأيدي الدول التي تملك مقدرةً إيقاف هذه الحرب، بيد أنها لا تقدِم على ذلك، وحتى لا تنطفئ النيران ويلوي النظام ذراع الثورة ويلقيها أرضاً، ويجهضها، فإن هناك مَن يمدّها بما يكفل لها استمرار المواجهة المسلحة. بلغت النظامَ إشارةٌ قوية بأن هؤلاء الذين يطالبون بكرسيه، لا شيء يؤهلهم لذلك، حتى الدّولُ العظمى تتردد من ثقتها بهم، لأنها ترى كما يرى الشعب الذي بدأ انتفاضته بالشعارات، أن هؤلاء ربيبة النظام الذين عندما رأوا مصالحَهم تتزحزح مع تصاعد الثورة، وتصاعد لهجات التّدخل الأجنبي لحسم الأمر عسكرياً، خرجوا عن النظام، وأعلنوا انشقاقهم، فكان ذلك بمثابة أوراق رابحة حقيقية للنظام لأنهم لا يكونون موضع ثقة بالنسبة للمنتفضين الحقيقيين على الأرض، وهم على معرفة وطيدة بتاريخهم.

بدأ هؤلاء يحتلّون شاشاتِ التلفاز، مواقعَ التواصل الاجتماعي، شتى وسائل الإعلام، ونتيجة لذلك، بدأت خلافات تنشب بينهم، لتكون فرصة يكشفون من خلالها أوراق بعضهم البعض على الملأ، ما أدى إلى تشكيل أحزاب، وهيئاتٍ متناقضة في توجهاتها، ليلبث البابُ مشرعاً أمام دخول ميليشيات مسلّحة للقتال على الأرض في تحوّل جديدٍ بث شيئاً من الاستقرار إلى النظام الذي لبث الوحيدَ بنظر العالم لمواجهة قوات متطرفة، ثم ما لبث أن خطا خطوةً أخرى نحو الاستقرار حينما أعلن التخلي عن سلاحه الكيماوي، وهو يعتقد أن ذلك بمثابة نجاة من ضربة أمريكية أوشكت على اقتلاعه بالقوة العسكرية.

لكن ذلك لم يكن ليحدث حتى لو لم يتخلَّ عن سلاحه الكيماوي، لأن فكرة إزاحته بالقوة العسكرية في هذه المرحلة مُستبعدَة، إلّا أن ذلك من شأنه أن يمدّ أمدَ الحرب الداخلية، ويكون بمثابة استقطاب للمقاتلين من كل مكان إلى ساحة خلت من أسلحة كيماوية يمكن أن تسحقَهم في لحظات.

عند ذاك انهالَ المقاتلون من كل مكان للقتال على الأرض دون هدفٍ بعينه سوى هدف القتال، قتال النظام، قتال ميليشيات أخرى، قتال الجيش الحر، قتال المنتفضين السلميين، قتال بعضهم البعض، الأمر الذي مكّن النظام من استعادة أجزاء كبرى من المساحات التي كان المسلّحون سيطروا عليها. أمام هذه التناحرات، لم يبق أمام الأكراد سوى أن يعلنوا إدارةً مركزية للمناطق التي يعيشون فيها بكثافة لتعود الخلافات كرّةً أخرى إلى الكرد والكرد أنفسهم على إدارة المركز، وكذلك بين الكرد وميليشيات عسكريّة على فكرة إدارة المركز، وهذا ما أكسب النظام قوة أكثر مما لو دخل في صراع مسلّح مباشر مع الكرد.

بدأت فكرة الهدوءُ تبتعد عن حساباتِ الناس الذين تدفّقوا في اللجوء بشكل أكثر كثافة، وقد أخذ يتّضح أن التغييرات الكبرى لا تبدأ إلّا من الداخل، التغييرات التي من شأنها أن تستبدل نظاماً بنظام، وواقعاً اجتماعياً بواقع اجتماعي جديد.

بلغت إشارةٌ إلى الناس بأن القوى العظمى يمكن لها أن تستبدل نظاماً بنظام بيد أنها لا تمتلكُ أن تحقّق الأمنَ في النظام الجديد.

الانقلابات العسكرية التي تمخّضت من الداخل استطاعَت أن تحقق الأمن، بيد أنها لبثت على جناح قلقٍ من أي محاولة للانقلاب عليها، مما جعلها في حالة طغيان مستمرّ، لكنها كانت تمنُّ على الناس بأنها تحقق لهم الأمن، وأن لا أحد بوسعه أن يتطاول ويتجرّأ ليطلقَ عياراً نارياً حتى ابتهاجاً في حفلة زفاف.

رأى الناسُ اللجوءَ إلى الحل الوسط بين التّدخل الخارجي، وبين الانقلاب العسكري، فكانت فكرة الثورة السلمية التي ما لبثت أن اصطدمت بثورة المعارضين المنشقين

الذين يعطون صورةً للعالم عن عدم توحّد الصفوف من أجل قيادة البلاد، فلبث الذين ينتفضون سلمياً بالداخل لا يهمهم سوى تقوية صفوفهم بالمزيد من الانتفاضات السلمية واستقطاب شرائح أوسع، وهم ينظرون إلى هؤلاء الذين يظهرون في وسائل الإعلام وينشقّون عن بعضهم البعض بعد أن انشقّوا عن النظام، ويسعون إلى طرق أبواب الدول للحسم العسكري.

باتت أوضاعُ الأكراد أكثر اضطراباً وهم يعلنون حالات حمايةٍ شعبيّة للمناطق التي يعيشون فيها بأغلبية. عندما تولّى عناصرُ حزب العمال الكردستاني زمامَ الإدارة، لم ترقِ الفكرةُ لوحدات معارضة في ميدان الحرب، إذ كيف بموضع جغرافي أن يكون بمنأى عن الدمار، الأمر الذي أشعل فتيل حرب بينهم من أجل أن يوقفوهم عن ذلك الذي بدأ يشير إلى فكرة إنشاء إقليم كردي ثانٍ على غرارِ الإقليم الأول.

أخذَت الميليشيات تنسحبُ من مواقعِها لتقاتلَ الأكراد، حتى بدأت الثورة تنحرف عن مسارِها كثورة شعبية، وانتفاضة جماهيريّة وفق مسارٍ محدَّد وغاية مَرْجُوَّة، لتمتدَّ عملياتُ القتال وخطف الأبرياء حتى إلى أعماق قرىً نائية في الوجه الآخر، لم ترق الخطوة لأحزاب كردية أخرى وهي ترى أن هذا الحزب يتولى زمام الإدارة، مما زاد الأمر تعقيداً وتداخلاً وتصعيداً.

من جانبها، بدأت الأحزابُ المعارضة خارجَ البلاد تعاني ذات الاضطراب الذي أدّى إلى انشقاقاتٍ أظهرَت للعالم بأنها غير مؤهّلة لقيادة دولة، وهي التي لا تفلح في قيادةِ فكرة التوجّه الجديد، فأدّى هذا إلى وقوفِ العالم إزاء حقيقة أنه يقف أمام طفولية المعارضة الناضجة، وهذه الطفولة لا تحتاجُ شيئاً قدرَ حاجتها إلى وقتٍ كي تنمو، وتدخل مرحلة المراهقة، ثم تلج سن الرّشد.

رأى الكرد في واقع كهذا أنهم يتحولون إلى رهائنَ من أجل المفاوضات، وهي إضافة أخرى إلى جملةِ ما لحِقَهم من ويل، فبدأت الحشودُ البشريَّة تنهال إلى الإقليم وهي تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتواجه حالاتِ المنع من أطرافٍ متعددة كي تحول بينها

وبين اللجوء حتى يلبثَ الناس كأوراق للمفاوضات بين المقاتلين على الأرض، وما زاد الأمرَ تفاقماً أن هؤلاء بدؤوا يرسلوا رسائلَ إلى الإقليم كي لا يستقبل اللاجئين حتى يلبثوا قوةً تسندهم على الأرض، يطلقون من خلالها نداءات إنسانية إلى العالم.

ثم بدأت محاولاتُهم تطارد اللاجئين لتستكثرَ عليهم لجوءهم، وتسعى إلى إحداثِ شروخ بين الأكراد اللاّذين، والأكراد المُحتضِنين لهم في الإقليم، بيد أن الاهتمامَ الشّعبيّ بهم تضاعف، ومتُنَ الأزرُ في مواجهة لعبة السياسة التي جرعوا مرارتها، واكْتَووا بنيرانها، ودفعوا ضريبتَها من قبل، وهم الأعلم بدواعيها.

بعد بقاء الأفواج لأيامٍ في العراء، استقبلَتْهم الحشود البشرية وهي تفتح لهم الحدود، وتقدّم لهم مستلزمات الحياة.

حيث تم تجهيز كل شيء لهم، غدت أفواجُ السيارات تأخذُ لهم حاجاتِهم إلى المخيمات، أو إلى البيوت التي شاؤوا الإقامةَ فيها.

بدأت سياراتُ سكّان الإقليم وهي حاملة المساعدات الإنسانية تدورُ في الأحياءِ بحثاً عن بيوت اللاجئين كي تمدَّهم بهذه المعونات ولسان حالهم يقول: إمّا أن نعيش معاً، وإمّا أن نموت معاً.. فكان ذاك بمثابة رسالةٍ بأن إراداتِ الشعوب تعلو إرادات أهل السياسة، ومشاعر الشعوب الإنسانية، في سطوع تلقائيتها، وقوة براءتها تفوق حساباتِهم. رأى سوادُ الناسِ في الإقليم أن ذلك أبقى أمّتَهم واقفةً على قدميها وهي تواجه أشكال الإبادة سواء أكانت في حظر اللغة، أو حظر المظاهر القومية من فلكلور ودبكات وآداب وفنون، أو عمليات إبادة جماعية مباشرة.

عندما ينظَرُ إلى حميمية استقبالِ الناس هنا لإخوانهم الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأعمالهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، وذكرياتهم، قسراً تحت وطأة الكارثة الأكبر التي تعرّضت لها بلادهم عبر تاريخها الطويل، لا يسعُه أن يرى مثيلاً لهذا الحدث الإنساني عبر التاريخ البشري برمّته، حيث فتحوا لهم بيوتهم، قاسموهم طعامَهم وشرابهم وأموالهم.

حتى أولئك الذين يعيشون في أحوال معيشية متواضعة، قاسموهم لقمةَ عيشهم، وأبوا أن يلبثوا في معزل عن المشاركة.

أصحابُ المصانع والمعامل والشّركات، خصّصوا مبالغَ شهرية لهم، ومنهم مَن أنشأ المشاريع الجديدة كي يعود دخلُها إلى هؤلاء.

كذلك الذين يعيشون في الاغتراب، أبوا البقاءَ دون المشاركة، فغدوا يرسلون الأموال كي توزَّع على العائلات الكردية المنكوبة بما أصابها من هول حربٍ فتّاكة طال أمدها.

حينها فقط تتقافزُ إلى ذهنه واقعة المهاجرين والأنصار التي سجّلتْ صفحةً ناصعةً في السّجل الإنساني، عندما استقبل الأنصارُ المهاجرين الذين تركوا مكةَ ولجؤوا إلى المدينة، فاستقبلَهم الأنصارُ بحميمية إنسانيةٍ لم يسجلْ لها التاريخ البشري شبيهاً من قبل، بلغ الأمر أن استشهد اللهُ بمواقفهم الإنسانية حينما قال:{وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ }[٥]

تعدّدت المواقفُ الإنسانية التآزرية الإغاثية في السجل الإنساني، إلّا أنها لم ترتقِ إلى ذروة ما بلغه الأنصارُ مع المهاجرين من قوة العطاء، وقوة التآزر.

ها هو موقف الكرد في الإقليم يعيد إلى ذاكرته تلك الواقعةَ الإنسانية وهو يشهد الناسَ يقدِمون على بذل ما بوسعهم كي يستقبلُوا الكردَ في هذا الحدث التاريخي، وهم يجنّبونهم وقوعَ كارثة إنسانية، وقد دنا عددُهم من نصف مليون لاجئ غالبيتهم العظمى أطفال ونساء وشيوخ ومرضى، لم ترحمِ الحربُ أحداً.

بدأت الأزمةُ تجعلهم يقتربون من بعضهم البعض أكثر، يحبّون بعضهم البعض أكثر، يتآزرون مع بعضهم البعض أكثر.

---

[٥] سورة الحشر، الآية ٩

في ذروة هذا التعاضد، باتت كلمة كردستان بالنسبة لعامّة الكرد ترتقي إلى مقام المقدّسات التي لا يُبرَر أي مساسٍ بها من قبل أي شخص، إذ يمكن لهم أن يختلفوا ويتحاوروا حول أي شيء باستثناء هذه الكلمة التي لا يختلفُ عليها اثنان، وأي خلافٍ بشأنها يشكّل مأخذاً عميقاً يمسّ جوهرَ الانتماء القومي، وجوهرَ نقاء الدم الكردي الذي يجري في العروق.

أيقنوا أن هذه الثوابتَ وحدَها قد جعلت الكرد يحقّقون هذه المعجزة البشرية الكبرى في حفاظِهم على لغتهم، وكذلك حفاظهم على إحساسهم العميق بالمسؤولية العظمى تجاه كرديتهم.

حينها بدأت المشاعرُ القومية تترسّخ في كينونة الإنسانِ الكردي أكثرَ من أي وقت مضى حتى غدتْ مذهباً يتمذهب به حيثما كان، وهو يدرك أن هذه المشاعر جعلت كردستان محجاً لعامة الكرد عبرَ التاريخ، مهما تغرّبَ الكرديُّ، تبقى عينُه على كردستان، ويبقى شوقُه دائماً لزيارة كردستان.

* * * *

كمثل نفاثات في عُقَد..

خطرَت له أفكارٌ كثيرة، عندما اتصلَ به صديقه سيفان وأخبره بأنه وصلَ للتو مع عائلته إلى هولير، وقد حصل على رقم هاتفه من أحد الأصدقاء، ويحتاج إلى مساعدته.

عندئذٍ طلب إليه أن يبقى في مكانه ريثما يرى طريقة كي يلتقيا، حين أغلق الخط، سرعان ما خطر له /جنكدار/.

– والله هذا وقتٌ مناسب لتساعدني يا صديقي جنكدار.

هَمْهمَ بهذه الجملة وراحَ يبحث في ذاكرة هاتفه عن الاسمِ حتى عثر عليه، وعلى الفور أجرى به الاتصال. لبثَ يرِنّ على هاتفه حتى انفصل الخط دون إجابة.

عندئذ أخبرَ آفان بالأمر، فطلبت إليه أن يخرج ويستأجر سيارة كي يذهب ويستضيف صديقه في البيت ريثما يجد له بيتاً.

– معك حقٌّ عزيزتي.

قالها وراح يرتدي ثيابَ الخروج، وأثناء ذلك، أصدر هاتفُه رنيناً، فحملتْه آفان قائلة وهي ترنو إلى الشاشة: إنه من جنكدار. فتحَ الخط، ليسمع صوت جنكدار معتذراً بأنه عندما اتصل، كان يعينُ أحد الركاب في إيصال بعض حاجاته إلى داخل البيت، وكان الهاتف إذ ذاك في السيارة ولم يسمع الرنين.

قال: صحيح يا صديقي، أحدُ معارفي وصل للتو مع عائلته من سورية، أريدك أن تذهب وتجلبه إلى بيتي. قال: بسيطة، حالاً، لكن أين هو؟

قال: سأرسل لك رقم هاتفه برسالة، لتتصل به كي يرشدك.

بعد نحو ساعةٍ، رأى السيارة تدخل الشارع، وتقف بمحاذاة الباب.

تقدّم مع زوجته يستقبلُهم، كان سيفان برفقة زوجته وابنين صبيين، وأمه العجوز.

دعاهم إلى الدّخول، وطلب من جنكدار أن يتفضّل أيضا، فدخل قائلاً: أريد أن أسمع آخرَ أخبار البلد من أخينا. جلسوا جميعاً في غرفة الاستقبال، وبعد قليل، طلبت آفان من المرأتين أن تستريحا في الغرفة التي أعدتها لإقامتهم، فخرجتا، ولبث مع صديقه وابنيه، وجنكدار. قال: ما هي أخبارك يا جنكدار؟

قال: والله يا صديقي أحياناً أفكّر بترك مهنة السواقة حتى لا أرى مزيداً مما رأيتُ، ربما عملي كسائق تكسي يُريني ما لا يراه غيري، ويُسمعُني ما لا يسمعه غيري.

بدأ يصغي إلى ما يقولُ ويشرد بما آل إليه أمر الكردِ نتيجةَ هذه الحرب، وكأن التاريخَ الكردي يعيدُ نفسه ويتجدّد بذات العجلةِ على رأس كل كارثة تحلّ بهم، هكذا عندما تتاحُ للكرد فرصةٌ واحدة كي يتآزروا للمّ الشمل، تبدر المحاولاتُ والمساعي بقوة كي تفتّتَ قواعد هذا الشمل وتنال منه، هكذا دوماً يتم دس السم في صفوة العسل الكردي.

عندما رأى العالمُ كله قوةَ التآزر التي بدرت من شعب إقليم كردستان تجاه أكراد سورية الذين أجبرتهم فتاكة الحرب أن يهجروا ممتلكاتهم، وبيوتَهم، وذكرياتِهم، وبلادهم، وبنية علاقاتهم الاجتماعية كي ينجُوا بأطفالهم ونسائهم وشيوخهم، ويلوذوا بالإقليم، لم يرقْ هذا التآزر للبعض الذين رأوا أن يفعلوا شيئاً يمكنُ له أن يفسدَ روح صلةِ الرحم القومية بين أبناء الجلدة الواحدة.

قال جنكدار: فجأةً رأيت الطرقاتِ تمتلئ بأفواجٍ من المتسولين، رجالاً ونساءً وأطفالاً.

ثم قال وهو يجحّظ عينيه: تمنيتُ لو عرفتُ أحداً منهم، إذا لا يعقلُ ألّا أعرف كردياً واحداً من كل هذه الحشود، وتبيّن لي فيما بعد أن هناك مَن أتى بهؤلاء من أجل القيام بهذا الدور فحسب، لا أعرف كيف استطاعُوا أن يجمعوا كل هذه الحشود من الغجر، وأبناء القاع، وبعض ذوي السوابق، ليرسلوهم إلى الإقليم على أنهم لاجئون، وقد حصلُوا على فورمات، و إقامات، وانتشرَ قسمٌ منهم في مخيّمات اللجوء، وقسمٌ آخر في مدن وضواحي الإقليم.

لم يكنْ من السّهولة على الأسايش أن يميزوا بين الكردي وغير الكردي، فكلاهما يتحدّث الكردية بطلاقة، وليس بوسع أحد أن يميّز بينهما، لم تكن هذه هي المعضلة لأن لا مشكلة في دخول غير الأكراد إلى الإقليم كحالةِ لجوءٍ كما قال لي بعض الأسايش الذين كانوا يصعدون معي في بعض التوصيلات، وكذلك ما رأيت من خلال عملي الذين يقيمون مشاريع استثمارية كبرى في الإقليم من غير الكرد، ومن مختلف الجنسيات، وقد رأيت العمّال الذين يعملون في الإقليم من غير الكرد بأعداد كبيرة، لكن كمَنت المشكلة في الذين جُنّدوُا لأداء هذا الدور المخزي، وإحداثِ شرخ بين الكرد والكرد.

أردفَ جنكدار بعد قليل من الصمت: تبيّن لهؤلاء أن نسبةَ النساء والأطفال والشيوخ والمعاقين من اللاجئين تزيد عن ٨٥ بالمئة، وما تبقّى من نسبة الشباب تعمل على الأرض في المناطق الكردية، وتلك إشارة إلى قيام إقليم كردي ثانٍ لا يقل قوة عن الأول، وبالتالي يقوى أحدهما بالآخر.

لقد اتحدّت مصالح عديدة لهذه الغاية في سبيل إحداث شروخَات قويةٍ في بنية هذه العلاقة بين الكرد في هذه المحنة التي سوف يخرجون منها بإقامة إقليم كردي، وهم يدفعون أثماناً باهظة في سبيل ذلك، حيث يتعرّض مدنيوهم العزّل لعمليات خطف جماعية، وتتعرض قراهم لعمليات نهبٍ وقصف ومداهمة، وبالتالي تُطلب منهم المقايضات والتنازلات في سبيل تحريرِ رهائنهم، حتى رأوا أن يجنّبوا الفئات الضعيفة نتائجَ هذه المخططات فتلجأ إلى الإقليم.

بعد أن اتضحتْ مصادر هذه الظاهرة التّسولية التي لم يكن لها أي مبرر، لأن المخيمات تقدّم كل مستلزمات المعيشة للنازحين، والذين لديهم أموال ويريدون استثمارها، يمكن لهم أن يقيموا في بيوت سواء اشتروها، أم استأجروها، كذلك أصحاب المهن، وأصحاب الخبرات، وأهل النخبةِ في سائر المجالات.

أشعلَ سيجارة، ثم استأنف يقول: أذكر لكم حادثةً وقعت معي منذ نحو شهرين عندما كنت أمضي في البازار، وأشارَ لي شخصٌ للوقوف، وكان معه شخصٌ آخر.

عندما توقفت، وتقدّما ليصعدا في السيارة، فجأة رأيتني أنظر إلى شخص أنا على معرفة جيدة به، فنزلت، وبدأتُ أتبادل معه القبلات، لكنني فوجئتُ بأنه لا يحدّثني بلغته التي أحدّثه بها، بل يحدّثني باللغة الكردية.

استغربتُ لذلك، وكاد الأمر يلتبس علي، لكنه صعد مع صديقه وطلب أن أوصلهما، عندئذ ومع قيادة السيارة، قلت له بلغته: منذ متى أتيت من سوريا إلى الإقليم؟

قال: منذ ستة أشهر.

قلت: أنت ضيفنا، والواجبُ يقضي أن نستضيفَك أنت ومَن معك على الغداء.

قال: شكراً، أتيتُ بمفردي إلى الإقليم أهلي ما زالوا في سورية.

قلت: لماذا لا تجيبني بلغتك، لم يسبق لنا أن تحدّثنا معاً اللغة الكردية لمعرفتي بأنك لست كردياً.

قال: بل أنا كردي، لكن يبدو بأنك نسيت، وقد تحدثنا معاً في سورية بالكردية.

قلت ضاحكاً: ما دمت كردياً، إذن فقد وفرّت علي وجبة الغداء، مثلك مثلي هنا.

بعد أن اتضحت هذه الحقيقة في الإقليم، لم يكفَّ هؤلاء عن سعيهم، بل باتوا يتربّصون أي ثقب كي ينفذوا منه للنيل من التّكاتف الكردي الكردي، فبدؤوا يعولون في مسعاهم على الذين يجيدون الكردية بطلاقةٍ كي يندسوا في الصفوف لعلّ الإقليم يغلق أبوابَه أمام هؤلاء حتى يلبثُوا أوراقاً للرهن والمقايضة، من جهة أخرى حتى يقول كرد الإقليم: هؤلاء الذين استضفناهم، ليتهم اكتفوا بعضّ اليد التي احتضنتهم، بل يسعون إلى بترِها.

ثم بعد أن تتحقّق هذه الغايةُ، يشيعون في الناس بأن كرد الإقليم تخلّوا عن أخوتهم وبني جلدتهم في محنتهم الكبرى، حيث أساؤوا معاملة أطفالهم ونسائهم وشيوخهم، بل طردِوهم من الإقليم، وأغلقوا أبوابهم في وجوههم، تركوهم يموتون على الحدودِ برداً

وجوعاً دون أن يرأفوا بحال إنسانٍ لجأ بأطفاله الصغار من بطش الحرب، حاله كحال قطّة حملَت بأسنانها صغارَها ولبثت تجري في العراء مذعورةً كي لا تنهشَها ذئابٌ تطاردها، وعندما رأت باباً مفتوحاً، فرحَت لذلك وسارعت إليه، بيد أنها عندما بلغته، أُغلق في وجهها.

بعد قليلٍ من الصّمت، ارتسمَت بسمةٌ على محياه وقال: لكن الوقائع الطّيبة التي أراها أيضاً تخفف عني.

ثم بدأ يسردُ لهم الحادثةَ التي وقعت مع ابنته عندما طلبت إليه أن يأخذَها إلى البازار لتبتاع بعض مستلزمات عملها في الخياطة، وهناك طلبَت إليه أن يذهبَ، وعندما تفرغ من شراء احتياجاتها، سوف تتصل به كي يأتيَ ويعيدها إلى البيت.

بعد نحو ساعتين نصف، اتصلَت به، وبدل أن يسمع صوتها، تناهت إلى سمعه نبراتٌ مثقلة بالبكاء، اعتراه ذعرٌ وعلى الفور أوقف السيارة وقال: ماذا حدث يا بنتي؟

لم تستطع ابنته أن ترد سوى أن طلبت إليه أن يستعجلَ بالحضور إلى ذات الموضع الذي أنزلها فيه.اتجه جنكدار بسرعةٍ إلى الموضع، فألفى ابنته تقبع بيأس على رصيف والدموع تترقرق في عينيها. تقدّم إليها وقد علا الشحوبُ وجهه: ما بك يا جين؟!

صيغة أمي.. ثم انفجرت ببكاء عميق.

عندما أنهضَها، أردفت: أضعت الصيغة يا أبي.. لستُ حزينة عليها لأنك تستطيع أن تشتري لي بدلاً عنها، لكنني حزينة لأنها كانت هدية أمي وتحملُ رائحتها.

ليتني تركتُها في البيت، ولم أضعها في حقيبتي، كنتُ ماسكةً بها في يدي، لا أعرف أين سقطت مني، درتُ على كل الدّكاكين التي دخلتها، بحثت في كل الشّوارع ولم أجدها.

تذكر جنكدار ذاك اليوم الذي رأى فيه زوجته تقدّم صيغتها إلى ابنتها قائلة: هذه أصبحت لك يا جين، لم تعد تلزمني، هذا كلّ ما يمكنني أن أهديه لك يا بنتي وقد غدوتِ صبية.

انهمرَت دموعٌ من عينيه، وقد غلبته نوبةُ بكاء، ثم أمسك بيد ابنته وأعانها في الصّعود إلى السيارة، متجهاً إلى البيت.

بعد خمسة أيامٍ بينما كان جنكدار يمضي بسيارته في البازار، لفتَت نظرَه صفحةٌ بيضاء معلَّقة على جدار مكتوب عليها باللغتين الكردية، والعربية تفيد بأن الذي فقد صيغة، عليه أن يتصل برقم هاتف تم كتابته في أسفل الصفحة.

أوقفَ السيارة في ركن، وجرى إلى الصفحة يعيد قراءتها، راوده شعور مباغت بأنه طوال كل تلك الأعوام لم يقدم لابنته خبراً ساراً بحجم هذا الخبر، خطا نحو سيارته، وامتدّت كفّه بحركة أوتوماتيكية إلى جهازِه الخلوي، ثم عاد يقف قبالة الصفحة، وبدأ ينقلُ رقمَ الهاتف المدوّن.

في تلك اللّحظة خطر له خاطرٌ جعله يتردد من الاتصال، وعلى جناح سرعة صعد سيارته ومضى بها نحو البيت وعلامات الحبورِ باديةٌ على سحنته.

بدخوله البيت، رأى ابنته مع جارتين لها، فلفتت نظرُه الكآبةُ التي بدأت تأكل من رونق وجهها، عندما رأته، نهضت إليه، إذ ذاك قال بذات البسمة التي دخل بها: لك عندي يا بنتي خبر سوف يسرّك.

هزّت رأسها باستفسار. عندئذ، طلب منها أن تصطحبه لأمر يتعلّق بهذا الخبر السار.

تقدمت إلى جارتيها، واستأذنتهما بأنها مضطرةٌ للخروج مع أبيها، طالبةً منهما أن تبقيا في البيت ريثما تعود بعد قليل، بيد أنهما نهضتا وقالتا بأنهما سترجعان في وقت آخر، حينها قالت لهما جين بأنهما لو خرجتا، فلن تذهب مع أبيها، فبقيت المرأتان في البيت.

عندما صعدَت السيارةُ، ألحّت عليه كي يخبرها بهذه المفاجأة، لكنه تمالك نفسه دون أن يقول شيئاً حتى أوقفَ عجلات السيارة بالقرب من تلك الصفحة، ثم طلب منها أن تنزل. مضى معها بالقربِ من تلك الصفحة وهو يقول: انظري جيداً، لعلّ أمراً ما يلفت نظركِ.

بدأت توزّع نظراتِها يمنةً ويسرة، وبغتة تجحظتْ عيناها، ولمعت إشراقة على سحنتها، ثم خرجت من فمها كلمات: شكراً لك أيها الرب الرحيم.. شكراً لك. عندئذ بدأ ينقل الرقمَ من جديدٍ على الجهاز الذي كان يحمله بيده، وبعد نحو ساعة كانا في بيت الرّجل الذي أعادَ إليهما الصيغة بعد أن تأكّد بأنها تعود إليهما.

في المساءِ قال له سيفان الذي كان يعملُ مديراً لمدرسة ابتدائية: منذ نحو أربع سنواتٍ يا صديقي ونحن نعيشُ يوميات الرعبِ، ننامُ على وقع الرعب، نستيقظ على وقع الرعب، لا شيء في حياتنا يفوقُ الرعبَ الذي بات يلازِمُ كل لحظة من حياتنا.

عندما يُطرَق الباب، ننتفض جميعاً برعب، عندما نسمعُ عياراً نارياً، تتجه إلينا شظايا الرّعب، حتى رغيفُ الخبز، نخرجُ من أجله برعب، ونعود به برعب.

مع حلولِ الغروب، لا ترى أحداً في الطّرقات في عمق عتمةٍ بلا كهرباء، وأجهزة هواتف مفصولة، وتكاثر ملثّمين في الشوارع، فقد بدأ النظام يستقطب هؤلاء الذين كانوا عاطلين عن العمل، أو الذين أخرجهم من السجون للعمل معه نظيرَ رواتب مرتفعة، ينتشرون في الطرقات كما لو أنهم أشباح، يمتلكون صلاحياتِ فعل أي شيء بحق الناس دون أن يردعهم أحد، أو يحدّ من صلاحياتهم، يتلثّمون لأن الناس جميعاً على معرفة وطيدة بهم، كونهم من أبناء الأحياء الشعبية، الأمر الذي أدى إلى مداهمات من قبل ميليشيات مسلحة لقتل هؤلاء في بيوتهم، أو في الطرقات، لأنهم باتوا يشكلون قوة للنظام، وترشده إلى حيث تواجدهم، كذلك ترشد إلى مؤيديهم الذين يمدّونهم بمال وأسلحة وملاذ.

هكذا بدأنا نموتُ طفلاً، طفلاً، رجلاً رجلاً، امرأة امرأة، شيخاً شيخاً، هكذا بدأتْ بيوتنا تتعرض للهدم بيتاً بيتاً، في ظل موت بطيء، ودمار شامل. بتْنا نعيشُ في جحيمِ حرب فتّاكة هي أشد هولاً من استخدام أبشعِ الأسلحة الكيماوية، ذلك أن الأسلحةَ الكيماوية تفعل فعلها وتأتي بنتيجتها في وقتٍ مُحدَّد، ثم يتم العملُ كي يلتئمَ الجرح، كذلك

أكثر رعباً من أي عملية إبادة جماعية، لأن أي إبادةٍ تستغرق وقتاً محدداً، ثم تشرق شمسُ يوم جديد، أربع سنوات مضت، وما نزال ننتظر عودةَ الهدوء، ولم يعد.

كان قيامُ ثورةٍ شعبيّة في سورية شبيهاً بالمعجزة، ولم يكن أحدٌ يصدّق أن المسيراتِ المُناهضَة سوف تنطلق في شوارع مدن سورية، لكن التدخل العسكري، وحسْمَ المعركة لصالح الثوار في ليبيا كان بمثابة الدافع الأقوى، والطُّعم الأكثر جدوى للشعوب العربية المقهورة كي تنتفض على حكّامها لأن الحاكم لن يجد سوى ثلاثة خيارات أفرزَها الواقعُ الجديد، فإما التنحي عن طوعٍ، أو إبرام صفقة معه كي يتنازل عن مقاليد الحكم، أو الخلع بقوة عسكرية خارجية.

اكتظّت طرقاتُ العواصمِ العربيّة برمّتها بأفواجِ المتظاهرين بوتائر عالية وهم يحملون شعارات حاسمة واضعين نصب أعينهم الخيارات الثلاثة لحكّامهم، فكان لا بد من موضعٍ يمتصُّ فورةَ الاحتقان هذه، وباتت سورية الموضع الأكثر ملاءمةً لذلك في أطول فترة زمنية ممكنة، وشيئاً فشيئاً سوف يهدن الفوران في أرجاء العالمِ كلما زادت حدّة المعارك على الأرض السّورية التي تملك مقوماتٍ عاليةً أكثر من أي أرض أخرى لامتصاص هذا الاحتقان الكوني.

أمام هول الصدمة، انتبه النظامُ إلى هذه الحقيقة التي تجلّت له، فبات يصرّح منذ البدء بأنه يتعرّض لحرب كونية كل الأطرافِ باتت تفعل ما بوسعها قاصدةً، أو غير قاصدةٍ حتى تستمر الثورة كي تجد لها استقراراً في الأرض.

القنواتُ الفضائية في العالم، بما فيها قنوات النظام وتلك التي توالِيه، أفواجُ المحللين والصحفيين والإعلاميين، مواقعُ التواصل الاجتماعي، فعندما يتحدّث محلّل معارض، يوازيه محلل مؤيّد، وعندما تبث قناة مشاهدَ تدين النظام، تبث قناة للنظام مشاهد تدين الثوار، وعندما يتم التفاعل مع قنوات التواصل الاجتماعي، يجنّد النظام جيشاً موازياً يعمل ليل نهار في المواجهة.

كل شيءٍ بات بشكلٍ تلقائي يساندُ استمرارَ الحرب، حتى أفواجُ النازحين الذين لجؤوا إلى مخيّمات دول مجاورة، الذين انتشروا في بقاع الأرض لاجئين، أعداد الضحايا بين الجيش، والمدنيين، أفواج المعتقلين.

الكل يمضي وفقَ منهجِ الدّيمومة، حتى فقهاء وأئمة الطرفين باتوا جنوداً في دفع التّصعيد وحدّة المواجهة.

بتْنا في واقعٍ كلِّ شيء فيه غدا مجنّداً سواء شاء أم أبى من أجل أن يستمرّ القتال وتبقى الأبواب كلها مشرعة لاجتذابِ أكبر عدد من متطرّفي العالمِ ليجتمعوا في هذه الدائرة. عندما يُقتل طفلٌ، يزيد ذلك في التّصعيد، وعندما يُقتل ضابطٌ في الجيش، يزيدُ ذلك في التصعيد، عندما يُفَجَّر بناءٌ سكني، يلهب ذلك حدّة التصعيد، وعندما يُفجَّر بناء عسكري، يؤجّج ذلك من سعير التصعيد، عندما يتلقّى النظامُ أسلحةً جديدة، يفاقِمُ ذلك في التصعيد، وعندما يتلقّى الثوارُ أسلحةً جديدة، يزيد ذلك في التصعيد، عندما يستعينُ النظامَ بمقاتلين من خارج البلاد، يزيد ذلك في التصعيد، وعندما يستعين الثوارُ بمقاتلين من خارج البلاد، يزيد ذلك في التصعيد.

إنها براثنُ الحربِ التي اجتمعَت في ديمومتها مصالحُ الكون برمته، حتى بات وقوفُها يوحي برياح التّهديد على الكون برمّته.

استطاعَت تركيا بما يشبه المعجزةَ أن تخفف عن ذاتها وطأةَ الحزب الكردي الذي يشكّل تهديداً مستمراً لها، وهي تراه يتحوّل من تلقاء نفسِه للعمل في سورية، وأن تحظى برعاية العالم من خلال استضافتها أفواجَ اللاجئين اللاذين بأراضيها.

استطاعَت إيرانُ أن تجنّبَ نفسَها تهديدات الغرب بسبب أسلحتها النّووية، وباتت مشاهدُ الحرب المُروّعة تبث الفزع في نفوس شعوب المنطقة التي كانت تريد أن تثورَ على حكامها، فبات كل برميلٍ محمّل بالمتفجرات يسقط على حي سوري، يزيد الحكّام ثباتاً في كراسيهم، ويبعِد عن الشعب فكرة إزاحة الحاكم عن ذاك الكرسي، وبات يفضّل أن يقوم بتحنيط الحاكم في كرسيه ليبقى يحكم على أن يثور عليه،

ويعرّض البلاد والعباد لما يجري في مناكبِ تلك الأرض المُلتهبَة بالحريق. باتت فكرةُ القيام بالثورة ترعب كبارَ الناس وصغارهم، علماءَ الناس وجهّالهم.

أتت روسيا لتجدَ بأن ديمومة هذه الحرب تحقّق لها حضوراً نافذاً في إدارة سياسة العالم، وتحقق لها المكاسب من خلال بيعِ كميات هائلة من الأسلحة.

أمام ذلك رأتْ بلادُ الغرب بما فيهم الأمريكان أن اشتدادَ المعارك في سورية يحقّق لبلادهم الأمنَ حيث انخفضت نسبة الاعتداءات الإرهابية في بلادهم خلال سنوات الحرب هذه، كما أن المقاتلين الذين كانوا يخطّطون للقيام بعملياتٍ في أراضيهم، تحوّلوا للقتال في سورية، إضافةً إلى بعض العناصر من أبناء الغرب الذين يميلون إلى فكرة التّطرف وقد تسرّبوا للقتال في سورية، إلى جانب الدول العربية التي باتت تنفضُ عن نفسها هؤلاء حتى باتت سورية كالجسد الذي يجذب كل احتقاناتِ العالم ونزوعات أبنائه العدوانية، حيث تطهّرت بلادُ العالم كلها من هؤلاء ليفتكوا بعضهم بعضاً في هذه البقعة المحصورة، وهنا رأى العالمُ أن يتقاسم إمداد أطراف النزاع كي يبقى مستمراً، فإلى جانب دعم النظام، كان لا بد من وجود مَن يدعم الجيشَ الحر، وإلى جانبهما كان لا بد من وجود مَن يدعم الميليشيات المتطرّفة سواء بتيسير دخولهم إلى البلاد، أو مدّهم بالسلاح، ثم لا بد من وجود مَن يتمكّن من إدخالِ ميليشياتٍ أخرى مُناقِضَةٍ لتلك الميليشيات كي تتناحرَ معها على الأرض، ثم يتناحرُ الجميعُ مع بعضهم البعض، وتتداخل النزاعات حتى تتشابك الخيوطُ مع الخيوط، وتكمن الضمانةُ في استمرارية الحربِ حتى لو توقفَ الناس عن فكرة الثورة، وكفَّ الجيش الحر أيديه عن القتال، وارتضى الجميعُ بذات القيادة لحكم البلاد كي تعود الأمور إلى نصابها.

بدأ العملُ بجدّية في خطةٍ كي يتطهّر العالم من رجْس الذين يزحزحون أمنه، لينحصرُوا في بقعة واحدة ويريحوا العالم كله من شرّهم، هكذا رأى العالمُ نفسَه أمام خيارين لا ثالث لهما في علاجٍ كوني كبير كهذا لآفة الإرهاب التي أخذت تنخرُ في جسد الحضارة الإنسانية، فإما أن يبقى مستثرياً في جنبات العالم، وإما أن ينحصر في بقعة

جغرافية حتى تُطفئ نفسها بنفسِها، وعلى الجميع أن يعمل جاهداً كي تبقى مستمرة دون أن يتمكّن طرف من الانتصار على الطرف الآخر. من الوجه الاقتصادي الموازي، بدأت المكاسبُ تطال الجميع، فانظرْ إلى الذين باعوا كل تلك الخيم التي تؤوي ملايين اللاجئين، إلى تجار اللحوم، والبيض، والحليب، والخبز، وأصناف المأكولات المعلَّبة، والمجففة لأن هؤلاء جميعهم يستهلكون الطعامَ دون أن ينتجوا.

ثم انظرْ إلى الميسورين الذين لم يرتضوا بالعيشِ في المخيمات، فاستأجروا بيوتاً، أو اشترُوها، أقاموا مصانعَ وشركات تجارية في دول الجوار، هؤلاء الذين أغنوا تلك الدول بأموالِهم وخبراتهم، كما أن دول العالم أخذت تستضيفُ وتستقطب المبدعين من ذوي المهارات المتميزة لتنتج فيها.

إن ما يحدث لنا يا صديقي هو تصفيةٌ جماعيَّة بدماءٍ باردة، بنفَس طويل، بكثير من التّؤدة، أربع سنوات ثكلى، وما تزال العمليةُ مستمرةً دون أن يتكهّن أحد بالزمن الذي ستستغرقه حتى تضعَ الحرب أوزارها، إننا ننتظر المصادفاتِ التي قد تحدِث تغييراً في الموازنات بين القوى الكبرى التي غدونا رهنَ إشارتها. هكذا نحن الضعفاء العزّل الذين لم نكنْ نحسب حساباً لكل هذا الذي أصابنا، رأينا أنفسَنا أمام كل هذا الذي بتْنا ندفع ثمنه، لم تعد قضيةَ سقوطِ نظامٍ، أم بقائه، باتت قضيةَ سقوطِ شعب، أم بقائه، سقوط دولة، أم بقائها. كان يمكن لأي دولة أن تؤدي هذا الدورَ الذي نؤدّيه، بيد أن الظروف كلّها تآزرت علينا، ولذلك باتت كل دولة في حالة رعب من انتقال الدورِ إليها.

بعد أن روى لنا أخونا جنكدار ما آلَ إليه الأمر في الإقليم، يبدو لي بأننا نحن الكرد من أكثر ضحايا مفرزات هذه الحرب، وقد غدونا في نارين، نار الخطفِ الجماعي من البيوت، والقصف، والدمار في ديارنا، ونار المندسّين بين أهلينا في لجوئنا، هكذا هي الحرب يا صديقي، تنزعُ الرحمةَ من القلوب، إنهم يلاحقوننا حتى إلى المخيمات ويستكثرون علينا العيشَ في العراء في ظل خيمة، يسعون إلى إخراجنا منها.

توقفَ قليلاً، ثم تنهّد بعمق وأردف يقول: بدأت المسألةُ تخرج عن إطارها في أشكال التحدّي بين النظام وبعض الدول التي تدعم المعارضة في دوّامة من الرهانات، حتى بدأت تظهرُ علاماتُ الصراع بين قوتين خارجيتين، فلم يعد باستطاعة النظام أن يتنازلَ حتى لو راودته رغبةٌ في ذلك، لأن زمام الأمور خرجت من يدَيه، كما أن الأمور خرجت من أيدي المقاتلين المعارضين على الأرض، ثم بدأت كل قوى تستنجدُ بقوة عظمى لتقفَ إلى جانبها وتؤازرها.

لكن يبدو أنه كان من المُهم أن تظهر كل هذه الحقائق، وتمرّ الثورةُ بكل هذه المنعرجات التي سوف تجعلها أكثرَ قوة، وأكثر ثباتاً وهي تصرّ ألّا تخرج عن مسارِها.

* * * *

أنيسة الروح..

تتفتحُ برعمةُ ياسمينِ هولير في أُبّهة الصيف
تزدانُ دوحةُ هولير رونقاً على فضة أوراق الخريف
تغدو هولير أكثرَ زهواً في ألقِ مطر الشّتاء
تزدهر إشراقةُ جمالها على غصون شجرة الرّبيع
تمضي به خطواته وهو يشدو:
أحبكِ يا هولير إلى غمام الأرق،
أحبكِ يا هولير إلى مساحات الإعياء،
خطوةٌ في روحانية دروبك تساوي قارّةً..
نسمةٌ من رفيف هوائكِ تبث حياةً.

هولير.. يا دوحةَ مدن الأرض الخالدة،
يا ملكةَ الدنيا،
يا ساحرة الأفئدة،
يا عمقَ مهد الإنسان..
يا ميراثَ آل الكرد،
يا حقيقة حفدة الكرد الوحيدةِ في تاريخٍ من وهم..
موضعُك من ديار الكرد، موضع القلب من البدن..

يا نشيدَ الأم المثكولة بأيتامِها،
يا أنيسةَ الروح في وحشةِ الزمن،
يا دفءَ الفؤادِ في ليالي الزّمهرير..

يا بلسمَ الجرح في متاهة الوجع،
يا دمعةً على خدّ الزمن.

هولير.. يا شهدَ عسل الدنيا..
يا رحيقَ زهرة الأرض المباركة..

تزدادُ هولير ألقاً في أسواقها،
تزدادُ بهاءً في ساحاتها.

عندما دخلَت عليه هولير كان مستلقياً في الفراش، وهو ينتظرُ منذ نحو شهر بأنها يمكن أن تدخلَ في أي لحظة، لأنها في الزيارة الماضية طلبَت إليه أن يحدّثها عن بلادِه، قالت بأنها تريد أن تتعرّف على تلك البلاد وما يحدث فيها.
عادَ مساء من جولةٍ قام بها، جابَ الأسواقَ المُزدحمة بالناس، على أصوات أغنيات كردية ذات إيقاعٍ سريع تتعالى بين الزحام، عرج إلى سوق /شيخ الله/ بدأ يمشي في السّوق العامر الذي ينبض بالحياةِ، وهو ينظر إلى الهوليريين والهوليريات الذين يجلبُون أنواعَ الأعشاب من القرى في ساعاتٍ مبكّرة من الصباح لبيعها في هذا السوق القديم، يتوافد الناسُ من أرجاء هولير إلى هذا السوقِ لابتياع حاجاتهم.
تعرّفَ على أصناف الأعشاب التي يقبل الناس على شرائها: كَيرسك [٦]، قوراد [٧]، طولك [٨]، سورياز [٩]، سربسك [١٠]، شل[١١]، خه ندَه لك [١٢]، طرشوك [١٣]، كويزي [١٤]، جاتر[١٥]، كه نكر [١٦]، ريواس .[١٧]

---

[٦] نبتة ربيعية يتم تناولها بعد أن تُسلق، ثم تُقلى
[٧] الكراث البري، يتميّز بطعمه الحاد قليلاً
[٨] الخباز، يكثر في المناطق السهلة، يُسلق، ثم يُقلى

حين بلغت الساعةُ الثانية عشرة ظهراً، اتجه سيراً نحو ربعِ ساعة حتى بلغ بازار نشتيمان، اتجه إلى الحديقةِ التي تطل عليها القلعةُ من جهتها الجنوبية، اقتعد كرسياً وسطَ ألوانِ وأشكال الناس الذين يستأنسون بقضاء أوقات روحية عذبة في حديقة إطلالة شموخ الصرح، لا شيء يشغلهم سوى سحريةِ الحياة التي تتحول بين أنامل أرواحِهم إلى سبحات تستكينُ إليها أفئدتهم، حينئذ تجلو أمام ناظرَيه عبقريةُ بساطة المجتمع الهوليري.

عندما جلسَت، بدا ينظر إليها وهو يتخيّلُها كنزاً من المعرفة مهما نهل منه، فإنه لا ينضب، بدت إشراقةُ المعرفة تسطع من وجهها، عندها فقط أدرك أن أي عمل سلبي يقوم به الإنسان، يمكن أن ينجمَ عنه إيجابيات أيضاً، أدرك أن كل هذه الحشود الهائلة

=

[٩] يُستخدم هذا النبات البري كثيراً في قرى كردستان وأريافها، يؤكل بعد كبسه، ثم قليه

[١٠] الجدائل الثلاث، يؤكل بعد أن يتم طبخه، ومزجه بالبرغل

[١١] يتم استخدامه نيئاً، ويمكن أن يُضاف إليه السمّاق

[١٢] تستخدمه النساء على الأغلب بعد أن يُضاف إليه السمّاق

[١٣] وهو من النباتات الحمضية الطعم، يؤكل مملّحاً

[١٤] ينمو هذا النبات على جداول المياه العذبة، وكذلك في الأماكن الجبلية من طبيعة كردستان، ويتم استخدامه كلون من ألوان المقبلات التي تسبق وجبات الطعام

[١٥] الزعتر، يتم تجفيفه، ويُستخدم مضافاً إلى طبق الكبة باللبن

[١٦] الكعوب، تتميز هذه النبتة البرية بأنها ذات أشواك حادة، تُزال منها الأشواك، وتؤكل نيئة بعد تحميضها بالسمّاق، ويمكن تقطيعها إلى شرائح وقليها نع البيض، وكذلك سُتستخدم في طبق من المقبلات بعد أن يتم سلقها وخلطها باللبن.

[١٧] ينمو هذا النبات في المناطق الجبلية العالية، تحت الثلوج يتسم بسيقانه الطويلة، وطعمه الحامض، يتم تقديمه مثل الفاكهة

التي تركت ديارها تحت وطأة شدّة الحرب، تعلّمت أيضاً مما رأت نفسها فيه ما لم تكن تعلمُه من قبل. قال: ما يخفّف عني مشاعرَ الأسى جراء ما يحدث في دياري، هو أنني التقيتُك يا هولير.

قالت: تعلّمتُ من الإنسانِ ما لم يتعلمه من نفسه، لو تعلّمَ الإنسان من نفسه، لكفاه ذلك، إنه في كثير من الأحقابِ الزّمنية يكرّر ما سبق أن وقع فيه، ويدفع ذاتَ الضّريبةِ التي دفعَها أجداده. أحياناً تلفتُ نظري عمارةٌ قام بها رجل، فيهدمها ابنه، ثم يبنيها حفيدُه، ثم يهدمها ابنُ حفيده، ثم يبنيها حفيد حفيده.

قال: قلعتك تبدو أمام ناظرّي حجرة كريمة كبيرة.

قالت: كل الأحجارِ الكريمة موجودة في قلعتي، صخور قشرة أرض كردستان تتألّف من أربعةِ آلاف معدن، هذه الأرض مباركة إنها المهدُ الثاني للإنسان، بارك الربُ طبيعة أرض كردستان بأن جعل سفينة المهد الثاني ترسو على الجودي. جبالُ الكرد هذه مليئة بخيراتِ الأرض، وتحمي الذي يلوذ بها، تفرّج عنه كربه.

شهدتْ هذه الديارُ ظهورَ الإنسان البدائي، ولذلك اغتنت بكل مقوماتِ الرعاية والخصوبة وسعة المعيشة. أرضُ كردستان المباركة تغتني بالهضاب، والسهول، وخصوبة التربة، ووفرة المياه العذبة، ونقاء الطبيعة، والمناخ العليل، والأشجار البرية، وتوافر أشكال وألوان النباتات والأعشاب. هذه الطبيعةُ أسهمَت في تكاثر أصناف ثروةِ الحيوان في طبيعة وجبالِ الكرد، فتعلّم الكرديُ فنونَ الصيد للاستفادة من خيرات هذه الحيوانات. انتبه الكردي أن طبيعةَ موطنِه تقدّم له كل وسائلِ البناء والتّدفئة من خلال توفر الحجارة، والطين، وأخشاب الأشجار، فلم يتردّد من بناء البيوت، والخنادق، والكهوف. لبث يصغي إليها فأردفت: يحتوي مسكَني على أربعين نوعٍ من نفائس الأحجار الكريمة، كل واحدة تختصّ بمُهمة، لا الألماس يشبه الياقوت، ولا اللؤلؤ يشبه المرجان، ولا الفيروز يشبه العقيقَ، ولا أنياب الفيلة تشبه عظمَ السلاحف، ولا الزمرّد يشبه اللازورد، ولا الدرُّ يشبه الكهرمان.

كان أجدادُك يستخدمون هذه الأحجارَ لأمراض بدنية وروحية، كان الياقوت يوقف عندَهم حالةَ الهلع، ويتسبّب في الحظ، وكانوا يستخدمون اللازورد لتسكين آلام المفاصلِ، العقيقَ لإيقاف النزف، اللؤلؤَ لضربات القلب، وتقويةِ أعصاب العين، وكانوا يستخدمون الإشعاعات التي تصدُر من الزمرّد لمكافحة الحشرات السامة، وهضم الطعام، والفيروز لصدّ الحسد والعين.

كانَ بوسعِ ملوك الأرضِ أن يقدِموا على فعلِ أي شيء من أجل أن يظفروا بلحظات مستكينةٍ في ربوع طبيعتي، ويستلذّوا بالخلودِ إلى النّوم في حجرة من حجرات مخدعي، وهم يتوسّلون إلي كي أكون راضية عنهم.

سنةَ ١٧٢٣ قبل ميلاد المسيحِ لم يشعر حمورابي بلذّة الانتصار إلّا بعد أن تمكن من بسط نفوذِه إلى أرجائي في حكمه البابلي، بيد أنه لم يكن قادراً للاحتفاظ على الاحتفاظ بي. كل إمبراطوريةٍ عندما كان يشتدُّ عودُها، كانت تقدم إلي مضحيَة بالغالي والنفيس.

معركة شرسةٌ دارت بين دارا الثالث، داريوس كودومانوس، والاسكندر ر الأكبر سنة ٣٣١ قبلَ ميلاد المسيح في سهل على بعد عشرين ميلاً شمالَ مسكني، ولبث الجيشان في حربٍ ضروس حتى انتصرَ والإسكندر الأكبر الذي أتاني بزهو قائلاً بأن كل ما قام به كان من أجل أن يظفرَ بي، إذ لم يكن يشعر بأنه استطاع أن يحقق شيئاً مجدياً في حياته لو لم يخض هذه المعركةَ من أجلي، كانت تلك معركة كوكميلا التي ما أزال أذكرُ وقائعها.

صراعاتٌ طويلة نشبَت بين السلوخيين والفرس، حتى تمكّن الفرس من الظفر بي سنة ١٣٩ قبل ميلاد المسيح.

كان سنحاريب يحجّني، ويصلّي في ربوعي إلى آلهته عشتار. معارك انحفرَت في ذاكرتي، دارت رحاها في أرجائي من أجل متعة الظّفر بي، الحرب الضّروس بين الفرس والروم، بين بارس والماديين، بين الآشوريين والماديين، بين دارا الثالث

والساسانيين.حروب أمراء شهرزور، العباسيين، وهولاكو، وتيمورلنك، والعثمانيين، تلك الحرب الضاريةُ بين العباسيين والأمويين حتى انتصر الأمويون.

صمتت هولير قليلاً، وعادت تستأنف سفرَها قائلة: بعد انتصار الإمبراطور الروماني قارامة للا في معركته على طيسفون سنة ٢١٦، لم يشعر بلذة الانتصار حتى رأيتُه يقدم إلي بكل جبروته، ويغزوني، ثم رأيته يعتلي سطح مسكني في قلعتي وهو يبحث كالمجنون عن جواهر ملوك الفرثيين ليقدّمها هدية لي حتى أكون راضية عنه.

سنة ١١٥ لميلاد المسيح جاءني الإمبراطور البيزنطي ترجان، وراودته رغبةٌ في البقاء، وتعاقبت عليَّ سلالتُه من الملوك البيزنطيين، لكن أردشير استطاعَ أن يقود الساسانيين سنة ٢٢٦ ويطردهم من ربوعي ليحتل مكانهم.

عندما لا تنظر إلى الوراء، لن يكون بوسعك أن تنظرَ إلى الأمام بشكل جيد، الحياة سلسلةٌ من الحلقات المتداخلة، كل البطولاتِ البشرية هي بطولات تكاملية، الذي لا ينظر إلى إخفاق الآخرين، لن يكون بوسعه أن يتجنّب الإخفاق، والذي لا ينظر إلى تفوّق الآخرين، لن يكون بوسعه أن يحقق خطواتٍ متفوقة، الإنسان لا يكون بوسعه أن يتكاملَ في قطيعة عن الإنسان.

عندما أراد /دياكو/ أن يعبّر للآخرين بأن الدولة الميدية تتمتع بعواملِ القوة، بنى قصراً ملكيّاً جيداً، ووضع تشريعاتٍ أراد من خلالها أن يحدِث تغييرات في نمط التفكير الميدي، وذلك حتى يثبت بأنه لا يخضع لسلطة الإمبراطورية الآشورية التي كانت تريد أن تنصّب نفسها وصيةً عليه.

لم يكتف بذلك، بل راح يتّفق مع دولة أورارتو التي كانت تقعُ شمال موطنه، وكانت كذلك تعاني من ذات التدخل الآشوري فيها.

اتفقَ الاثنان، وقادا ثورة على إمبراطورية آشور، لكنهما أخفقا لأن الإمبراطورية العتيدةَ كانت في أوج قوتها، الأمر الذي دفع الملك الآشوري سرجون الثالث إلى تجهيز جيش وشنّ حرب عليهما حتى تمكّنَ من تفتيت حلفهما الميدي الأورارتي، لكن هذا الملك

الآشوري لم يكن شرساً إلى درجة تصفية المتمردين عليه، عندما وقع دياكو في أسره، رأى أن يلجأ إلى النّفي كعقاب له، فاختار أن ينفيه مع أسرته وحاشيته الملكية إلى مدينة حماه السورية.

كان ذلك سنة ٧١٥ قبل ميلاد المسيح، ثم بعد أن هدأت الأمورُ، عفا الآشوريون عن دياكو، وأعادوه إلى موطنِه الميدي قائلين بأنهم لا يقفون في وجه قيام الدولة الميدية، ولكن عليه ألّا يشكل تهديداً للإمبراطورية الآشورية، فكانت فرصتُه كي يعيد تشكيلَ دولته الميدية من جديد. هذه صفحةٌ من صفحات التسامح الكثيرة التي ترعرعَ عليها أبناء وحفدة آشور، فكان بوسعهم أن يفتكوا بأي أسيرٍ أعلن الثورة عليهم، بيد أنهم جنحَوا إلى روح التسامح الآشوري. سنة ٧٧٤ قبل ميلاد المسيح، ترك دياكو الحكمَ لابنه فراورتيس، وكان يُلقب بـ حنشا ثريتا.

عملَ هذا الابن على توسعة سلطة الدولة الميدية، واستطاعَ أن يجمع المزيد من القبائل الميدية، وكذلك بسطَ نفوذَه حتى تمكّن من إخضاع بعضِ القبائل الفارسية لدولته، إلى جانب قبائل السميريين، والسكيت الآريانيتين.

عندما تمكّنَ من بسط هذا النفوذ، لم يُقبل الآشوريون على محاربته، بل تقدّمَ الملك الآشوري أسرحدون بشيء من الحكمة، وغدا يلاطفُه ويتحدّث إليه بود جم كي يتحاشى الصراع معه، لكن ذلك لم يمنعه من شنّ هجومٍ على نينوى، العاصمة الآشورية، عند ذاك تحالف السكيت مع الآشوريين، وشنّوا عليه هجوماً من الخلف، وأجبروه بالقوة أن يبتعد عن عاصمة الآشوريين الوديعة نينوى.

عندما رأى السكيت أنفسهم أقوياء، تمكّنوا من السيطرة على ميديا بعد فراورتيس، ولبثوا في سيطرتهم من سنة ٦٥٣ إلى ٦٢٥ قبل ميلاد المسيح.

عند ذاك أنجبَ الميديون زعيمَهم كيخسرو الذي استطاع أن يعيدَ مجد الكرد مرة أخرى، لتشرقَ شمس الاستقلال من جديد على جبال آل الكرد.

كان أجدادك دوماً يتجرّعون مرارةَ الهزيمة عندما كانوا يُطردون مني، لذلك كانوا على الدّوام يستعيدون قوتَهم التي خسروها في الحروب، ليعودوا كرّة أخرى ويستعيدوني، وما إن يشمّوا رائحتي حتى يشعروا بأن أرض الكرد كلها باتت بخير، وعندما يبتعدون عني، يعتريهم إحساسٌ أن أرض الكرد كلها على جناحِ خطر.

دوماً كانوا يبذلون كلّ جهودهم كي يحيلوا أرضهم المباركة إلى جنّة من الخيرات، كانوا يزرعون القمحَ الأحادي، والثنائي، والقزمي. يزرعون العدسَ، والحمص، والكرسنة، والشعير، والكتان. كانوا يربّون الأغنام، والماعزَ، والثّيران، والخنازير البرية، والحمير.

اكتشفوا في موطنهم النّحاسَ، واستطاعوا أن يستخرجوا منه المخارز، والأسلاك، والإبر، وأدوات الزينة، وقاموا بصناعة الفخار العادي، والملون، والأختام الأسطوانية.

أنا قاعدةُ ديارِ الكرد..

أنا قمرُ سماءِ الكرد،

أنا ربيعُ فصول الكرد،

أنا مجدُ تاريخ الكرد.

تلألأت بسمةٌ على ثغرِها، ثم بعد قليل استأنفت تقول: كان السومريون يقولون عن أجدادك الكرد: كوتي، جوتي، جودي. والآشوريون يقولون: كارداكا، كاردان، كاركتان، كاردو، كارتي، كورتي. والأرمن يقولون: كورتيخ، كرخي، كورجيخ، كورخي.

واليونان يقولون: كاردوسي، كردوكي، كاردخوي.

والرّومانُ يقولون: كاردويكاي، كاردوك، كارد خوي.

والفرسُ يقولون: سيرتي، كوردراها، كورتيوي.

والعربُ يقولون: كردي، جودي، كاردوي، كارتاويه، باقاردا، باكردا.

* * * *

مؤلفات صدرت للكاتب

في الرواية:

١- بروين – مركز رام – دمشق ١٩٩٧

٢ – دين – دار الينابيع – دمشق ٢٠٠٤

٣ – جسد وجسد – دار الينابيع – دمشق ٢٠٠٤

٤ – روها ت – دار المنارة – دمشق، بيروت ٢٠٠٦

٥ – خلف الجدار – دار كنعان – دمشق ٢٠٠٧

٦ – إمام الحكمة – وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت ٢٠١٠

٧ – الآخرون أيضاً – منظمة كتاب بلا حدود – كركوك ٢٠١٢

٨ – هولير حبيبتي – مكتب التفسير للنشر والإعلان – أربيل ٢٠١٣

٩ – هولير سدرة العشق – مكتب التفسير للنشر والإعلان – أربيل ٢٠١٥

١٠ – سورين – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠١٩

١١- سيامند وخجي – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠١٩

١٢- بلاد ليست كالبلاد – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠١٩

١٣- أمريكا كاكا – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢٠

١٤- المُلحد – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢٠

في القصة:

١٥ – سيمفونية الصمت – دار المجد – دمشق ١٩٨٩

١٦ – الحب في دائرة العبث – دار المجد – دمشق ١٩٩٠

١٧- طقوس الذكرى – دار الثقافة – دمشق ١٩٩٢

١٨ – كتاب الحب والخطيئة – مركز الإنماء الحضاري – حلب ٢٠٠٤

١٩ – غيوم من الشرق – منشورات اتحاد الكتاب العرب– دمشق ٢٠٠٦

٢٠ – طريقة للحياة – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ٢٠٠٧

٢١ – مدار اللسان – دار الكافي– الجزائر ٢٠٢١

في الدراسات:

٢١ – فقه المعرفة – دار المنارة – بيروت ٢٠٠٤

٢٢ – إسلام ومسلمون وفقهاء – دارالرضوان – حلب ٢٠٠٤

٢٣ – عالم الكتابة القصصية للطفل – وزارة الثقافة والإعلام – سلسلة كتاب المجلة العربية– الرياض ٢٠١٠

٢٤ – حساسية الروائي وذائقة المتلقي – وزارة الثقافة والإعلام – سلسلة كتاب المجلة العربية– الرياض ٢٠١٢

٢٥ – الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن – الاتحاد الاسلامي الكردستاني – أربيل ٢٠١٤

٢٦ – فضيلة العفو في السيرة النبوية – منشورات جامعة الملك سعود – الرياض ٢٠١٥

في مشروع التحليل الروائي للقرآن الكريم:

٢٧– التحليل الروائي لسور: الفاتحة، البقرة، آل عمران، النساء، المائدة– المجلّد الأول، الطبعة الثانية، منشورات دار الكتاب العلمية بيروت٢٠٢٠

٢٨– التحليل الروائي لسورتَي: الأنعام، الأعراف– المجلّد الثاني، الطبعة الثانية، منشورات دار الكتاب العلمية بيروت٢٠٢٠

٢٩– التحليل الروائي لسورة: الأنفال– المجلّد الثالث، الطبعة الأولى، منشورات دار الكتاب العلمية بيروت٢٠١٩

٣٠– التحليل الروائي لسورة: التوبة– المجلّد الرابع، الطبعة الأولى، منشورات دار اسكرايب للنشر والتوزيع– القاهرة ٢٠٢١

الفهرس..

الجزء الأول – هولير حبيبتي	٣
الجزء الثاني – سدرة العشق	١٤١
مقام الهوى ..	١٤٢
شجرة الجبل..	١٤٨
نبتة العشق..	١٧٥
مظفر الدين كوكبري..	١٨١
الزيارة..	١٩٠
مهاجرون وأنصار ..	١٩٧
كمثل نفاثات في عُقَد..	٢٠٣
أنيسة الروح..	٢١٥
مؤلفات صدرت للكاتب	٢٢٣
الفهرس	٢٢٥